الذين يحبهم الله والذين لا يحبهم

فأين أنت منهم

جمع وترتيب
عماد الدين أبو النجا

بسم الله الرحمن الرحيم

شُكـــــــــر

انطلاقًا من قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ " [1] فإنني أشكره سبحانه – ؛ استجابة لأمره إذ قال – تعالى – : (أَنِ اشْكُرْ لِي) (لقمان : 14) كما أشكره – سبحانه – أن هدانا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ .

وبعد شكره – سبحانه – فإنني أشكر رسولَه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الذي علّمني وعلّم الأمة بأسرها فكان المعلِّم الأول للأمة . كيف لا وقد تولّى ربُّه تعليمه ، قال – سبحانه وتعالى – مخاطبًا إياه :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) (النساء / 113) ، فكان – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أعلم العلماء وأحكم الحكماء ، ولمّا علّمه ربُّه أمره بالبلاغ فقَالَ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) (المائدة : 67) ، قال الشيخ السعدي – يرحمه الله تعالى – عند تفسير هذه الآية : " هذا أمر من الله لرسوله محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بأعظم الأوامر وأجلها ، وهو : التبليغ لما أنزل الله إليه ، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من العقائد والأعمال والأقوال ، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية إنما كان بتبليغه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إياه فبلَّغ أكمل تبليغ ، ودعا وأنذر ، وبشَّر ويسَّر ، وعلَّم الجهال الأمِّيين حتى صاروا من العلماء الربانيين ، وبلَّغ بقوله وفعله وكتبه ورسله . فلم يبق خير إلا دلَّ أمته عليه ورغبها فيه ، ولا شر إلا ونهى الأمة عنه وحذرها منه ، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة ، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين ، ومن هنا يجب الإيمان بأن الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونصح للأمة " .

وبعد شكر الله – عزّ وجلّ – وشكر رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فإنني :

أولًا : أشكر علمائنا ومشايخنا الذين لهم الفضل بعد الله في تعليمنا وتأديبنا .

ثانيًا : أشكر والداي ففضائلهما عليَّ تترا قال – تعالى – : (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) (لقمان : 14) .

ثالثًا : أشكر كل من ضحَّى أو تنازل عن حق من حقوقه من أجل إتاحة الوقت لي لإنجاز هذا العمل من زوجة و أولاد ومن لهم حق عليَّ .

رابعًا : أشكر إخواني وتلامذتي وكل من ساهم في خروج هذا العمل من كتابة وطباعة وتنسيق وكذا نصح وتوجيه.

خامسًا : القراء وكل من سيقدِّم لي نقدًا بناءً ونصيحة لله أو توجيهًا أو إرشادًا أو تصويب أخطاء أو أيَّ شئ من شأنه إخراج هذا العمل في أفضل صورة ليعمَّ النفع به كل الناس .

---

(1) قال عنه الشيخ الألباني : " صحيح " (يُنظر : صحيح الجامع /ح6541) طبعة المكتب الإسلامي ، (صحيح الترمذي / 1955) .

مقـــدمـــــة

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَ نَسْتَعِينُهُ ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِىَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (آل عمران / 102) .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)) (النساء) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71)) (الأحزاب) .

أما بعـــــــــــــــد :

فهذه رسالة بعنوان : (**الذين يحبهم الله والذين لا يحبهم فأين أنت منهم**) أتحدث فيها عن أناس يحبهم الله و عن أفعالهم التي كانت سببًا في بلوغهم تلك المنزلة – جعلنا الله منهم – ، و كذلك أتحدث عن أناس لا يحبهم الله و عن أفعالهم التي كانت سببًا في بلوغهم تلك المنزلة – أعاذنا الله منهم وسوف أمهد بين يدي الموضوع بالحديث عن عدة نقاط هي :

1 – تعريف الحب و المحبة .

2 – إثبات صفة المحبة لله ومودته لأوليائه و أدلة ذلك من الكتاب و السنة و الإجماع .

3 – مراتب الحب و ما يثبت لله منها أو يجوز أن يتصف بها ، و ما لا يجوز في حقه .

4 – هل كل الناس يثبتون صفة المحبة لله أو مراتبها ؟ وهل خالف أحدٌ أهلَ السنة والجماعة ؟

5 – أول من نفى صفة المحبة و الفِرَق المخالفة لعقيدة أهل السنة و الجماعة و الرد عليهم .

6 – الأسباب الجالبة للمحبة .

7 – علامات المحبة و الرضا .

8 – صفات المحبوبين في القرآن و السنة – جعلنا الله منهم – .

9 – فضائل محبة الله عز و جل .

10 – ثمرات محبة الله عز و جل .

11 – أقسام المحبة .

12 – مقارنة بين حب الخالق و حب المخلوقين .

تمهيد

يقول الشيخ : عائض بن عبدالله القرني في كتابه : ضحايا الحب : ما الحب ؟

لا أعلم كلمة في قاموس العربية تعبر عن الحب مثل كلمة (الحب) ، فليس هناك أصدق من (الحاء والباء) في دلالتهما على هذا المقصود العظيم ، فالحاء تفتح الفم فيبقي فارغًا حتى تأتي الباء فيضم الفم وتطبق الشفتان ، إذًا هنا اجتماع بعد فرقة بعد هجر !.

وكلمة (حب) : كلمة عامرة ، لها أنداء وأفياء وظلال وأبعاد ، وهي كلمة مؤنسة مشجية منعشة مشوقة ، بل هي معجبة مطربة مغرية ، لكنها ذائعة شائعة ، غير أنها خفيفة لطيفة شريفة وفيها نضارة .

كلمة (حب) : عالم من المودة والصلة والأنس والرضى والراحة ، وهي دنيا الأمل والفأل الحسن ، والأمس الجميل واليوم الحافل ، والغد الواعد .

الحب حرفان حاء وبعدها بـــــاء *** تذوب عند معانيها الأحبـــــاء

وأما تعريف كلمة (الحب) فخذه نظمًا ولا تخش ظلمًا ولا هضمًا :

الحب بسمة عاشق ولو أنهـــــا *** سفرت لغار البدر مـــن إطلالها !

وقيل :

الحب أكبادنا تشوى وأعينـــــا *** تكوى ، وأعمارنا تطوى على الأمل

وقيل :

إذا قلت هذا الحب بعد و لوعـــة *** وفرقة أصحاب وهجـــر أقارب

فما الحب إلا الأنس والقرب والرضى *** فدعني فهذا الحكم بعد التجـارب

وقيل :

الحـــــــب كالسحر إلا أن رقيته *** شهادة لا يذوق الموت لاقيهـــا

وقيل :

الحـــــــب ليس رواية شرقية *** بأريجها يتزوج الأبطـــــــال

لكنه الإبحار دون سفينـــــــة *** ومرادنا أن الوصول محـــــال

وقيل :

لعلك يا محب ظننت ظنـــــا *** بأن الحـــــــب جمع وافتراق

أجل هو جمع أوصال تداعـــت *** وفرقة مهجة ، ودم يـــــــراق !

وقيل : الحب قصة طويلة فصولها الشهداء .

وقيل : الحب سر لا يعرفه المحبون .

وقيل : الحب ليس له تعريف إلا الحب .

1 – تعريف المحبة وحدُّها :

(المحبة) لغة : الميل إلى الشيء السار .

قال ابن القيم : لا تُحَدُّ المحبةُ بحدٍّ أوضحَ منها ؛ فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً ، وجفاءً ، فحدُّها وُجُودُها ، ولا توصف المحبة بوصفٍ أظهرَ من المحبة .

وإنما يتكلم الناس في أسبابها ، وموجباتها ، وعلاماتها ، وشواهدها ، وثمراتها ، وأحكامها ؛ فحدودهم ، ورسومهم دارت على هذه الستة ، وتنوعت بهم العبارات ، وكثرت الإشارات بحسب إدراك الشخص ، ومقامه ، وحاله ، ومِلْكِهِ للعبارة .

ومما قيل في حَدّ المحبة وتعريفها ما يلي :

1– الميل الدائم بالقلب الهائم .

2– إيثار المحبوب على جميع المصخوب .

3– موافقة الحبيب في المشهد والمغِيب .

4– مواطأة القلب لمرادات المحبوب .

5– استكثار القليل من جنايتك ، واستقلال الكثير من طاعتك .

6– سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب .

7– ميلك للشيء بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك ، وروحك ، ومالك ، ثم موافقتك له سرًا ، وجهرًا ، ثم علمك بتقصيرك في حبه .

8– الدخول تحت رق المحبوب وعبوديته ، والحرية من استرقاق ما سواه .

9– سفرُ القلب في طلب المحبوب ، ولهجُ اللسان بذكره على الدوام .

10– المحبة أن يكون كُلُّكَ بالمحبوب مشغولًا ، وذلُّك له مبذولًا .

2 – إثبات صفة المحبة لله ومودته لأوليائه ، و أدلة ذلك .

قال تعالى : (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (المائدة /54) .

فيه إثبات صفة المحبة لله عز وجل ، والمحبة صفة فعلية اختيارية ؛ لأنه يحب من يشاء متى شاء ، فهي صفة معلقة بمشيئة الله ، فهو يُحِب من يُحِب ، ويبغض من يبغض جل وعلا . وهي محبة حقيقية تليق بالله تعالى . وقد فسرها أهل التعطيل بالثواب ، أو غير ذلك كما سنبين .

إن صفة المحبة من الصفات الفعلية الثابتة لله عز وجل بأدلة من الكتاب و السنة و الإجماع و هي كما يلي :

أولًا : الأدلة من الكتاب :

قَالَ تَعَالَى : (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (المائدة /54) .

قَالَ تَعَالَى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (آل عمران / 31) .

قَالَ تَعَالَى : (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) (النساء /125) .

قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة / 195) قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (البقرة / 222) . قَالَ تَعَالَى : (فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (آل عمران / 76) قَالَ تَعَالَى : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران / 134) قَالَ تَعَالَى : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) (آل عمران / 146) قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران / 159) قَالَ تَعَالَى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ) (آل عمران : 31) قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (المائدة / 42) قَالَ تَعَالَى : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) (التوبة / 108) قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ) (الصف / 4) قَالَ تَعَالَى :(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) (البروج / 14) .

ثانيًا : الأدلة من السنة :

عَنْ أَنَسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ – وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحِي – ائْتُوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ سُؤَالَهُ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ فَيَسْتَحِي فَيَقُولُ ائْتُوا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ ائْتُوا مُوسَى عَبْدًا كَلَّمَهُ اللَّهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ فَيَسْتَحِي مِنْ رَبِّهِ فَيَقُولُ ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ وَكَلِمَةَ اللهِ وَرُوحَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ ائْتُوا مُحَمَّدًا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَبْدًا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَيَأْتُونِي فَأَنْطَلِقُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ (لِي) فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُقَالُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي – مِثْلَهُ ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ (ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ) ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَقُولُ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ " قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ : " إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ " يَعْنِي قَوْلَ اللهِ تَعَالَى : (خَالِدِينَ فِيهَا) . (خ / 4476) .

عن جُنْدَب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ : " إِنِّى أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِى مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِى خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِى خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّى أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ " . (خ / 1216) .

عن عَبْد اللَّهِ بْن مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ قَالَ : " لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنَّهُ أَخِى وَصَاحِبِى وَقَدِ اتَّخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلاً " (م / 6322) .

عَنْ سَهْل بن سَعْدٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ : " لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ قَالَ فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ

أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ : " أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؟ فَقِيلَ : هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ ، قَالَ : " فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ " فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ عَلِيٌّ : يَا رَسُولَ اللهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟ فَقَالَ : " انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ " . (خ / 4210) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ " . (خ / 6502) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ " (خ /2970) ، (م /4772) .

ثالثًا الإجماع :

أجمع السلف على ثبوت المحبة لله ، يُحِب ، ويُحَب ، فيجب إثبات ذلك حقيقة من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل .

قال أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (المتوفى : 728هـ) في كتابه مجموع الفتاوى :

فَإِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَإِجْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ : أَثْبَتَتْ مَحَبَّةَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَحَبَّتَهُمْ لَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ) (البقرة / 165) وَقَوْلِهِ : (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ) (التوبة /24) وَقَوْلِهِ : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (المائدة / 54) وَقَوْلِهِ : (فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (آل عمران / 76) (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران / 134) (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (البقرة / 222) (البقرة) (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (المائدة / 42) .

وَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : عَنْ أَنَسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ " . (خ / 16) .

وَقَدْ أَجْمَعَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا عَلَى إثْبَاتِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَحَبَّتِهِمْ لَهُ وَهَذَا أَصْلُ دِينِ الْخَلِيلِ إمَامِ الْحُنَفَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

والخلة مرتبة أعلى من المحبة ، فالخلة هي الغاية والمنتهى في مراتب المحبة ، والخلة أخص من مطلق المحبة وتخصيصها – أي : الخلة – من وجهين : الوجه الأول : أن الخلة تكون محبة لذات الشيء ، أي : محبة ليست لغرض وإنما لكون المحبوب مستحقًا للمحبة .

الوجه الثاني : أن الخلة تمنع الشركة ، فلا شركة في الخلة ، بخلاف المحبة فإنها تقبل الشركة .

وهذان الوجهان واضحان في قول النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنِّى أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِى مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِى خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا " . (خ / 1216) .

أي : صيرني خليلًا له جل وعلا ، فهو خليل الرحمان ، فتبرأ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من كل خلة ؛ لأن الخلة لا تقبل الشريك ، ولأن المحبوب سبحانه وتعالى محبوب لذاته ، فهذا ما اختصت به الخلة .

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(يُحِبُّهُمْ) !.. هذا عجيب ، لأنه غني عنهم ، وهم فقراء إليه ، ولا يعتمد عليهم ، ويعتمدون عليه ، ولا يطلب شيئًا منهم ، وهم يطلبونه في كل شئ .

وعجيب أن يحبهم وهم مخلوقون ، وهو الذي خلق ، ومرزوقون وهو الذي رزق .

(وَيُحِبُّونَهُ) .. ليس بعجيب ، فقد صورهم وهم أجنة ، ثم أخرجهم من بطون أمهاتهم وله المنة ، ثم هداهم بالكتاب والسنة .

ويحبونه ؛ لأنه أعطاهم القلوب ، والأسماع ، والأبصار ، وسخر لهم الشمس والقمر والنهار ، وحماهم من الأخطار في القفار والبحار .

ولو قال : يحبهم ، وسكت لتوهم منهم الجفاء ، ولو قال : يحبونه ، وسكت ، لقيل ليس لهم عنده اختفاء ، فلما قال : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) ، تم الوداد والصفاء ، وظهر الوفاق والوفاء .

3 – مراتب المحبة :

أول مراتب المحبة هي : التعلق ، أو العلاقة وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب قال الشاعر

أعلاقة أم الوليد بعيد ما ... أفنان رأسك كالثغام المخلس

ومعناها : وجود علاقة بين طرفين ، وهذه هي الدرجة الدنيا في المحبة ، وقد وردت في شعر العرب ، كما قال الأعشى :

عُلِّقْتُها عَرَضًا وعُلِّقَتْ رَجُلًا ... غيري وعُلِّقَ أخرى غيرَها الرَجُلُ

فعُلق وتعلَّق بمعنى أحب . وعُلِّقتها : أي حُبِّبْت إلي وأحببتُها وحُبِّبْتُ فيها .

وعُلِّقت رجلاً غيري ، أي وهي تعلقت رجلاً آخر .

وعُلِّق أخرى ذلك الرجل : والرجل تعلق امرأة أخرى ، أي : أحب تلك المرأة الأخرى ، والعلاقة لم ترد في صفات الله تعالى ، فلا يجوز لأحد أن يقول تعلقت الله ، ولا يقول : إن الله تعلقه .

الثانية : الإرادة وهي ميل القلب إِلَى المحبوب وطلبه له ، وقد وردت الإرادة بمعنى المحبة لله ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) (الكهف / 28) فجاءت الإرادة في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو أعظم مراد ، ولهذا كَانَ أيُّ عملٍ خالص لوجه الله ، فإنه يُقَالَ : إنه أريد به وجه الله ، فالذين يريدون وجهه في قوله تعالى : (ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ) (الروم /38) أي : يحبونه ويطلبونه ، فهو مرادهم ومتمناهم وغايتهم ، فأعظم غاية وأعظم مراد وأعظم مطلوب هو وجه الله – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – وكذلك إذا قلنا : إن الله يريد منا الصلاة أو يريد منا الصيام ، أو يريد كذا مما شرعه الله .

فمعنى ذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحبه ويطلبه منا ، كما سبق في أقسام الإرادة .

الثالثة : الصبابة وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه كانصباب الماء في الحدور فاسم الصفة منها صب والفعل صبا إليه يصبو صبًا وصبابة فعاقبوا بين المضاعف والمعتل وجعلوا الفعل من المعتل والصفة من المضاعف ويقال صبا وصبوة وصبابة فالصبا أصل الميل والصبوة فوقه والصبابة الميل اللازم وإنصباب القلب بكليته و الصبابة قد جاءت في أشعار العرب ، والعرب كانوا يسمون المحب صبًا ، فيُقَالُ : فلانٌ صبٌ ، أي : محب عاشق مُتيّمٌ إِلَى آخر هذه الأوصاف ؛ لأنها مشتقة من انصباب القلب وتوجهه وميله .

فكأن صاحبه لا يملكه وإنما هو منصب مثل انصباب الماء في المنحدر فلا يملكه صاحبه ، والصبابة لا تطلق عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ لا منه ولا إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

الرابعة : الغرام وهو الحب اللازم للقلب الذي لا يفارقه بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه ومنه سمي عذاب النار غرامًا للزومه لأهله وعدم مفارقته لهم يُقالُ : فلانٌ غَرِيمُ فلان ، يعني خصمه الملازم له ، الذي لا يدعه ولا يفكه ، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحديث عن جهنم (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) (الفرقان /65) أي : ملازمًا دائمًا ، نسأل الله العفو والعافية ، ولهذا لا يوصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالغرام وكذلك لا توصف محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالغرام .

الخامسة : المودة أو الوداد : والود : هو صفو المحبة وخالصها ولُبُّها ؛ لأن خلاصة المحبة يسمى ودًا ، وقد جَاءَ هذا في القُرْآن يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (مريم / 96) ومن صفاته تَعَالَى الودود ، فهو ودود جل شأنه ، والودود من أسماء الرب تعالى وفيه قولان :

أحدهما : أنه المودود ، قال البخاري رحمه الله في صحيحه : الودود الحبيب .

والثاني : أنه الواد لعباده أي المحب لهم ، وقرنه باسمه الغفور إعلامًا بأنه يغفر الذنب ويحب التائب منه ويوده فحظ التائب نيل المغفرة منه .

وعلى القول الأول الودود في معنى يكون سر الاقتران أي اقتران الودود بالغفور استدعاء مودة العباد له ومحبتهم إياه باسم الغفور . وهذه من الصفات التي وردت وثبتت له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

السادسة : الشغف ، يقولون : باطن القلب الرقيق جدًا هذا هو شغافه ، فما ملك شغاف القلب ، ووصل إليه فهذا غاية المحبة وأعلى مما سبق من المراتب ، الشغف يقال : شغف بكذا فهو مشغوف به وقد شغفه المحبوب أي وصل حبه إلى شغاف قلبه وقد جَاءَ ذلك في القُرْآن الكريم عند الحديث عن امرأة العزيز في حبها ليوسف عَلَيْهِ السَّلام عَلَى لسان النسوة اللاتى في المدينة ، قلن : (قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) (يوسف / 30) يعني وصلت محبته في قلبها إِلَى شغاف القلب وباطنه ، فتمكنت بحيث لا يمكن أن تخرج ، ولا يمكن أن تغادره ، ولا يمكن أن تنسى هذا الحب ولا أن تلتفت عنه .

وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الحب المستولي على القلب بحيث يحجبه عن غيره قال الكلبي : حجب حبه قلبها حتى لا تعقل سواه .

الثاني : الحب الواصل إلى داخل القلب قال صاحب هذا القول : المعنى أحبته حتى دخل حبه شغاف قلبها أي داخله .

الثالث : أنه الحب الواصل إلى غشاء القلب والشغاف غشاء القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب قال السدى : الشغاف جلدة رقيقة على القلب ، يقول : دخله الحب حتى أصاب القلب .

وقرأ بعض السلف : (شعفها) بالعين المهملة ومعناه ذهب الحب بها كل مذهب وبلغ بها أعلى مراتبه ومنه شعف الجبال لرؤوسها .

السابعة : العشق وهو الحب المفرط الذي يخاف عَلَى صاحبه منه ، ورُفع إلى ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – شاب ، وهو يعرفه قد صار كالخلال فقال : ما به ؟ قالوا : العشق ، فجعل ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – عامة دعائه بعرفة الاستعاذة من العشق .

وفي اشتقاقه قولان : أحدهما : أنه من العشقة محركة وهي نبت أصفر يلتوي على الشجر فشبه به العاشق .

والثاني : أنه من الإفراط ، وعلى القولين فلا يوصف به الرب تبارك وتعالى ولا العبد في محبة ربه وإن أطلقه سكران من المحبة قد أفناه الحب عن تمييزه كان في خفارة صدقه ومحبته .

وهذا اللفظ استعمله طائفة من أرباب السلوك فيما بين العبد وبين ربه ، فقالوا :

إنّ الله يُعشَقُ ويَعْشِقْ ، وقالوا : إنني – يعني المتكلم الذي تَكَلَّمَ – أَعْشَقُ الله – عز وجل – .

ولفظ العِشْق هو من مراتب المحبة – كما هو معلوم – ؛ ولكنه يُمْنَع في إطلاقه من العبد على ربه ومن الرب للعبد ، وذلك لأمور :

1 – الأول : أنّ لفظ العشق لم يرد في النصوص لا في الكتاب ولا في السنة ، لا من جهة العبد لربه ولا من جهة الرب لعبده ، فيمتَنِعُ إطلاق هذا اللفظ واستعماله في المحبة لأجل الاتّباع .

2 – الثاني : – وهو تعليل لفظي أيضًا – أنَّ لفظ العشق إنما تستعمله العرب فيما إذا كان لصاحبه شهوة في المعشوق ، ومعلوم أنّ الشهوة إنما تكون لمن يَنكِح أو يُنكَح يعني للرجل أو المرأة .

فإذًا استعمال اللفظ في حق الله – عز وجل – ممتنع لفظًا ؛ لأنه لا يستعمل هذا اللفظ إلا في ذلك المعنى .

3 – الثالث : في رد لفظ العشق واستعماله – من جهة المعنى ، وهو أَنَّ العشق فيه من جهة العبد ، أو في إطلاقه على من وُصِفَ به فيه تعلُّق بالإرادة وبالإدراك .

فلا عشق يحصل إلا وهو مُؤَثِّرٌ في الإرادة بإضعافها ومؤثر في الإدراك بحصول خلل فيه .

ولهذا أجمع أهل اللغة في أنَّ معاني العشق لابد أن يكون في آثارها ما هو نوع اعتداء :

إما على النفس ، وإما على الغير .

– اعتداء على النفس بإضعاف الإدراك أو بإضعاف الإرادة .

– واعتداء على الغير بأنه لو أشعره بذلك فتعاشقا لصار عنده ضعف في الإدراك وضعف في الإرادة .

والله – عز وجل – لا يجوز أنْ يُقال في محبته إنها تُنْتِجُ ضعفًا في الإرادة أو ضعفًا في الإدراك ؛ بل محبة الله – عز وجل – تبلغ بالعبد – يعني محبة العبد لربه – تبلغ بالعبد كمال الإرادة المطلوبة المحمودة وكمال الإدراك المطلوب المحمود ؛ يعني في الإيمان ، ولهذا امْتَنَعْ أنْ يوصف الله – عز وجل – بأنه يعشق عبدَه أو أن العبد يعشق ربَّه .

وقد وقع غرائب من العشق من الشعراء مثل قيس وليلى ، وأمثالهم من العشاق حتى يصل بهم الأمر – نسأل الله السلامة والعافية – إِلَى حد أنه يكون كالمجنون يتبعها أينما ذهبت ، يهيم بها فينشد الأشعار فيها وهو في كل مكان ؛ لأن عشقها قد تمكن في قلبه حتى قال المجنون :

أصلّي فلا أدري إذا ما ذكرتها ... أثنتين صلّيت الضّحى أم ثمانيا

أراني إذا صلّيت أقبلت نحوها ... بوجهي وإن كان المصلّى ورائيا

وما بي إشراكٌ ولكنّ حبّها ... وعظم الجوى أعيا الطّبيب المداويا

نسأل الله العافية ، يقول : أنا لا أشرك بالله ؛ لكنني عندما أصلي لا أدري أصليتُ اثنتين أو ثمانيا ؛ لأن قلبه قد شغله العشق ومحبة هذه المعشوقة حتى نسي كل شيء ، هذا الوصف بهذه اللفظة أيضًا لا يطلق عَلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فلا يُقَالَ : إن الله يعشق أحدًا ، ولا يجوز أيضًا أن يُقَالَ : إن أحدًا يعشق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فهذا لا يليق ؛ لأن هذه الكلمة بالذات هي أكثر الأسماء دلالة عَلَى المحبة الشهوانية والحب الإباحي .

فإذا قيل : عشق أو معشوق فهو الحب الشهواني الإباحي وهذا ينزه عنه الله – تبَارَكَ وَتَعَالَى علوًا كبيرًا – وكذلك بالنسبة للمخلوقين ، ومع ذلك فإن الصوفية يستخدمون هذه اللفظة كثيرًا جدًا في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علوًا كبيرًا ، ويستخدمونها في حق النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أيضًا ، حتى أن بعضهم يكتبها عَلَى ورقة ويلصقها عَلَى البيت وعلى السيارة هكذا (عاشق النبي يصلي عليه) سُبْحانَ اللَّه !

كيف يُقال : عاشق النبي ؟ كيف تُستخدم هذه اللفظة التي يستخدمها الإباحيون والشهوانيون في حقه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ؟

فضلاً عن كون هذه الطريقة بدعية ، وحجتهم أنهم يقولون : لنذكِّرالنَّاس بالصلاة عليه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

ولذلك لما قَالَ المُصنِّفُ هنا : (وإن كَانَ قد أطلقه بعضهم) يقصد الصوفية ، ثُمَّ يذكر أن العلماء أو الباحثين اختلفوا في سبب منع اطلاق العشق عَلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منه وإليه ، فقيل : لأنه لم يرد وهذا كلام صحيح . وقيل : غير ذلك ، ولعل امتناع إطلاقه أن العشق محبة مع شهوة ، ولا تعارض بين السببين ؛ لأنه أولًا : لم يرد ، وما لم يرد لا نطلقه عَلَى الراجح ، والأمر الثاني أيضًا : أن العشق كما بيَّنا لا يكون إلا مع الحب الشهواني الإباحي ، نسأل الله أن يعافينا وإياكم من هذا الداء الخبيث ، فداء العشق داء عضال ، وبالمناسبة فإن كتاب الجواب الكافي لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ، كَانَ سبب تأليفه أن رجلًا عشق واجتهد في أن يزيل هذه المصيبة عن قلبه ، فلم يستطع ويريد السبيل إِلَى علاجها أو إِلَى حلها .

فكتب إِلَى ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ سؤالًا فيه الحياء وفيه اللطف والرقة ، قَالَ : ما تقولون رحمكم الله أو ما رأيكم في رجل ابتلي ببلية فصبر وسكت ... الخ ، ففهم ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ المعنى بأنه ابتلي بعشق امرأة وتمكن ذلك من قلبه ولم يستطع أن يفارقه فما هو الحل ؟ فكتب الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه : (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) وكان هذا جوابًا كافيًا فعلًا ، تحدث فيه عن أضرار المعاصي جملة وخطرها ، ثُمَّ فصل الكلام في ضرر العشق – ومفاسده وفيما يجره عَلَى الإنسَان ، ومن أعظم ما ذكره وما نبه عليه في ذلك أن الإنسَان إذا تعلق قلبه شيئًا ما وعشقه وأحبه فإنه يذكره عند موته ، وعند الخروج من هذه الدنيا والإقبال عَلَى الآخرة ، وينسى الأمور الثانوية ، ولا يكون في قلبه إلا الشيء الذي كَانَ في دنياه والأساس الذي كَانَ متمكنًا من قلبه وشاغلًا ذهنه هو الذي يذكره عند الموت ، ولذلك يخشى عَلَى هَؤُلاءِ العشاق أن يموتوا عَلَى غير الإسلام ؛ لأن أحدهم يأتيه الموت وهو لا يتذكر إلا هذه المعشوقة أو هذه الحبيبة . وذَكَرَ عَلَى ذلك أمثلة من واقع التاريخ مثل الرجل الذي جاءته امرأة تريد حَمَّام ، والحَمَّام معروف عند العرب قديمًا أنه مكان كبير فيه أدوات النظافة والاستحمام وما أشبه ذلك ، فكانت تريد الحمام ، وكان بجواره حَمَّام اسمه (حَمَّام منجاب) فوقفت وسألت هذا الرجل ، فقالت له : أين حمام منجاب ، فَقَالَ لها من هنا ، ودلها عَلَى بيته فدخلت البيت ودخل هو معها البيت وأراد أن يفعل بها الفاحشة ولم يستطع ، المهم أنه تعلقها من ذلك الوقت ، فابتلاه الله بمحبتها فوقعت في قلبه فعمل في ذلك أبياتًا :

يارُبَّ قائلة يومًا وقد تعبت أين الطريق إِلَى حَمَّام منجاب

وكان يكرر هذه القصيدة ، فلما جاءه الموت – نسأل الله السلامة والعافية ونسأل الله لنا ولكم حسن الختام – قالوا له : قل لا إله إلا الله ، اذكر الله ، فقَالَ :

يارُبَّ قائلة يومًا وقد سألت *** أين الطريق إِلَى حَمَّام منجاب ، وما زال والعياذ بالله يكرر هذا البيت حتى قبضه ملك الموت – نسأل الله السلامة والعافية – فهذا داء خطير ابتلى به النَّاس في كل زمان وفي كل مكان ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلام في القُرْآن ذكر من العبر المستفادة : كيف تتمكن هذه الشهوة ، وكيف يكون العشق ، وما هو العلاج الذي يتخذ في علاج هذا المرض .

فهذه اللفظة مستهجنة ومستقذرة في حق الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – فلا يجوز أن تطلق عليه .

الثامنة : التَّتيِّم وهو بمعنى التعبد ، والتذلل يقال : تيمه الحب أي ذلله وعَبَّدَه ، وكأن محبة المحبوب قد استعبدت هذا المحب حتى صار متيمًا وكثيرًا ما ترد هذه الكلمة أيضًا في أشعار العرب ، وفي أخبار العشاق ، فيُقَالُ : متيم بها ، أو تيمتني ، ومن أشعار الصوفية في مجالسهم : تيموني هيموني ، أي جعلوني متيمًا متعلق القلب ... الخ .

وتَيَّم : معناها عَبَّد ، ولذلك يُقَالَ : بنوا تيم الله ، وتيم الله قبيلة من أحد أفخاذ قريش التي منها أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فـ (تيم الله) معناها : عبد الله ، وفلان مُتيَّم بالحب أي : مستعبد بالحب وصلت به محبته إِلَى درجة العبودية للمحبوب ، وبينه وبين اليُتْم الذي هو الانفراد تلاق في الاشتقاق الأوسط وتناسب في المعنى فإن المُتيَّم المنفرد بحبه وشجوه كانفراد اليتيم بنفسه عن أبيه وكل منهما مكسور ذليل هذا كسره يتم وهذا كسره تتيم .

التاسعة : التعبد وهو فوق التتيم ومعناها أن يصل به الحب إِلَى أن يتعبد تعبدًا ويقول إنه عبد ، فالتعبد هو : أن يستشعر المحب أنه قد صار عبدًا لمحبوبه ، وهذه اللفظة تطلق عَلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منا وهذا معلوم ولا خلاف فيه ، لكن – كما تعلمون ولا خلاف في ذلك – لا يطلق عَلَى محبة الله لنا أنها تعبدية ، تَعَالَى وجل شأنه عن ذلك . فإن العبد هو الذي قد ملك المحبوب رقه فلم يبق له شيء من نفسه البتة بل كله عبد لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا وهذا هو حقيقة العبودية ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها .

ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة وصفه الله بها في أشرف مقاماته ، مقام الإسراء كقوله : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ) (الإسراء / 1) ، ومقام الدعوة كقوله : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ) (الجن / 19) ، ومقام التحدي كقوله : وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا (البقرة / 23) وبذلك استحق التقديم على الخلائق في الدنيا والآخرة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – : فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى وكمال مغفرة الله له وحقيقة العبودية الحب التام مع الذل التام والخضوع للمحبوب تقول العرب : طريق مُعبَّد أي قد ذللته الأقدام وسهلته .

العاشرة : الخلة هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب فالخلة هي أعلى ما يتصور من درجات المحبة ، كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح مني ولذا سمي الخليل خليلا

أي الذي تخللت محبته مسالك القلب ومسالك الروح فهذا يسمى خليل ، و الخلة التي انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، فعن جُنْدَب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ : " إِنِّى أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِى مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِى خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِى خَلِيلًا لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا " (م / 1216) .

و عن عَبْد اللَّهِ بْن مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ قَالَ : " لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي وَقَدِ اتَّخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا " (م / 6322) .

والحديثان في الصحيح وهما يبطلان قول من قال الخلة لإبراهيم عليه السلام والمحبة لمحمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والصحيح أن إبراهيم عليه السلام خليله ومحمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – خليله كذلك . فمحبة الله قد تخللت مسالك الروح منه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، ولا يزاحمه أحد من المخلوقين عَلَى الإطلاق .

وأما المعنى اللغوي وهو : التخلل ، فلا يكون إلا في حق المخلوقين ليس في حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وهذا هو السرُّ الذي لأجله – والله أعلم – أُمرَ الخليل بذبح ولده وثمرة فؤاده وفلذة كبده لأنه لما سأل الولد فأُعطيه تعلقت به شعبة من قلبه ، والخلة منصب لا يقبل الشركة والقسمة فغار الخليل على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره فأمره بذبح الولد ليخرج المزاحم من قلبه فلما وطن نفسه على ذلك وعزم عليه عزمًا جازمًا حصل مقصود الأمر فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة فحال بينه وبينه وفداه بالذبح العظيم وقيل له يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين نجزي من بادر إلى طاعتنا فَنُقرّ عينه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا وإبقاء الولد وسلامته إن هذا لهو البلاء المبين وهو اختبار المحبوب لمحبه وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته فيتم عليه نعمه فهو بلاء محنة ومنحة عليه معًا .

ما يجوز نسبته لله من مراتب المحبة و ما لا يجوز :

إنما يوصف الله تَعَالَى من هذه الأنواع الأربعة فقط : (بالإرادة ، وبالود ، وبالمحبة ، وبالخلة) ، فالإرادة قد جاءت في الوحي (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) (النساء /27) وهي بمعنى : يُحب ذلك ، فهذه مرتبة من مراتب المحبة التي هي الإرادة فقد ورد النص بها في حق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، ووردت صفة الود (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (مريم / 96) (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) (البروج / 14) . وصفة المحبة : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (البقرة / 222) ، وصفة الخلة (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) (النساء /125) .

هذه الأربع فقط هي التي يوصف بها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، والسِّتُ الباقية لا يوصف بها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهي : الغرام ، والصبابة ، والعشق ، والتتيم ، والشغف ، والعلاقة .

ويجب أن يُعلم أن هذه الكلمات : الغرام والعشق والصبابة والعلاقة والتعلق ، تستخدمها الصوفية ، في حق الله سبحانه وتعالى ، ولذلك يأتون إلى قصيدة قالها بعض الشعراء في معشوقته الحسية وهي المرأة فأخذوها وجعلوها في حق الله سبحانه وتعالى كما هي تمامًا مثل البيت الذي كانوا يرددونه دائمًا وينسبونه إلى الشبلي يقول :

إنَّ بيتًا أنتَ ساكنُهُ غيرُ محتاجٍ إلَى السُرج وجهكَ المأمونُ حُجتنًا يومَ يأتي النَّاس بالحججِ

هذه أصلها قصيدة قالها أحد الشعراء في محبوبته ، يقول : إن البيت الذي هي فيه لا يحتاج إِلَى سراج ، وأن وجهها حجته يوم يأتي النَّاس بالحجج ، يعني : إذا سأله الله لماذا ضيعت الفرائض وضيعت الطاعات ، ما هي حجتك في دنياك ؟ فَيَقُولُ : هذه هي الحجة ، فوجدوا أن الأنسب في المعنى أن يكون وجه الله هو الحجة يوم يأتي النَّاس بالحجج ، وفعلاً من حيث المناسبة إن الشاعر بالغ حيث جعل وجه محبوبته هو الوجه المأمون وهو الحجة ، لكنهم جاءوا بها كما هي وجعلوها في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، ونتج عن معنى البيت الأول :

إنَّ بيتًا أنتَ ساكنُهُ غيرُ محتاجٍ إِلَى السُرج اعتقادُ أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَى يحل في البيوت ، كما يحل غيره تَعَالَى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ، وهم إذ يقولون هذا البيت وأمثاله ، إن جاءهم أحد من أهل السنة وسألهم : لماذا تطلقون هذا عَلَى الله ؟

قالوا : نَحْنُ لا نعتقد هذا ، ولا نقصد الحلول ، وإنما استشهدنا ببيت من كلام العرب .

بينما التلاميذ والمريدون حينما يقولونه تقع في قلوبهم هذه المعاني وتثبت وهو أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحل حيثما كانوا موجودين وأمثلة ذلك كثيرة .

فكانوا يأتون إِلَى أرق الأشعار مثل أشعار مهيار الديلمي وأشعار عمر بن أبي ربيعة ، ويجعلون أبياتهم الشعرية التي تغزلوا بها في من أحبوها من النساء العشيقات في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، ولذلك ينبغي لنا أن نعرف ما هي الألفاظ التي يجوز أن تستخدم في حق الله عَزَّ وَجَلَّ ، وما هي الألفاظ التي لا يجوز أن تستخدم في حقه تعالى . هذا وقد نظم العبد الفقير وليد بن إدريس مراتب المحبة في أبيات ، فقال :

محبةُ العبد لعبـــــد رُتِّبَت *** تصاعدًا في عشْرة وبُينــــــــت
علاقةٌ إرادةٌ صبابــــــــةُ *** وبعدها الغرام فالمــــــــــودةُ
أشغف به فعشقه التتيّــــمُ *** تعبّدٌ والخلةُ المتمّـــــــــــــمُ
محبةُ الرب لعبـــــد قصرت *** إذ ما بغيره النصــــــوص وردت
في الحب والود مـــع الإرادةْ *** وخلة تخصّ مــــــــــن أراده
أعني الخليلين فقد خصهما *** سبحانه وفضله عمَّهمـــــــــا
ثم جميع المؤمنين عمَّهـــمْ *** سبحانه بودِّه أكرِم بهـــــــــم
المحسنين المتقين الكُرمـــا *** التابعين المقسطين العُلَمـــــا
التائبين الطاهرين نعتُهـــــمْ *** في الصف والعقودِ فالْحَقَنْ بهـم
وفي حديث الأولياء المشتهرْ *** نعت الأُولَى يحبـــــهم فلتعتبـر
والربُّ لا يوصفُ بالعشق ولا *** تصف به في حبـــه العبد اِعْقِلا
ولا نقولُ حُبـــّـــــه الإنعامُ *** ولا الإثابةُ ولا الإكـــــــــرامُ
فهذه الثمارُ ، أما الحـــــبُّ *** فأَثْبِتَنْ لربنا وحسْـــــــــــبُ

4 – هل كل الناس يثبتون صفة المحبة لله أو مراتبها ؟ وهل خالف أحدٌ أهلَ السنة والجماعة ؟

قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في شرح العقيدة الطحاوية :

وبعض الناس غَلَوْا في ذلك فوصفوا الله – عز وجل – بكل مراتب المحبة ، وهذا باطل و غلو .

وبعضهم جفا كالجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم فنفوا المحبة بمعناها الظاهر وما يكون من مراتبها ؛ فنفوا حقيقة محبة الله لعبده ونفوا حقيقة اتخاذ الله – عز وجل – لعبده خليلًا ، وأوَّلوا ذلك كما سيأتي في مواضعه في بيان أصولهم في الصفات .

وأهل السنة والجماعة بين هاتين الطائفتين فلم يغلوا في المحبة ؛ يعني في محبة الله لعبده ولم يكونوا من الجفاة في ذلك ، بل سلكوا الأصل الذي أصَّلُوهُ وأنَّ هذه المسائل تبع لما ورد في النصوص .

5 – مَنْ أول من أظهر نفي صفة المحبة في الإسلام ؟

وَأَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ الْجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ فَضَحَّى بِهِ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ يَوْمَ الْأَضْحَى بِوَاسِطِ وَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ : ضَحُّوا تَقَبَّلَ اللَّهُ ضَحَايَاكُمْ فَإِنِّي مُضَحٍّ بِالْجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ إِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا تَعَالَى اللَّه عَمَّا يَقُولُ الْجَعْدُ عُلُوًّا كَبِيرًا ثُمَّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ .

أخذ هذه المقالة عنه في نفي الصفات وخاصة صفة (المحبة) بأن الله جل وعلا لا يُحِبُ وكذلك لا يُحَب أخذها عنه الجهم بن صفوان الترمذي وأيضًا كان مصيره مصيرَ شيخه في ذلك ، وضحَّى به أمير خراسان سلْم بن أحْوَز جزاه الله جل وعلا عن ذلك خير الجزاء وقتله مرتدًا لأنه نفى صفات الله جل وعلا .

ورث هذه الأقوال طوائف ، منهم من ورث كل مقالة جهم ومنهم من ورث بعضها وكان ممن حظي ببعضها المعتزلة ، وكان ممن أخذ أصولهم أيضًا الأشاعرة ، وهكذا ما بين مقل ومستكثر وقد أجمع المسلمون على أن الرجلين قُتِلا لخروجهما من الدين .

كيف نَرُدُّ عليهم ؟

هناك قاعدة من القواعد التي ذكرها العلماء رحمهم الله تعالى وهذه القاعدة نقلت عن جمع من سلف الأمة رحمهم الله تعالى و هي : من سألك عن كيفية صفات الله تعالى فيمكنك أن ترد عليه بجوابين ، إذا سألك الإنسان : كيف يضحك الله ؟ كيف يتكلم الله ؟ كيف يسمع الله ؟ كيف يبصر الله ؟ فلك جوابان لهذا الرجل :

الجواب : الأول : أن تجيبه بالإجابة المشهورة التي نقلت عن الإمام مالك ، ونقلت عن ربيعة ، ونقلت عن إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، فنقول : السمع معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عن الكيفية بدعة ، مثلما قال الإمام مالك في الاستواء : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

الجواب الثاني : إذا سأل : كيف سمع الله ؟ تسأله كيف هو الله ؟ كيف ذاته ؟ هل يستطيع إجابةً ، فسيقول : لا أدري ، وكذلك كيفية صفاته ، لكن الصفة نعلم مدلولها ، السمع نعرف مدلوله ، الاستواء نعرف مدلوله في اللغة العربية ، ونعرف ما المقصود به ، والحياة نعرفها ، مثلما يقول العلماء رحمهم الله تعالى و كما قال ابن القيم : لا يوجد حد أعظم من تعريف المحبة من المحبة هي ، بوجودها في الإنسان نعرف مدلولها ، والمقصود منها ، فإذا قال الله : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (المائدة / 54) نعرف ما مدلول المحبة ، لكن كيفية هذه المحبة نقول : الله أعلم ، فتصبح المحبة معلومة ، والاستواء معلوم ، والكلام معلوم وغيره ، فنقول : هذه نثبتها لله .

قال شيخ الإسلام : ومن الناس من نفى أن تكون له صفة محبة أو رضا أو غضب غير الإرادة ، قال علماء الخلف : المحبة ميل القلب إلى ما يلائم الطبع والله منزه عن ذلك ، وحينئذ فمحبة الله تعالى للعبد إرادة اللطف به ، والإحسان إليه ، ومحبة العبد لله هي محبة طاعته في أوامره ونواهيه ، والاعتناء بتحصيل مراضيه ، فمعنى يحب الله أي يحب طاعته وخدمته أو يحب ثوابه وإحسانه ، وهذا مذهب جمهور المتكلمين .

قال الإمام العلامة المحقق الأصولي الطوفي الحنبلي : ذهب طوائف من المتكلمين والفقهاء إلى أن الله تعالى لا يُحَب ، وإنما محبته محبة طاعته وعبادته . وقالوا أيضًا : هو لا يُحِب عباده المؤمنين ، وإنما محبته إرادته الإحسان إليهم .

قال : والذي دل عليه الكتاب والسنة ، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، وجميع مشايخ الطريق أن الله تعالى يُحِب ويُحَب لذاته ، وأما حبُّ ثوابه فدرجة نازلة .

وهذا كلام شيخ الإسلام ؛ فإنه قال : للناس في هذا الأصل العظيم ثلاثة أقوال : (أحدها) : أن الله تعالى يُحَب ويُحِب ، كما قال الله تعالى : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (المائدة /54) فهو المستحق أن يكون له كمال المحبة دون ما سواه ، وهو سبحانه يحب ما أمر به ، ويحب عباده المؤمنين .

قال شيخ الإسلام : وهذا قول سلف الأمة وأئمتها ، وقول أئمة شيوخ المعرفة .

(والقول الثاني) : أنه يستحق أن يحب لكنه لا يحب إلا بمعنى أن يريد ، وهذا قول كثير من المتكلمين ومن وافقهم من الصوفية .

(والثالث) : أنه لا يحَب ولا يحِب ، وإنما محبة العباد له إراداتهم طاعته ، وهذا قول الجهمية ومن وافقتهم من متأخري أهل الكلام كالرازي .

فيقال لمن نفى رحمة الله ومحبته وغضبه ورضاه ونحوها وأثبت له الإرادة : لم نفيت تلك وأثبت له الإرادة ؟ فإن قيل : لأن إثبات هذه الصفات تشبيه لأن الرحمة رقة تلحق المخلوق ، والغضب غليان الدم لإرادة الانتقام ، ونحو ذلك ، والرب منزه عن مثل صفات المخلوقين ، قيل له : وكذلك يقول لك منازعك في الإرادة أن الإرادة المعروفة ميل الإنسان إلى ما ينفعه ، ودفع ، ما يضره ، والله تعالى منزه عن الاحتياج إلى عباده ، وهم لا يبلغون ضره ولا نفعه ، بل هو الغني عن خلقه كلهم .

فإن قيل : الإرادة التي نثبتها لله تعالى ليست مثل إرادة المخلوقين ، كما أنا قد اتفقنا ، وسائر المسلمين على أنه حيٌّ عليم قدير ، وليس هو مثل سائر الأحياء العلماء القادرين ، قال لك أهل الإثبات : وكذلك المحبة والرحمة ونحوهما التي نثبتها لله تعالى ليست مثل رحمة المخلوق ومحبته . فإن قلت : لا أعقل من الرحمة والمحبة إلا هذا ، قال لك النفاة : ونحن لا نعقل من الإرادة إلا هذا ، ومعلوم عند كل عاقل أن إرادتنا ومحبتنا ورحمتنا بالنسبة إلينا ، وإرادته ومحبته ورحمته تعالى بالنسبة إليه ، فلا يجوز التفريق بين المتماثلين فيثبت له إحدى الصفتين وينفي الأخرى ، وليس في العقل ولا في السمع ما يوجب التفريق .

قال شيخ الإسلام في التدمرية : القول في بعض الصفات كالقول في بعض ، فإن كان المخاطب ممن يقر بأن الله تعالى حيٌّ بحياة ، عليمٌ بعلم ، قدير بقدرة ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، متكلم بكلام ، مريد بإرادة ، ويجعل ذلك كله حقيقة ، وينازع في محبته تعالى ورضاه وغضبه وكراهته ، فيجعل ذلك مجازًا ويفسره إما بالإرادة ، وإما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات ، قيل له : لا فرق بين ما نفيته وبين ما أثبته ، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر ، فإن قلت : إن إرادته مثل إرادة المخلوقين ، فكذلك محبته ورضاه وغضبه ، وهذا هو التمثيل ، وإن قلت : له إرادة تليق به كما أن للمخلوق إرادة تليق به ، قيل لك : وكذلك له محبة تليق به ، وله تعالى رضا وغضب يليق به ، وللمخلوق رضا وغضب يليق به ، فإن قال : الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام ، قيل له : والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة ، فإن قلت : هذه إرادة المخلوق ، قيل لك : وهذا غضب المخلوق .

وكذلك يلزم بالقول في علمه وسمعه وبصره وقدرته ونحو ذلك ، فهذا المفرق بين بعض الصفات وبعض يقال له فيما نفاه كما يقوله هو لمنازعه فيما أثبته .

قال شيخ الإسلام : فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ " الْحَقِيقَةَ " إنَّمَا تَتَنَاوَلُ صِفَةَ الْعَبْدِ الْمَخْلُوقَةَ الْمُحْدَثَةَ دُونَ صِفَةِ الْخَالِقِ كَانَ فِي غَايَةِ الْجَهْلِ ؛ فَإِنَّ صِفَةَ اللَّهِ أَكْمَلُ وَأَتَمُّ وَأَحَقُّ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى فَلَا نِسْبَةَ بَيْنَ صِفَةِ الْعَبْدِ وَصِفَةِ الرَّبِّ كَمَا لَا نِسْبَةَ بَيْنَ ذَاتِهِ وَذَاتِهِ فَكَيْفَ يَكُونُ الْعَبْدُ مُسْتَحِقًّا لِلْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى حَقِيقَةً : فَيَسْتَحِقُّ أَنْ يُقَالَ لَهُ : عَالِمٌ قَادِرٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ؛ وَالرَّبُّ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ إلَّا مَجَازًا وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ حَصَلَ لِلْمَخْلُوقِ فَهُوَ مِنْ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ؛ فَكُلُّ كَمَالٍ حَصَلَ لِلْمَخْلُوقِ فَالْخَالِقُ أَحَقُّ بِهِ ؛ وَكُلُّ نَقْصٍ تَنَزَّهَ عَنْهُ الْمَخْلُوقُ فَالْخَالِقُ أَحَقُّ أَنْ يُنَزَّهَ عَنْهُ ؛ وَلِهَذَا كَانَ اللَّهُ " الْمَثَلُ الْأَعْلَى " فَإِنَّهُ لَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ وَلَا يُمَثَّلُ بِهِمْ وَلَا تُضْرَبُ لَهُ الْأَمْثَالُ . فَلَا يَشْتَرِكُ هُوَ وَالْمَخْلُوقُ فِي قِيَاسِ تَمْثِيلٍ بِمَثَلٍ ؛ وَلَا فِي قِيَاسِ شُمُولٍ تَسْتَوِي أَفْرَادُهُ بَلْ (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُسَمِّي هَذِهِ الْأَسْمَاءَ " الْمُشَكِّكَةَ " لِكَوْنِ الْمَعْنَى فِي أَحَدِ الْمَحَلَّيْنِ أَكْمَلَ مِنْهُ فِي الْآخَرِ فَإِنَّ الْوُجُودَ بِالْوَاجِبِ أَحَقُّ مِنْهُ بِالْمُمْكِنِ وَالْبَيَاضَ بِالثَّلْجِ أَحَقُّ مِنْهُ بِالْعَاجِ وَأَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ مِنْ هَذَا الْبَابِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُوصَفُ بِهَا عَلَى وَجْهٍ لَا يُمَاثِلُ أَحَدًا مِنْ الْمَخْلُوقِينَ وَإِنْ كَانَ بَيْنَ كُلِّ قِسْمَيْنِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا وَذَلِكَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ هُوَ مُسَمَّى اللَّفْظِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ فَإِذَا قُيِّدَ بِأَحَدِ الْمَحَلَّيْنِ تَقَيَّدَ بِهِ . فَإِذَا قِيلَ : وُجُودٌ وَمَاهِيَّةٌ وَذَاتٌ كَانَ هَذَا الِاسْمُ مُتَنَاوِلًا لِلْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ وَإِنْ كَانَ الْخَالِقُ أَحَقَّ بِهِ مِنْ الْمَخْلُوقِ

وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا . فَإِذَا قِيلَ : وُجُودُ اللَّهِ وَمَاهِيَّتُهُ وَذَاتُهُ اخْتَصَّ هَذَا بِاَللَّهِ ؛ وَلَمْ يَبْقَ لِلْمَخْلُوقِ دُخُولٌ فِي هَذَا الْمُسَمَّى وَكَانَ حَقِيقَةً لِلَّهِ وَحْدَهُ . وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ وُجُودُ الْمَخْلُوقِ وَذَاتُهُ اخْتَصَّ ذَلِكَ بِالْمَخْلُوقِ وَكَانَ حَقِيقَةً لِلْمَخْلُوقِ . فَإِذَا قِيلَ : وُجُودُ الْعَبْدِ وَمَاهِيَّتُهُ وَحَقِيقَتُهُ لَمْ يَدْخُلْ الْخَالِقُ فِي هَذَا الْمُسَمَّى وَكَانَ حَقِيقَةً لِلْمَخْلُوقِ وَحْدَهُ . وَالْجَاهِلُ يَظُنُّ أَنَّ اسْمَ الْحَقِيقَةِ إنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْمَخْلُوقَ وَحْدَهُ وَهَذَا ضَلَالٌ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالضَّرُورَةِ فِي " الْعُقُولِ " وَ " الشَّرَائِعِ " و " اللُّغَاتِ " فَإِنَّهُ مِنْ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ بَيْنَ كُلِّ مَوْجُودَيْنِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا وَقَدْرًا مُمَيَّزًا وَالدَّالُّ عَلَى مَا بِهِ الِاشْتِرَاكُ وَحْدَهُ لَا يَسْتَلْزِمُ مَا بِهِ الِامْتِيَازَ وَمَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ اللَّهَ مُسْتَحِقٌّ لِلْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَقَدْ سَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِبَعْضِ تِلْكَ الْأَسْمَاءِ كَمَا سَمَّى الْعَبْدَ سَمِيعًا بَصِيرًا وَحَيًّا وَعَلِيمًا وَحَكِيمًا وَرَءُوفًا رَحِيمًا وَمَلِكًا وَعَزِيزًا وَمُؤْمِنًا وَكَرِيمًا وَغَيْرَ ذَلِكَ . مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الِاتِّفَاقَ فِي الِاسْمِ لَا يُوجِبُ مُمَاثِلَةَ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ وَإِنَّمَا يُوجِبُ الدَّلَالَةَ عَلَى أَنَّ بَيْنَ الْمُسَمَّيَيْنِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا فَقَطْ ؛ مَعَ أَنَّ الْمُمَيِّزَ الْفَارِقَ أَعْظَمُ مِنْ الْمُشْتَرَكِ الْجَامِعِ .

6 – الأسباب الجالبة لمحبة الله لعبده ومحبة العبد لربه :

الأسباب الجالبة لمحبة الله لعبده المؤمن نذكر ما تيسر منها إن شاء الله :

قال رجل لطاوس : أوصني قال أوصيك أن تحب الله حبًا حتى لا يكون شيء أحب إليك منه ، وخفه خوفًا حتى لا يكون شيء أخوف إليك منه ، وارج الله رجاء يحول بينك وبين ذلك الخوف وارض للناس ما ترضى لنفسك .

ذكر ابن القيم – يرحمه الله – في (مدارج السالكين ج 3 ص17 - 18) أن الأسباب الجالبة لمحبة الله لعبده ومحبة العبد لربه عشرة : (بتصرف يسير) :

أحدها : قراءة القرآن بالتدبر لمعانيه وما أريد به .

الثاني : التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض كما في الحديث القدسي : " وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ " . (خ / 6502) .

الثالث : دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر هذا .

الرابع : إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى .

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها .

السادس : مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة .

السابع : وهو أعجبها : انكسار القلب بين يديه والتضرع والتذلل له وإظهار الافتقار إليه وإظهارالعجز والمسكنة والتلهف إلى رحمته ورأفته ولطفه .

الثامن : الخلوة به وقت النزول الإلهي آخر الليل ، وهو في الأسحار قبل الفجر لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والقالب بين يديه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة ، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم ، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعة لغيرك .

العاشر : مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل .

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب . ا هـ .

وزاد غيره :

– الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباد الله ، قال الله تعالى : (وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران : 134) .

– التقوى ، قال الله تعالى : (واللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) .

– طهارة الباطن والظاهر ، قال الله تعالى : (وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) (التوبة : 108) .

– القتال في سبيل الله ، قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ) (الصف : 4) .

– اتباع النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال الله جل وعلا : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ) (آل عمران : 31) .

– الصبر ، قال تعالى : (وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) (آل عمران : 146) .

7– علامات محبة الله للعبد :

أما عن علامات محبة الله للعبد فهي كثيرة لخصها الشيخ محمد بن صالح المنجد كما يلي :

1– اتباع هدي النبي – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – ؛ قال تعالى في كتابه الكريم قال تعالى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (آل عمران / 31) .

2– الذلة للمؤمنين ، 3 – والعزة على الكافرين ، 4 – والجهاد في سبيل الله ، 5 – وعدم الخوف إلا منه سبحانه .وقد ذكر الله تعالى هذه الصفات في آية واحدة ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ) (المائدة / 54) .

6– القيام بالنوافل : قال الله عز وجل – في الحديث القدسي – : " وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ " . (خ / 6502) ، ومن النوافل : نوافل الصلاة والصدقات والعمرة والحج والصيام .

7– الحبّ ، 8 – و التزاور ، 9 – و التباذل ، 10 – و التناصح في الله .

وقد جاءت هذه الصفات في حديث واحد عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – فيما يرويه عن ربه عز وجل قال : " حقَّت محبتي للمتحابين فيَّ ، وحقت محبتي للمتزاورين فيَّ ، وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ ، وحقت محبتي للمتواصلين فيَّ " . رواه أحمد (19438- 22080) و " التناصح " عند ابن حبان (577) وصحح الحديثين الشيخ الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (3019 و 3020 و 3021) .

11– الابتلاء ، فالمصائب والبلاء امتحانٌ للعبد ، وهي علامة على حب الله له ؛ إذ هي كالدواء ، فإنَّه وإن كان مُرًّا إلا أنَّك تقدمه على مرارته لمن تحب – ولله المثل الأعلى – وبيَّن أهل العلم أن الذي يُمسَك عنه هو المنافق ، فإن الله يُمسِك عنه في الدنيا ليوافيه بكامل ذنبه يوم القيامة . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ " . (صحيح الترمذي/ 2320) .

12 – يجعل محبته في قلوب أوليائه ، ويكسبه رضا الخلق عنه ، ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ " . (خ /2970) ، (م /4772) .

8 – صفات المحبوبين لله :

وإليك فيما يلي إجمالًا لبعض صفات الذين خصهم الله بالمحبة :

1– المحسنون . 2– التوابون . 3 – المتطهرون .

4– المتقون . 5– الصابرون . 6 – المتوكلون .

7– المقسطون . 8 – الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم بينان مرصوص .

9– الأذلة على المؤمنين . 10– الأعزة على الكافرين . 11– المجاهدون في سبيل الله .

12– الذين لا يخافون لومة لائم . 13– المتبعون للنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

14– المتقربون بالنوافل بعد الفرائض . 15– صاحب الحِلم و الأناة .

كن محسنًا.. صابرًا .. متوكلًا .. وسيحبك جل في علاه ، وفي المقابل : لا تكن ظالم لنفسك أو للناس .. وسيحبك أيضًا فهنا إذن صفات إيجاب .. عليك أن تتحلى بها وهناك صفات سلب عليك أن تجاهد نفسك للتخلص منها . وهكذا .. وعلى ضوء هذا قس الآيات الآتية وتدبرها .

9– فضائل محبة الله عز و جل :

محبة الله عز وجل أشرف المكاسب ، وأعظم المواهب ، وفضائلها لا تُعد ولا تحصى ، ومن تلك الفضائل ما يلي :

1– أنها أصل التوحيد وروحه : قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي : أصل التوحيد وروحه ، إخلاص المحبة لله وحده ، وهي أصل التألُّهِ ، والتعبد ، بل هي حقيقة العبادة ، ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبةُ العبد لربه ، وتسبق جميعَ المحابِّ ، وتَغْلِبها ، ويكون لها الحكم عليها ؛ بحيث تكون سائر محاب العبد تبعًا لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه .

2 – أن الحاجة إليها أعظم من الحاجة إلى الطعام ، والشراب ، والنكاح : قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ففي قلوب بني آدم محبة لما يتألهونه ويعبدونه ، وذلك قوام قلوبهم ، وصلاح نفوسهم ، كما أن فيهم محبةً لما يطعمونه ، وينكحونه ، وبذلك تصلح حياتهم ، ويدوم شملهم .

وحاجتهم إلى التأله أعظم من حاجتهم إلى الغذاء؛ فإن الغذاء إذا فُقِد يَفْسُد الجسم، وبِفَقْدِ التأله تفسد النفس .

وقال ابن القيم : فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب ، وغذاء الأرواح ، وليس للقلب لذة ، ولا نعيم ، ولا فلاح ، ولا حياة إلا بها .

وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظمَ من ألم العينِ إذا فقدت نورها ، والأذن إذا فقدت سمعها ، والأنفِ إذا فقد شمّه ، واللسان إذا فقد نُطْقَه ؟ !

بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره ، وبارئه ، وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح .

وهذا الأمر لا يصدِّق به إلا مَنْ فيه حياةٌ ، وما لِجُرْحٍ بميت إيلام .

3 – تسلي المحب عند المصائب : قال ابن القيم : فإن المحب يجد من لذة المحبة ما ينسيه المصائب ، ولا يجد مِنْ مسِّها ما يجد غيرُه ، حتى كأنه قد اكتسى طبيعةً ثانيةً ليست طبيعةَ الخلق .

بل يَقْوَى سلطانُ المحبةِ حتى يلتذَّ المحبُّ بكثير من المصائب التي يصيبه بها حبيبه أعظم من التذاذ الخليِّ (العاري من المحبة) بحظوظه وشهواته . والذوقُ ، والوَجْدُ شاهد بذلك ، والله أعلم .

4 – أنها من أعظم ما يحمل على ترك المعاصي : قال ابن القيم في معرض حديث له عن محبة الله : وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ، ومعاصيه ؛ فإن المحب لمن يحب مطيع ، وكلما قوي سلطانُ المحبةِ في القلب كان اقتضاؤه للطاعة ، وترك المخالفة أقوى .

وإنما تصدر المعصية والمخالفة مِنْ ضَعْفِ المحبة ، وسلطانِها .

وفرْقٌ بين من يحمله على ترك معصية سيده خَوْفُه من سوطه وعقوبتِهِ ، وبين من يحمله على ذلك حبُّه لسيده .

إلى أن قال : فالمحب الصادق عليه رقيبٌ من محبوبه يرعى قَلْبَه ، وجوارحَه .

وعلامةُ صدقِ المحبة شهودُ هذا الرقيبِ ودوامُه .

وها هنا لطيفة يجب التنبه لها ، وهي أن المحبة المجردة لا توجب هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه ؛ فإذا قارنها الإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياءَ والطاعةَ ، وإلا فالمحبة الخالية عنهما إنما توجب نوعَ أنسٍ ، وانبساط ، وتذكر ، واشتياق .

ولهذا يتخلف أثرها ومُوجَبُها ، ويفتش العبد قلبه فيرى نوع محبة لله ، ولكن لا تحمله على ترك معاصيه ، وسبب ذلك تجرّدها عن الإجلال والتعظيم ؛ فما عَمَرَ القلبَ شيءٌ كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعْظيمه .

وتلك من أفضل مواهب الله للعبد ، أو أفضلُها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

5 – أنها تقطع الوساوس : قال ابن القيم : فبين المحبة ، والوساوس تناقض شديد كما بين الذكر والغفلة ؛ فعزيمة المحب تنفي تردد القلب بين المحبوب وغيره ، وذلك سبب الوساوس .

وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغًا لوسواس الغير ؛ لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه .

وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى ؟ ومن أين يجتمع الحبُّ والوسواس ؟

لا كان مَنْ لسواك فيه بقيةٌ **** فيها يُقَسِّم فِكْرَهُ ويوسوسُ

6 – تمام النعيم ، وغاية السرور : فذلك لا يحصلُ إلا بمحبة الله عز وجل فلا يغني القلبَ ، ولا يَسُدُّ خلَّتَه ولا يشبعُ جوعته إلا محبتُه ، والإقبال عليه عز وجل ولو حصل له كل ما يلتذ به لم يأنس ولم يطمئن إلا بمحبة الله – عز وجل – .

قال ابن القيم : وأما محبةُ الرب سبحانه فشأنها غير الشأن ؛ فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها ، وفاطرها ، فهو إلهها ، ومعبودها ، ووليها ، ومولاها ، وربُّها ، ومدبرها ، ورازقها ، ومميتها ، ومحييها ؛ فمحبته نعيم النفوس ، وحياة الأرواح ، وسرور النفوس ، وقوتُ القلوب ، ونور العقول ، وقرة العيون ، وعمارة الباطن ؛ فليس عند القلوب السليمة ، والأرواح الطيبة ، والعقول الزاكية أحلى ، ولا ألذُّ ، ولا أطيبُ ، ولا أسرُّ ، ولا أنعمُ من محبته ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه .

والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه فوق كل حلاوة ، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتمُّ من كل نعيم ، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة . إلى أن قال : ووجَدَانُ هذه الأمور ، وذوقُها هو بحسب قوة المحبة ، وضعفها ، وبحسب إدراك جمال المحبوب ، والقرب منه .

وكلما كانت المحبةُ أكملَ ، وإدراك المحبوب أتم ، والقرب منه أوفر كانت الحلاوةُ ، واللذةُ ، والنعيمُ أقوى .

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف ، وفيه أرغب ، وله أحب ، وإليه أقرب وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه ، ولا يُعْرَف إلا بالذوق والوَجْد . ومتى ذاق القلب ذلك لم يُمْكِنْهُ أن يقدِّم عليه حُبًّا لغيره ، ولا أنسًا به . وكلما ازداد له حبًا ازداد له عبودية ، وذلاً ، وخضوعًا ، ورِقًّا له ، وحرية من رق غيره .

10 – من ثمرات محبة الله – عز و جل – :

1 – الذي يُحِبُّهُ اللَّهُ يكون الله قريبًا منه حتى يكون الله سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ " . (خ /6021) .

2– الذي يُحِبُّهُ اللَّهُ ، يُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ و أَهْلُ الْأَرْضِ :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ " . (خ /2970) ، (م /4772) .

3 – الذي يُحِبُّهُ اللَّهُ عَسَلَهُ بأن يُوَفِّقُ لَهُ عَمَلاً صَالِحًا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ مَنْ حَوْلَهُ :

عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَمِقِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا عَسَلَهُ . قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا عَسَلَهُ ؟ قَالَ : يُوَفِّقُ لَهُ عَمَلاً صَالِحًا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ جِيرَانُهُ أَوْ قَالَ : مَنْ حَوْلَهُ " . (صحيح) (صحيح الترغيب/3358) .

4 – الذي يُحِبُّهُ اللَّهُ حَمَاهُ اللَّهُ الدُّنْيَا :

عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ الْمَاءَ " .

(صحيح الترمذي /2036) تحقيق الألباني : صحيح ، المشكاة (5250 / التحقيق الثاني) .

و عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ من الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ " .

(حم) عن محمود بن لبيد (ك) عن أبي سعيد .

تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم : 1814 في صحيح الجامع .

5 – الذي يُحِبُّهُ اللَّهُ يدخل عليهم الرفق :

عن جابر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " إن الله إِذَا أَحَبَّ أَهْلَ بَيْتٍ أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْقَ " . (ابن أبي الدنيا في ذم الغضب الضياء) تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم : 1704 في صحيح الجامع .

6 – الذي يُحِبُّهُ اللَّهُ يبتليه :

عن أنس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ " . (صحيح الترمذي/2320) .

7– الذي يُحِبُّهُ اللَّهُ أَعْطَاهُ الإِيمَانَ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاَقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يؤتي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ ، وَلاَ يؤتى الإِيمَانَ إِلاَّ مَنْ يُحِبُّ ، فإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الإِيمَانَ فمن ضَنَّ بِالْمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ وَهَابَ الْعَدُوَّ أَنْ يُجَاهِدَهُ ، وَاللَّيْلَ أَنْ يُكَابِدَهُ فَلْيُكْثِرْ مِنْ قَوْلِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ " .

(صحيح) (صحيح الترغيب/1517) .

11 - أقسام المحبة :

1– محبة عبادة : وهي محبة التذلل ، والتعظيم ، وأن يقوم بقلب المُحبِّ من إجلال المحبوب ، وتعظيمه ما يقتضي امتثال أمره ، واجتناب نهيه .

وهذه المحبة أصل الإيمان والتوحيد ، وهي التي يترتب عليها من الفضائل ما لا يمكن حصرُهُ وعدُّهُ .

ومَنْ صرف تلك المحبة لله فهو المؤمن الموحد ، ومن صرفها لغير الله فقد وقع في المحبة الشركية ؛ حيث أشرك بالله عز وجل .

وذلك كمحبة المشركين الذين يحبون آلهتهم ، وأندادهم كمحبة الله ، من شجر ، أو حجر ، أو بشر ، أو ملك أو غيرها كمحبة الله أو أكثر ؛ فهذه المحبة أصل الشرك ، وأساسه .

2 – محبة لله عز وجل : كمحبة ما يحبه الله من الأمكنة ، والأزمنة ، والأشخاص ، والأعمال ، والأقوال ، ونحو ذلك ؛ فهذه المحبة تابعة لمحبة الله .

3 – المحبة الطبيعية : ويدخل تحت هذه المحبة ما يلي :

أ – محبة إشفاق ورحمة : كمحبة الوالد لولده ، وكمحبة المرضى ، والضعفاء .

ب – محبة إجلال وتعظيم دون عبادة : كمحبة الولد لوالده ، وكمحبة التلميذ لمعلمه وشيخه ، ونحو ذلك .

ج – محبة الإنسان ما يلائمه : كمحبة الطعام ، والشراب ، والنكاح ، واللباس ، والأصدقاء ، والخلطاء ، ونحو ذلك .

فهذه المحاب داخلة في المحبة الطبيعية المباحة ، فإن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت في باب الطاعة ، وإن صدت عن محبة الله ، وتُوسِّل بها إلى ما لا يحبه الله دخلت في المنهيات ، وإن لم تُعِن على طاعة ، ولا معصية فهي في دائرة المباحات .

قال الشاعر السُنِّي الإيراني السعد الشيرازي :

قال لي المحبوبُ لمَّـــا زرتُهُ منْ ببابي قلتُ بالبابِ أنـــا
قال لي أخطأت تعريف الهوى حينما فرَّقت فيـــــه بيْنَنَا
ومضى عامٌ فلـــــــمَّا جئتُهُ أطرُقُ الباب عليه مُوهِنـــا
قال لي منْ أنتَ قلتُ انْظُرْ فما ثمَّ إلاَّ أنتَ بالبابِ هُنـــا
قال لي أحسنت تعريف الهوى وعَرَفْتَ الحُبَّ فادخُلْ يا أنا

12 – مقارنة بين حب الخالق و حب المخلوقين . برقيات إلى الأحبة

الحب على المحبين فرض ، وبه قامت السماوات والأرض ، و من لم يدخل جنة الحب ، لن ينال القرب ، بالحب عُبِد الرب ، وتُرِك الذنب ، وهان الخطب ، واحتُمِل الكرب ، عقل بلا حب لا يفكر ، وعين بلا حب لا تبصر ، وسماء بلا حب لا تمطر ، وروض بلا حب لا يزهر ، وسفينة بلا حب لا تبحر .

بيت لا يقوم على الحب مهدوم ، وجيش لا يحمل الحب مهزوم ، لكن أعظم الحب وأجله ، ما جاءت به الملة ، أجمل كلمة في الحب ، قول الرب : (يحبهم ويحبونه) ، فلا تطلب حبًا دونه .

إذا كان حب الهائمين من الورى بليلى وسلمى يسلب اللب والعقلا
فماذا عسى أن يصنع الهائم الذي سرى قلبه شوقًا إلى العالم الأعلى ؟!
دعني أمسح فوق الروض أجفاني 00 فالنار موقدة من حر أشجاني

نسيت في حبكم أهلي ومنتجعي 00 فحبكم عن جميع الناس ألهاني !
بكت عيني غداة البين دمعا 000 وأخرى بالبكا بخلت علينا
فعاقبت التي بالدمع ضنت 000 بأن أغمضتها يوم التقيـــنا
عهد الزيانب كله أنسيته *** وذكرت كل العمر ما أنساني !
حبي لمن منح الجميل وزادني *** شرفًا وبصرني الهدي وحباني
حبي لمالك مهجتي ولخالقي *** ولرازقي هو صاحب السبحان
شرفي بأني عبده يا فرحتى *** والفخر لي بعبادة الرحمن
وعليه سار الفائزون جميعهم *** متوهجين إلي عظيم الشان
ولأجله بذلوا النفوس وعلقت *** تلك الجماجم والتقى الجمعان
سالت علي حد السيوف دماؤهم *** وسعوا دامي الملابس قاني
ومقطع الأوصال يسحب جسمه *** فوق اللظى ، يشوي علي الصوان
ومبعثر الأشلاء لو جمعته *** ألفيته بحواصل الغربان !
قتلوا لأجل محبهم وحبيبهم *** وسواهمو لمحبة النسوان !
فاعرف(ضحايا الحب) وافعل فعلهم *** إن كان ذاك الفعل في إمكان
فإذا جبنت من القتال وخفت من *** وهج السيوف وزحمة الشجعان
وخشيت من وخز الرماح ولم تطق *** ضرب الردى من فارس طعان
وبخلت بالنفس النفيسة موقنًا *** أن العلا حرمت علي الكسلان
فاهجر فراشك والمنام مهللًا *** يوم الاذان يضج في الآذان
واحضر إلي الصف المقدم ضارعًا *** متملقًا للواحد الديان
واسكب دموعًا لا تصان لموقف *** عند العظيم مصور الأكوان
واهتف بصوت خافت متخشع *** متصدع لعجائب القرآن
ومعفرًا منك الجبين ومعلنًا *** ندمًا بنطق مقصر خجلان
فإذا أبيت ولم تطق هذا ولم *** تقدر عليه لسطوة الشيطان
فتمن موتًا عاجلاً وارحل فما *** أقسى البقاء لمفلس خسران !

أخرجونا يا قوم من ظلمات عشق الأعراب ، والهيام في الأهداب ، فكل ما فوق التراب تراب ، وأدخلونا في عالم الحب الراقي ، والدواء الواقي ، الذي تطير له الأرواح ، وتهتز له الأشباح ، في ملكوت الخلود ، وعلى بساط رب الوجود . دع حب هؤلاء فإنهم مرضى ، وتعال إلى الواحد وناد : (عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) (فأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا)

في حالة البعد نفسي كنت أرسلها *** تقبل الأرض عني وهي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت *** فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

ومن عجب أني أحن إليهـــــم *** فأسال عنهم من لقيت وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادهـا *** ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

و سوف أتعرض لشرح يسير لهذه الصفات – سائلًا الله أن يجعلنا منهم – وهي كما وردت في القرآن ، ثم نتكلم عن الصفات التي وردت في السنة .

أولًا : الذين يحبهم الله من القرآن

1– المحسنون . 2 – التوابون . 3 – المتطهرون .

4 – المتقون . 5 – الصابرون . 6 – المتوكلون .

7– المقسطون .

8 – الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص .

9– الأذلة على المؤمنين . 10– الأعزة على الكافرين .

11– المجاهدون في سبيل الله .

12– الذين لا يخافون لومة لائم .

13– المتبعون للنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

1- المحسنون

قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة / 195)

الإحسان لغة :

ضدّ الإساءة ، ورجل محسن ومحسان ، الأخيرة عن سيبويه .

والمحاسن في الأعمال : ضدّ المساويء . وقوله تعالى : (وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) (الرعد/ 22) ، أي يدفعون بالكلام الحسن ما ورد عليهم من سيّء غيرهم .

وحسّنت الشّيء تحسينًا : زيّنته ، وأحسنت إليه وبه ، وروى الأزهريّ عن أبي الهيثم أنّه قال في قوله تعالى في قصّة يوسف ، على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام : (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ) (يوسف/ 100) أي قد أحسن إليّ .

الإحسان اصطلاحًا :

يختلف معنى الإحسان اصطلاحًا باختلاف السّياق الّذي يرد فيه ، فإذا اقترن بالإيمان والإسلام كان المراد به : الإشارة إلى المراقبة وحسن الطّاعة ، وقد فسّره النّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بذلك عند ما سأله جبريل : ما الإحسان ؟ فقال : " الإِحْسَانُ قَالَ الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.." (خ / 50) .

أمّا إذا ورد الإحسان مطلقًا فإنّ المراد به : (فعل ما هو حسن ، والحسن وصف مشتقّ من الحسن الّذي يراد به اصطلاحًا) فيما يقول الجرجانيّ : ما يكون متعلّق المدح في العاجل والثّواب في الآجل ، وذهب التّهانويّ إلى أنّ لفظ الحسن يطلق ويراد به – اصطلاحًا– واحد من أمور ثلاثة :

الأوّل : كون الشّيء ملائمًا للطّبع ، وضدّه : القبح ، بمعنى كونه منافرًا له .

الثّاني : كون الشّيء صفة كمال وضدّه القبح وهو كونه صفة نقصان وذلك مثل العلم والجهل .

الثّالث : كون الشّيء متعلّق المدح وضدّه القبح بمعنى كونه متعلّق الذّمّ .

وقال المناويّ : الإحسان إسلام ظاهر ، يقيمه إيمان باطن ، يكمّله إحسان شهوديّ .

وقال الرّاغب : الإحسان : فعل ما ينبغي فعله من المعروف ، وهو ضربان : أحدهما : الإنعام على الغير ، والثّاني : الإحسان في فعله وذلك إذا علم علمًا محمودًا، وعمل عملًا حسنًا ، ومنه قول عليّ – رضي اللّه عنه – : النّاس أبناء ما يحسنون . أي : منسوبون إلى ما يعلمون ويعملون .

وقال الكفويّ : الإحسان : هو فعل (الإنسان) ما ينفع غيره بحيث يصير الغير حسنًا به ، كإطعام الجائع ، أو يصير الفاعل به حسنًا بنفسه ، فعلى الأوّل : الهمزة في أحسن للتّعدية وعلى الثّاني : للصّيرورة .

ما ورد في تفسير الآية :

– قال أبو حيان محمد بن حيان النحوي في تفسير البحر المحيط (2 / 242) :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) هذا تحريض على الإحسان لأن فيه إعلامًا بأن الله يحب من الإحسان صفة له ، ومن أحبه الله لهذا الوصف فينبغي أن يقوم وصف الإحسان به دائمًا بحيث لا يخلو منه محبة الله دائمًا .

و قال في (400/3) : يحب المحسنين ، وهم الذين يوقعون الأعمال الصالحة ، مراقبين الله كأنهم مشاهدوه .

وقال الحسن : الإحسان أن تعم ولا تخص ، كالريح والمطر والشمس والقمر .

وقال الثوري : الإحسان أن تحسن إلى المسيء ، فإنَّ الإحسان إليه مناجزة كنقد السوق ، خذ مني وهات .

– قال عبد الرحمن بن ناصر السعدي في القواعد الحسان في تفسير القرآن (41/1) :

يدخل في ذلك كله الإحسان في عبادة الخالق بأَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ، والإحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الإحسان من قول وفعل وجاه ، وعلم ومال وغيرها .

– و قال محمد بن صالح بن محمد العثيمين في تفسيره (312/4) :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) ؛ وهي محبة حقيقية على ظاهرها ؛ وليس المراد بها الثواب ؛ ولا إرادة الثواب خلافًا للأشاعرة ، وغيرهم من أهل التحريف الذين يحرفون هذا المعنى العظيم إلى معنًى لا يكون بمثابته ؛ فإن مجرد الإرادة ليست بشيء بالنسبة للمحبة ؛ وشبهتهم أن المحبة إنما تكون بين شيئين متناسبين ؛ وهذا التعليل باطل ، ومخالف للنص ، ولإجماع السلف ، ومنقوض بما ثبت بالسمع والحس من أن المحبة قد تكون بين شيئين غير متناسبين ؛ فقد أثبت النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أن أُحُدًا – وهو حصى – جبل يحبنا ونحبه ؛ والإنسان يجد أن دابته تحبه ، وهو يحبها ؛ فالبعير إذا سمعت صوت صاحبها حنَّت إليه ، وأتت إليه ؛ وكذلك غيره من المواشي ؛ والإنسان يجد أنه يحب نوعًا من ماله أكثر من النوع الآخر .

– قال أبو عبد الله مصطفى بن العدوى شلباية المصري في سلسلة التفسير :

صور الإحسان في الكتاب والسنة :

ما ذكره النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في سؤال جبريل له عن الإحسان ؟ قال : " أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ " ، فقوله تعالى : (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) أي كانوا في حياتهم الدنيا يعبدون الله سبحانه وتعالى على هذا النحو ، يعبدونه موقنين ومستحضرين أن الله يرى مقامهم ويسمع كلامهم ، كما قال تعالى : (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) (الشعراء :218 –219) ، ففي ممشاهم يشعرون أن الله يراهم ، وفي مجلسهم يشعرون أن الله يراهم ، وفي عبادتهم يشعرون أن الله يراهم ، وهذه من صور الإحسان .

ومن صور الإحسان التي تخلقوا بها : العفو عن الناس ، فإن هذا من أخلاق المحسنين ، قال الله سبحانه وتعالى : (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران :134) .

و قال سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) (النحل : 90) فالعدل : القصاص ، والإحسان : هو العفو ، فتخلقوا أيضًا بهذا الخلق الكريم الذي هو العفو عن الناس ، فلم يثأروا لأنفسهم في كل وقت وحين ، ولم

ينتصروا لأنفسهم من إخوانهم بالحق و بالباطل ، إنما هضموا حقوق أنفسهم طلبًا لثواب الله ، وعفوًا عمن ظلمهم ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى ، وأيقنوا وأتقنوا حديث رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ " . (م /6757) .

ومن صور الإحسان كذلك : أنهم كانوا رحماء في معاملتهم مع الناس ، بل مع كل شيء حولهم ، قال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ " (م / 5167) ، فتخلقوا بهذا الخلق في دنياهم ، ومن ثم أخذوا ما آتاهم ربهم في أخراهم ، ثم وردت لهم صفات أخر : (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) (الذاريات :17) أي : لا ينامون ، وقد استوقفت هذه الآية الكريمة الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى ، إذ كان الأحنف يقرأ القرآن قراءة المتدبر المتأمل ، فلما مر على هذه الآية الكريمة :(كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) قال معترفًا : أنا لست من أهل هذه الآية .

وهكذا نحن أيضًا ينبغي أن نقبل على كتاب الله فننزل آياته على أنفسنا لننظر : هل نحن من أهلها ؟ وهل نحن من العاملين بها ، أم لسنا كذلك ؟ فهل نحن من أهل قول الله سبحانه : (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) (الفرقان : 64) ، ويقولون : (رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) (الفرقان : 65) ؟ هل نحن أيضًا من أهل قول الله سبحانه وتعالى : (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (الأنفال : 2) ؟ فاقرأ القرآن قراءة المتدبر المتأمل واعمل به .

أما عن الإحسان و ما ورد فيه :

نضرة النعيم (67/2 الاحسان) :

حقيقة الإحسان :

فسّر النّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الإحسان حين سأله جبريل ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، فقال : " أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ " . أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة وحسن الطّاعة ؛ فإنّ مَن راقب اللّه أحسن عمله ، وهو تفسير قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ) (النحل/ 90) . ولذلك عظّم اللّه ثواب أهل الإحسان ، فقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة / 195) وقال عزّ وجلّ : (هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ) (الرحمن / 60) أي ما جزاء من أحسن في الدّنيا إلّا أن يحسن إليه في الآخرة .

والفرق بين الإحسان والإنعام أنّ الإحسان يكون لنفس الإنسان ولغيره . تقول : أحسنت إلى نفسي ، والإنعام لا يكون إلّا لغيره .

وقال الفيروز آبادي : الإحسان يقال على وجهين : أحدهما الإنعام على الغير . تقول : أحسن إليّ فلان ، والثّاني إحسان في فعله . وذلك إذا علم علمًا حسنًا ، أو عمل عملًا حسنًا . والإحسان أعمّ من الإنعام ، وقال

: الإحسان من أفضل منازل العبوديّة ؛ لأنّه لبّ الإيمان وروحه وكماله . وجميع المنازل منطوية فيها ، قال تعالى : (هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ) (الرحمن / 60) وقال رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" الإحسان أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ " . والإحسان يكون في القصد بتنقيته من شوائب الحظوظ ، وتقويته بعزم لا يصحبه فتور ، وبتصفيته من الأكدار الدّالّة على كدر قصده . ويكون الإحسان في الأحوال بمراعاتها وصونها غيرة عليها أن تحوّل .

الإحسان – إذن – وفي معنى عامّ : المعاملة بالحسنى ممّن لا يلزمه إلى من هو أهل لها .

ذلك أنّ الحسن يعني : ما كان محبوبًا عند المعامل به ، وليس لازمًا لفاعله .

درجات الإحسان :

ويأتي الإحسان على درجات متعدّدة ، وكلّها ينضوي تحت المفهوم الشّامل السّابق ، وأعلاه : ما كان في جانب اللّه تعالى ، ممّا فسّره النّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بقوله في الحديث المشهور : " الإحسان أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ " . ودونه التّقرّب إلى اللّه تعالى بالنّوافل .

وتأتي بعد ذلك مراتب أخرى للإحسان سواء في القصد والنّيّة ، أو في الفعل ، والإحسان في النّيّة يعدّ أمرًا مهمًّا ، إذ لابدّ أن تنقّى تنقية سليمة وافرة ، أمّا الإحسان في الفعل أي في المعاملة مع الخلق فيكون فيما زاد على الواجب شرعًا ، ويدخل فيه جميع الأقوال والأفعال ومع سائر أصناف الخلائق إلّا ما حرّم الإحسان إليه بحكم الشّرع .

ومن أدنى مراتب الإحسان ، ما ورد في الصّحيحين : " أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِى يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا " (م / 5997) ، وفي الحديث الشّريف : " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ " (م / 5167) فإلى حقيقة الإحسان ترجع أصول وفروع وآداب المعاشرة كلّها في المعاملة والصّحبة ، والعفو عن الحقوق الواجبة من الإحسان لقوله تعالى : (وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران/ 134) .

ويقول ابن قيّم الجوزيّة في (مدارج السالكين 2 / 480) ما خلاصته : الإحسان على ثلاث درجات :

الدّرجة الأولى : الإحسان في القصد بتهذيبه علمًا وإبرامه عزمًا وتصفيته حالًا .

الدّرجة الثّانية : الإحسان في الأحوال وهو أن تراعيها غيرة ، وتسترها تظرّفًا ، وتصحّحها تحقيقًا ، والمراد بمراعاتها : حفظها وصونها غيرة عليها أن تحوّل فإنّها تمرّ مرّ السّحاب ، وتكون المراعاة أيضًا بدوام الوفاء وتجنّب الجفاء ...

الدّرجة الثّالثة : الإحسان في الوقت وهو ألّا تزايل المشاهدة أبدًا ، ولا تخلط بهمّتك أحدًا ، والمعنى في ذلك أن تتعلّق همّتك بالحقّ وحده ، ولا تعلق همّتك بأحد غيره ... ا . هـ .

القيمة التربوية للإحسان :

قال أحد المعاصرين : الإحسان من عناصر التّربية الواعية نأخذه من قوله تعالى : (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة / 195) ، والإحسان في صورته العليا صفة ربّ العالمين ، لأنّ الإساءة تنتج عن الجهل والعجز والقصور وما إلى ذلك من أوصاف مستحيلة على اللّه تعالى . إنّه سبحانه تحدّث عن صنعه للكون الكبير ، فقال : (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ) (النمل / 88) ، وطلب إلى النّاس أن يفتّشوا عن مأخذ في هذه الصّناعة يشينها ، وهيهات (ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ* ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) (الملك / 3– 4) .

سبحانه من خالق (أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ) (السجدة / 7) ، واللّه سبحانه عند ما نشر أبناء آدم فوق الثّرى ، وناط بهم رسالة الحياة ، كلّفهم – كي يكونوا ربّانيّين – أن يحسنوا العمل ، وأن يبلغوا به درجة الكمال ، وإذا غلبتهم طباعهم الضّعيفة فلم يصلوا إلى هذا الشّأن كرّروا المحاولات ، ولم يستريحوا إلى نقص أو قصور ، وعليهم أن يجاهدوا حتّى يبلغوا بأعمالهم درجة الكمال المستطاع ، قال رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ... " (م / 5167) ، حتّى في معاملة الحيوان الأعجم ، وقد مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى رَجُلٍ وَاضِعٍ رِجْلَهُ عَلَى صَفْحَةِ شَاةٍ وَهُوَ يَحُدُّ شَفْرَتَهُ وَهِيَ تَلْحَظُ إِلَيْهِ بِبَصَرِهَا فَقَالَ : " أَفَلاَ قَبْلَ هَذَا أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَتَين ؟ " قال الألباني في صحيح الترغيب / 2 /274 : (صحيح) ، إنّ الإحسان يقتضي من المسلم ألّا يضيّع وقته هباء ، وأن يصرف جهده إلى النّافع من الأمور .

الإحسان من أهم وسائل نهضة المسلمين :

إنّ الإحسان يقتضي من المسلم إتقان العمل المنوط به إتقان من يعلم علم اليقين أنّ اللّه – عزّ وجلّ – ناظر إليه مطّلع على عمله ، وبهذا الإتقان تنهض الأمم وترقى المجتمعات .

إحسان اللّه إلى عباده :

إذا تدبّر العبد ، علم أنّ ما هو فيه من الحسنات من فضل اللّه ؛ فشكر اللّه – تعالى – فزاده من فضله عملًا صالحًا، ونعمًا يفيضها عليه . وإذا علم أنّ الشّرّ لا يحصل له إلّا من نفسه بذنوبه ، استغفر وتاب ؛ فزال عنه سبب الشّرّ ؛ فيكون العبد دائمًا شاكرًا مستغفرًا ، فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشّرّ يندفع عنه . كما كان النّبيّ – صلّى اللّه عليه وسلّم – يقول في خطبته : " الحَمْدُ لِلَّهِ " ، فيشكر اللّه ثمّ يقول : " نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ " ، نستعينه على الطّاعة ، ونستغفره من المعصية . ثمّ يقول : " وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا " ، فيستعيذ به من الشّرّ الّذي في النّفس ، ومن عقوبة عمله ؛ فليس الشّرّ إلّا من نفسه ومن عمل نفسه ؛ فيستعيذ اللّه من شرّ النّفس أن يعمل بسبب سيّئاته الخطايا ، ثمّ إذا عمل استعاذ باللّه من سيّئات عمله ، ومن عقوبات عمله فاستعانه على الطّاعة وأسبابها ، واستعاذ به من المعصية وعقابها .

فعلم العبد بأنّ ما أصابه من حسنة فمن اللّه، وما أصابه من سيّئة فمن نفسه يوجب له هذا وهذا .

فهو سبحانه فرّق بينهما هنا ، بعد أن جمع بينهما في قوله : (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) .

فبيّن أنّ الحسنات والسّيّئات ، والنّعم والمصائب ، والطّاعات والمعاصي ، على قول من أدخلها في (من عند اللّه) ، ثمّ بيّن الفرق الّذي ينتفعون به ، وهو أنّ هذا الخير من نعمة اللّه ؛ فاشكروه يزدكم ، وهذا الشّرّ من ذنوبكم ؛ فاستغفروه يدفعه عنكم .

منزلة الإحسان :

قال ابن القيّم – يرحمه اللّه – في (مدارج السالكين 2 / 480) : الإحسان من منازل إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، وهذه المنزلة هي لبّ الإيمان وروحه وكماله ، وهي جامعة لما عداها من المنازل ، فجميعها منطوية فيها ، وممّا يشهد لهذه المنزلة قوله تعالى : (هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ) (الرحمن / 60) ، إذ الإحسان جامع لجميع أبواب الحقائق ، وهو أن تعبد اللّه كأنّك تراه .

شمولية الإحسان واتساع دائرته :

من تأمّل الآيات الكريمة والأحاديث الشّريفة الواردة في الإحسان يتّضح بجلاء أنّ الإحسان يشكّل – مع العدل – جوهر العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وأنّ دائرة هذا الإحسان تتّسع لتشمل النّفس والأسرة والأقارب ثمّ المجتمع والإنسانيّة عامّة فالإحسان إلى النّفس وهي الدّائرة الأولى فى مجموعة الدّوائر الّتي يدور الإحسان في فلكها تتضمّن إخلاص العبادة وكمال الطّاعة ، قال تعالى : (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها) (الإسراء / 7) .

أمّا الدّائرة الثّانية فتشمل الوالدين ، قال تعالى : (وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْسانًا) (الإسراء / 23) .

وفيما يتعلّق بالأقارب وهي الدّائرة الثّالثة – فإنّها تشمل قرابة النّسب وقرابة الجوار وقد ورد الحثّ عليها في قوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْسانًا وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ) (البقرة / 83) ، أمّا في الحديث الشّريف فقد ورد الحثّ على الإحسان إلى الجار في قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ ، تَكُنْ مُسْلِمًا " (صحيح ابن ماجة / 3398) .

أمّا الدّائرة الرّابعة وهي أوسع من سابقاتها فإنّها تضمّ المجتمع الّذي يعيش فيه الإنسان والإحسان هنا ينصبّ أساسًا على الجانب الضّعيف في المجتمع كاليتامى والمساكين وأبناء السّبيل ومن على شاكلتهم ، يقول اللّه تعالى : (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَبِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَالْجارِ ذِي الْقُرْبى وَالْجارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالًا فَخُورًا) (النساء / 36) .

أمّا الدّائراة الخامسة وهي الأوسع والأرحب في العلاقات الإنسانيّة فتشمل الإحسان إلى المخالفين في العقيدة بالصّفح عنهم ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : (فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً يُحَرِّفُونَ

الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (المائدة / 13) .

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك دائرة أكثر شمولًا من العلاقة السّابقة ، ألا وهي دائرة الحياة بكلّ ما فيها من نبات أو حيوان أو جماد وإلى ذلك يشير قول اللّه تعالى : (وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (الأعراف / 56) ، وانظر أيضًا الحديث الشّريف : " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ " .

ميادين الإحسان كما جاءت في القرآن الكريم :

أمّا الميادين الّتي تتطلّب الإحسان بمعناه العامّ فقد فصّلها القرآن الكريم والسّنّة المطّهرة تفصيلًا يصعب حصره أو تحديده ، ذلك أنّ الإحسان مطلوب في جميع الأحوال والأوقات ، ومن أهمّ الميادين الّتي تتجلّى فيها علاقة الإحسان :

1- مواجهة الملمّات بالصّبر عليها ، قال تعالى : (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (هود / 115)

2- أداء الدّية لوليّ القتيل ، وذلك قوله تعالى : (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ) (البقرة / 178) .

3- معاملة المطلّقات أو من ينوى طلاقهنّ ، قال تعالى : (لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ... مَتاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ) (البقرة / 236) ، وقوله سبحانه : (الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ) (البقرة / 229) .

4- الحرب والجهاد ، وذلك قول اللّه تعالى : (وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت / 69) . وقوله سبحانه وتعالى : (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة / 195) .

5- مجاهدة النّفس بكظم الغيظ ومحاربة الشّحّ وكبح شهوة الانتقام ، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران/ 134) .

وتتضمّن هذه الآية الكريمة الإحسان إلى المسيء بالعفو عنه ، يقول الشّيخ الغزاليّ: كظم الغيظ مرتبة عالية ، ولكنّ المرتبة الأعلى هي العفو عند المقدرة ، وتلك درجة الإحسان .

6- الحوار الفكريّ والتّواصل الثّقافيّ ، وقد جاء ذلك في قوله تعالى : (وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ) (الإسراء / 53) .

7- التّحاور بين المسلمين وأهل الكتاب ، قال تعالى : (وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (العنكبوت / 46) .

8– الخصومة والخلافات ، يقول اللّه تعالى : (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (فصلت / 34) .

9– معاملة اليتامى والضّعفاء ، يقول سبحانه : (وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (الأنعام/ 152) .

10– العلاقات السّياسيّة والحربيّة ، قال تعالى : (قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا* قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحًا فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى) (الكهف / 86– 88) .

11– العلاقات الاجتماعيّة وخاصّة ما يتعلّق بتبادل التّحيّة وردّ السّلام ، يقول تعالى : (وَإِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها) (النساء / 86) .

12– العلاقات الاقتصاديّة ، يقول المولى عزّ وجلّ في قصّة قارون : (وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) (القصص / 77) ، ويقول اللّه سبحانه وتعالى : (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة / 195) . لقد تمّ الرّبط في هذه الآية الكريمة بين الإنفاق وهو المظهر الاقتصاديّ للإحسان وبين التّهلكة (خراب المجتمع) ، وسبب ذلك كما يقول بعض الباحثين : إنّ المجتمعات الّتي تقوم على الاستغلال والاحتكار تفرز الطّبقيّة ، وتبذر بذور الصّراع الاجتماعي في الدّاخل ، وتؤدّى إلى الصّراعات العالميّة في الخارج ، وينتج عن ذلك شقاء الفريقين جميعًا ، المستغِلّون والمستغَلّون ، فالطّبقة الأولى تقع فريسة للغربة والعزلة من ناحية وفقدان المحبّة وشيوع النّفاق من ناحية أخرى ، كما أنّه يتولّد لديها الشّعور بالخوف وعدم الأمان من ناحية ثالثة ، أمّا طبقة المستضعفين فإنّها تقع فريسة لمجموعة من الأخطار أهمّها : كره الطّبقات العليا المحتكرة والحقد عليها من ناحية ثمّ الإحساس بالغبن والإحباط من ناحية ثانية ، وأخيرًا فإنّها تميل إلى الجريمة والاستعداد للعنف من ناحية ثالثة .

إنّ تمكّن هذه الآفات الاجتماعيّة فى كلتا الطّبقتين هو التّهلكة الّتى تشير إليها الآية الكريمة وتحذّر منها وتدعو إلى معالجتها بالإحسان والإنفاق .

وهكذا نرى الإحسان يشمل الفرد والمجتمع والدّولة والحياة بأسرها وأنّه لن تقوم تربية راشدة إلّا إذا غرسنا معنى الإحسان في النّفوس على أنّه من محابّ اللّه تعالى ، وقد تضمّن الإحسان كما رأينا النّوايا والمقاصد والعبادات كما تناول الأقوال والأفعال ليس هذا فحسب وإنّما شمل أيضًا الإحسان إلى المخلوقات كافّة من حيوان وجماد ونبات .

أمر الله بالإحسان :

– (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل / 90) .

– (وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) (البقرة / 83) .

– (وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِينًا) (الإسراء / 53) .

– (وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (القصص / 77) .

جزاء الإحسان :

– (فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ) (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

الإحسان في الأحاديث :

1– عن شدّاد بن أوس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ؛ قال : " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ " . (م / 5167) .

2– عن عثمان – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : سمعت رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يقول : " مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ " . (م / 565) .

من فوائد (الإحسان) :

1– للإحسان ثمرة عظيمة تتجلّى في تماسك بنيان المجتمع وحمايته من الخراب والتّهلكة ووقايته من الآفات الاجتماعيّة النّاجمة عن الخلل الاقتصاديّ .

2– الإحسان هو المقياس الذي يقاس به نجاح الإنسان في علاقته بالحياة وهي علاقة ابتلاء .

3– المحسن يكون في معيّة اللّه عزّ وجلّ ، ومن كان اللّه معه فإنّه لا يخاف بأسًا ولا رهقًا .

4– المحسن يكتسب بإحسانه محبّة اللّه عزّ وجلّ .

5– وإذا أحبّ اللّه العبد جعله محبوبًا من النّاس ، وعلى ذلك فالمحسنون أحبّاء للنّاس يلتفّون حولهم ويدافعون عنهم إذا أحدق بهم الخطر .

6– للمحسنين أجر عظيم في الآخرة حيث يكونون في مأمن من الخوف والحزن .

7– من ثمرات الإحسان التّمكين فى الأرض .

8– المحسن قريب من رحمة اللّه عزّ وجلّ .

9– للمحسن البشرى بخيري الدّنيا والآخرة .

10– الإحسان هو وسيلة المجتمع للرّقيّ والتّقدّم ، وإذا كان صنوه أي العدل وسيلة لحفظ النّوع البشريّ فإنّ الإحسان هو وسيلة تقدّمه ورقيّه لأنّه يؤدّى إلى توثيق الرّوابط وتوفير التّعاون .

11– الإحسان وسيلة لحصول البركة في العمر والمال والأهل .

12– الإحسان وسيلة لاستشعار الخشية والخوف من اللّه تعالى ، كما أنّه وسيلة لرجاء رحمته عزّ وجلّ .

13– الإحسان وسيلة لإزالة ما في النّفوس من الكدر وسوء الفهم وسوء الظّنّ ونحو ذلك .

14– الإحسان وسيلة لمساعدة الإنسان على ترك العجب بالنّفس لما في الإحسان من نيّة صادقة .

15– الإحسان طريق ييسّر لصاحبه طريق العلم ويفجّر فيه ينابيع الحكمة .

16– الدّفع بالحسنة – وهي إحدى صور الإحسان – يقضي على العداوات بين النّاس ويبدّلها صداقة حميمة ومودّة رحيمة وتنطفيء بذلك نار الفتن وتنتهي أسباب الصّراعات ، أمّا الدّفع بالسّيّئة ، أي مقابلة السّيّئة بمثلها فإنّه يؤدّي إلى تدهور العلاقات وإشعال نيران الفتن وتفاقم أسباب الصّراع ويهبط بالنّوع البشريّ إلى حضيض التّخلّف ويعرّض بقاءه لخطر الفناء .

17– إذا اقترن إسلام الوجه للّه بالإحسان فإنّ ذلك يثمر الاستمساك بالعروة الوثقى الّتي يرجى معها خير الدّنيا والآخرة ، أي أنّ المحسن يحتاط لنفسه بأن يستمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه .

18– لبعض أنواع الإحسان ثمار خاصّة تعود على المحسن بالخير العميم في الدّنيا والآخرة ، فمن ذلك :

أ– إحسان المرء وضوءه وخشوعه وركوعه يكفّر السّيّئات الماضية ، ويستمرّ التّكفير ما استمرّ الإحسان .

ب– إحسان المرء إلى جاره علامة صادقة على حسن إسلامه .

ج– إحسان المرء في تربية بناته والسّعي على رزقهنّ يجعل من هذه البنات سترًا له من النّار .

د– في الإحسان إلى النّساء في الكسوة والطّعام وما أشبه ذلك قيام بحقّهنّ يثمر التّرابط الأسريّ ، ويحقّق الاستقرار العائليّ .

أحسن إلى النّاس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

2 – التوابون

قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِين) (البقرة / 222)

التوبة لغة :

التّوبة مصدر قولك : تاب يتوب وهو مأخوذ من مادّة (ت و ب) الّتي تدلّ على الرّجوع ، يقال : تاب من ذنبه ، أي رجع عنه توبة ومتابًا ، والوصف منه تائب ، و التّوب : ترك الذّنب على أجمل الوجوه وهو أبلغ وجوه الاعتذار ؛ فإنّ الاعتذار على ثلاثة أوجه :

إمّا أن يقول المعتذر : لم أفعل ، أو يقول فعلت لأجل كذا ، أو يقول : فعلت وأسأت وقد أقلعت ، ولا رابع لذلك وهذا الأخير هو التّوبة ، يقال : تاب إلى اللّه أي تذكّر ما يقتضي الإنابة ، نحو قوله سبحانه : (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا) (النور / 31) أي عودوا إلى طاعته وأنيبوا إليه .. ويقال : تاب اللّه عليه أي قبل منه التّوبة ، والتّائب يقال لباذل التّوبة ولقابل التّوبة فالعبد تائب إلى اللّه . واللّه تائب على عبده ، والتّوّاب العبد الكثير التّوبة ، وذلك بتركه كلّ وقت بعض الذّنوب على التّرتيب حتّى يصير تاركًا لجميعه ، وقد يقال للّه عزّ وجلّ ذلك (أي توّاب) وذلك لكثرة قبوله توبة العباد حالا بعد حال ، والمتاب في قوله تعالى : (وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتابًا) (الفرقان / 71) يقصد به التّوبة التّامّة وهي الجمع بين ترك القبيح وتحرّي الجميل .

وجاء في الصّحاح : التّوبة الرّجوع من الذّنب ، وفي الحديث : " النَّدَمُ تَوْبَةٌ " (صحيح ابن ماجة /3429) وكذلك التّوب مثله ، خلافًا للأخفش الّذي ذهب إلى أنّ التّوب جمع توبة مثل عوم وعومة ، ويقال : تاب إلى اللّه توبة ومتابًا ، وقد تاب اللّه عليه ، وفّقه للتّوبة وعاد عليه بالمغفرة . واستتبت فلانًا عرضت عليه التّوبة أو سألته أن يتوب ، والتّابة في قول الشّاعر :

تبت إليك فتقبّل تابتي .

يراد بها التّوبة ، أبدلت الواو ألفًا لضرب من الخفّة .

التوبة في الاصطلاح :

قال الرّاغب : التّوبة في الشّرع : ترك الذّنب لقبحه والنّدم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة .

وقال الجرجانيّ : التّوبة هي الرّجوع إلى اللّه بحلّ عقدة الإصرار عن القلب ، ثمّ القيام بكلّ حقوق صاحبها الفلاح عاجلًا وآجلًا .

وقال التّهانويّ : التّوبة النّصوح وهي من أعمال القلب تعني تنزيه القلب عن الذّنوب ، وعلامتها أن يكره العبد المعصية ويستقبحها فلا تخطر له على بال ولا ترد في خاطره أصلًا .

معاني التوبة وأنواعها :

قال صاحب التّعريفات : التّوبة على ثلاثة معان :

أوّلها : النّدم . وثانيها : العزم على ترك العود إلى ما نهى اللّه عنه . وثالثها : السّعي في أداء المظالم .

أمّا أنواعها :

فقيل هي نوعان : توبة الإنابة وتوبة الاستجابة ، فتوبة الإنابة أن تخاف من اللّه من أجل قدرته عليك ، وتوبة الاستجابة أن تستحي من اللّه لقربه منك ، قال تعالى : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (ق / 16)

وقيل : بل ثلاثة :

التّوبة الصّحيحة : وهي أنّه إذا اقترف العبد ذنبًا تاب عنه بصدق في الحال .

والتّوبة الأصحّ : وهي التّوبة النّصوح (وقد سبق تعريفها) .

والتّوبة الفاسدة : هي التّوبة باللّسان مع بقاء لذّة المعصية في الخاطر .

التوبة والإنابة والأوبة :

يقال لمن خاف العقاب هو صاحب توبة ، ولمن يتوب بطمع الثّواب هو صاحب إنابة ، ولمن يتوب لمحض مراعاة أمر اللّه فهو صاحب أوبة .

وقيل : التّوبة صفة عامّة المؤمنين . قال تعالى : (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ) (النور / 31) .

والإنابة صفة الأولياء والمقرّبين . قال تعالى : (وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) (ق / 33) والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين . قال تعالى : (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) (ص / 30) .

ما ورد في تفسير الآية :

– قال أبو حيان محمد بن حيان النحوي في تفسير البحر المحيط (375/2) :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِين) أي : الراجعين إلى الخير .

وجاء عقب الأمر والنهي إيذانًا بقبول توبة من يقع منه خلاف ما شرع له ، وهو عام في التوابين من الذنوب .

وقال القتاد : التوابين من الكبائر والمتطهرين من الصغائر ، وقيل : التوابين من الذنوب والمتطهرين من العيوب .

وقال عطاء أيضًا : المتطهرين بالماء ، وقيل : من أدبار النساء فلا يتلوثون بالذنب بعد التوبة ، كأن هذا القول نظير لقوله تعالى ، حكاية عن قوم لوط : (أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) (الأعراف / 82) والذي يظهر أنه تعالى ذكر في صدر الآية (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ) (البقرة / 222) ودل السبب على أنهم كانت لهم حالة يرتكبونها حالة الحيض ، من مجامعتهنّ في الحيض في الفرج ، أو في الدبر ، ثم أخبر الله تعالى بالمنع من ذلك ، وذلك في حالة الحيض في الفرج أو في الدبر ، ثم أباح الإتيان في الفرج بعد انقطاع الدم والتطهر الذي هو واجب على المرأة لأجل الزوج ، وإن كان ليس مأمورًا به في لفظ الآية ، فأثنى الله تعالى على من امتثل أمر الله تعالى ، ورجع عن فعل الجاهلية إلى ما شرعه تعالى ، وأثنى على من امتثلت أمره تعالى في مشروعية التطهر بالماء ، وأبرز ذلك في صورتين عامتين ، استدرج الأزواج والزوجات في ذلك ، فقال تعالى : (إن الله يحب التوابين) أي : الراجعين إلى ما شرع (ويحب المتطهرين) بالماء فيما شرع فيه ذلك فكان ختم الآية بمحبة الله من اندرج فيه الأزواج والزوجات .

وذكر الفعل ليدل على اختلاف الجهتين من التوبة والتطهر ، وأن لكل من الوصفين محبة من الله يخص ذلك الوصف ، أو كرر ذلك على سبيل التوكيد .

إن الله يحبّ التوابين ويحبّ المتطهرين (قال مجاهد عن ابن رزين والكلبي) إن الله يحب التوابين (من الذنوب) والمتطهرين (من أدبار النساء أن لا يأتوها) .

وقال : من أتى المرأة في دبرها فليس من المتطّهرين ، فإن دُبُر الْمَرْأَةِ مِثْلُهُ مِنَ الرَّجُلِ .

– قال أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري في تفسيره الكشف والبيان (2 / 120) .

قال مقاتل بن حيّان : التوابين (من الذنوب) والمتطّهرين (من الشرك والجهل) .

كنت عند أبي العالية يومًا فتوضأ وضوءًا حسنًا فقلت : إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين فقال : الطهور من الماء حسن ولكنهم المتطهرون من الذنوب .

و عن سعيد بن جبير : التوابين (من الشرك) والمتطهرين (من الذنوب) .

و عن أبي العالية أيضًا : التوابين (من الكفر) والمتطهرين (بالايمان) .

و عن ابن جريج عن مجاهد : التوابين (من الذنوب لا يعودون لها) والمتطهرين (هنا لم يصبوها) .

قال الثعلبي : وسمعت أبا القاسم بن محمد بن حبيب يقول : سألت أبا الحسن علي بن عبد الرحيم القنّاد عن هذه الآية قال : إن الله يحب التوابين (من الكبائر) والمتطهرين (من الصغائر) التوابين (من الأفعال) والمتطهرين (من الأقوال) .

التوابين من الأقوال والأفعال والمتطهرين من العقود والإضمار . التوابين من الآثام والمتطهرين من الاجرام .

التوابين من الجرائر ، والمتطهرين من خبث السرائر . التوابين من الذنوب والمتطهرين من العيوب .

والتواب الذي كلما أذنب تاب ، نظيره قوله : (فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا) (الإسراء / 25) .

– قال أبو حفص سراج الدين عمر بن عادل في تفسيره اللباب في علوم الكتاب (71/3) :

قوله : (إِنَّ الله يُحِبُّ التوابين) التَّوَّاب : هو المكثر من فعل ما يسمَّى توبةً ، وقد يقال : هذا في حقِّ الله تعالى – ؛ من حيث إنه يكثر من قبول التَّوبة .

فإن قيل : ظاهر الآية يدلُّ على أنَّه يحبُّ تكثير التَّوبة مطلقًا ، والعقل يدلُّ على أن التَّوبة لا تليق إلاَّ بالمذنب ، فمن لم يكن مذنبًا ، لا تجب منه التَّوبة .

فالجواب من وجهين :

الأول : أن المكلَّف لا يأمن البتَّة من التَّقصير .

والثاني : قال أبو مسلمٍ : التَّوبة في اللُّغة عبارة عن الرُّجوع ، ورجوع العبد إلى الله في كلِّ الأحوال محمودٌ .

واعترضه القاضي : بأن التَّوبة – وإن كانت في أصل اللغة الرُّجوع – إلا أنها في عرف الشَّرع عبارةٌ عن النَّدَم على الفعل الماضي ، والتَّرك في الحاضر ، والعزم على ألاَّ يفعل مثله في المستقبل ؛ فوجب حمله على المعنى الشَّرعيِّ دون اللُّغويّ .

ولأبي مسلم أن يجيب : بأنّ مرادي من هذا الجواب ، أنّه إن أمكن حمل اللّفظ على التّوبة الشّرعيَّة ، فقد صحَّ اللّفظ ، وإن تعذَّر ذلك ، حملناه على التّوبة بحسب اللُّغة الأصليَّة .

قوله : (وَيُحِبُّ المتطهرين) فيه وجوه :

أحدها : المراد منه التّنزُّه عن الذُّنوب والمعاصي ، قاله مجاهد .

فإن قيل : كيف قدَّم ذكر المذنب على من لم يُذنب ؟

فالجواب : قدَّمه لئلا يقنط التّائب من الرَّحمة ، ولا يعجب المتطهِّر بنفسه ؛ كقوله في آيةٍ أخرى : (ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات) (فاطر : 32) ، قاله القرطبي .

الثاني : قال عطاء ومقاتل بن سليمان والكلبيّ : (يُحِبُّ التَّوَّابِينَ من الذُّنُوبِ ، والمتَطَهِّرِين بالمَاءِ من الأَحْدَاثِ والنَّجَاسَاتِ) .

الثالث : قال مقاتل بن حيَّان : يحب التَّوَّابين من الذُّنُوب ، والمتطهِّرين من الشِّرك .

الرابع : قال سعيد بن جبير : التَّوَّابين من الشِّرك ، والمتطهِّرين من الذُّنوب .

الخامس : أن المراد ألا يأتيها في زمان الحيض ، وألاَّ يأتيها في غير المأتى على ما قال : (فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله) .

قال بعضهم : وهذا أولى ؛ لأنه أليق بنظم الآية ، ولأنَّه – تعالى – قال حكاية عن قوم لوطٍ : (أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) (الأعراف : 82) ، فكان قوله : (وَيُحِبُّ المتطهرين) ترك الإتيان في الأدبار .

السادس : أنَّه – تعالى – لمَّا أمرهنّ بالتَّطهير في قوله : (فَإِذَا تَطَهَّرْنَ) ، فلا حرم مدح التَّطهير ، فقال : (وَيُحِبُّ المتطهرين) والمراد منه التَّطهير بالماء ؛ قال – تعالى – : (رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ والله يُحِبُّ المطهرين) (التوبة : 108) ، قيل في التَّفسير : إنهم كانوا يستنجون بالماء ، وكرَّر قوله (يُحِبُّ) ؛ دلالةً على اختلاف المقتضي للمحبَّة ، فتختلف المحبَّة .

– و قال محمد بن صالح بن محمد العثيمين في تفسيره (64/5) :

وقوله تعالى : (يحب التوابين ويحب المتطهرين) : المحبة معروفة ؛ و (التوابين) صيغة مبالغة تفيد الكثرة ؛ فالتوابون كثيرو التوبة ؛ و(التوبة) هي الرجوع من معصية الله إلى طاعته ؛ و(المتطهرين) أي الذين يتطهرون من الأحداث ، والأخباث ؛ وجمع بين ذلك ، وبين التوبة ؛ لأن (التوبة) تطهير الباطن ؛ و (التطهر) تطهير الظاهر .

– و في مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) (259/3) :

الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وليست التوبة نقصًا ، بل هي من أفضل الكمالات ، وهي واجبة على جميع الخلق ، كما قال تعالى : (وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ على الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) (الأحزاب : 72، 73) فغاية كل مؤمن هي التوبة ، ثم التوبة تتنوع كما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

– نضرة النعيم (4 / 1269 التوبة) .

إطلاقات الكلمة في القرآن الكريم :

وردت كلمة التّوبة في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه :

1– بمعنى التّجاوز والعفو . وهذا مقيّد بعلى ، كقوله تعالى : (فَتابَ عَلَيْكُمْ) (البقرة / 54) .

2– بمعنى الرّجوع والإنابة . وهذا مقيّد بإلى ، كقوله تعالى : (تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ)(النور/ 31).

3– بمعنى النّدامة . وهذا غير مقيّد لا بـ (إلى) ولا بـ (على) : كقوله تعالى : (فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) (التوبة / 3) .

شروط التوبة :

قال النّوويّ – يرحمه اللّه تعالى – : التّوبة واجبة من كلّ ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين اللّه تعالى لا تتعلّق بحقّ آدميّ فلها شروط ثلاثة وهي :

1– أن يقلع عن المعصية .

2– أن يندم على فعلها .

3– أن يعزم على أن لا يعود إليها أبدًا . فإن فقد أحد الثّلاثة لم تصحّ توبته .

ويزاد شرط رابع إذا كان الذّنب يتعلّق بحقّ آدميّ : أن يبرأ من حقّ صاحبه ؛ فإن كان مالًا أو نحوه ردّه إليه ، وإن كان حدّ قذف مكّنه منه أو طلب عفوه ، وإن كان غيبة استحلّه منها ، هذا إذا لم يترتّب على ذلك مفسدة أعظم . ويجب أن يتوب من جميع الذّنوب ، فإن تاب من بعضها صحّت توبته من ذلك الذّنب .

التوبة من ترك المأمور أولى من التوبة من فعل المحظور :

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة – يرحمه اللّه تعالى – : من تاب توبة عامّة كانت هذه التّوبة مقتضية لغفران الذّنوب ، وإن لم يستحضر أعيان الذّنوب إلّا أن يعارض هذا العامّ معارض يوجب التّخصيص مثل أن يكون بعض الذّنوب لو استحضره لم يتب منه ، لقوّة حبّه إيّاه ، أو لاعتقاده أنّه حسن ليس بقبيح ، فما كان من ذنب لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التّوبة ، وأمّا ما كان لو استحضره بعينه لكان ممّا يتوب منه ؛ فإنّ التّوبة العامّة شاملة له . وأمّا التّوبة المطلقة : وهي أن يتوب توبة مجملة ، فإنّها لا تستلزم التّوبة من كلّ ذنب . فهذه لا توجب دخول كلّ فرد من أفراد الذّنوب فيها ولا تمنع دخوله كاللّفظ المطلق ، لكن هذه تصلح أن تكون سببًا لغفران المعيّن ، كما تصلح سببًا لغفران الجميع ، بخلاف التّوبة العامّة فإنّها مقتضية للغفران العامّ . وكثير من النّاس لا يستحضر عند التّوبة إلّا بعض المعاصي المتّصفات بالفاحشة أو مقدّماتها أو بعض الظّلم باللّسان أو اليد ، وقد يكون ما تركه من المأمور الّذي يجب عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضررًا عليه ممّا فعله من بعض الفواحش ؛ فإنّ ما أمر اللّه به من حقائق الإيمان الّتي بها يصير العبد من المؤمنين حقًّا أعظم نفعًا من نفع

ترك بعض الذّنوب الظّاهرة ، كحبّ اللّه ورسوله ، فإنّ هذا أعظم الحسنات الفعليّة . والنّاس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامّة مع حاجتهم إلى ذلك ؛ فإنّ التّوبة واجبة على كلّ عبد في كلّ حال ، لأنّه دائما يظهر له ما فرّط فيه من ترك مأمور أو ما اعتدى فيه من فعل محظور ، فعليه أن يتوب دائمًا .

شمول التوبة لكل مراتب الدين (الإسلام ، الإيمان ، الإحسان) :

قال ابن القيّم – يرحمه اللّه تعالى – : التّوبة هي حقيقة دين الإسلام ، والدّين كلّه داخل في مسمّى التّوبة وبهذا استحقّ التائب أن يكون حبيب اللّه . فإنّ اللّه يحبّ التّوّابين ويحبّ المتطهّرين . وإنّما يحبّ اللّه من فعل ما أمر به . وترك ما نهي عنه . فإذًا التّوبة هي الرّجوع عمّا يكرهه اللّه ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبّه ظاهرًا وباطنًا . ويدخل في مسمّاها الإسلام ، والإيمان ، والإحسان . وتتناول جميع المقامات . ولهذا كانت غاية كلّ مؤمن ، وبداية الأمر وخاتمته وهي الغاية الّتي وجد لأجلها الخلق . والأمر والتّوحيد جزء منها ، بل هو جزؤها الأعظم الّذي عليه بناؤها .

- وأكثر النّاس لا يعرفون قدر التّوبة ولا حقيقتها ، فضلًا عن القيام بها علمًا وعملًا وحالًا . ولم يجعل اللّه تعالى محبّته للتّوّابين إلّا وهم خواصّ الخلق لديه ، ولولا أنّ التّوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الرّبّ تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم ، فجميع ما يتكلّم فيه النّاس من المقامات والأحوال هو تفاصيلها وآثارها .
- أمر الله بالتوبة :
- (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (النور :31) .
- عاقبة التوابين :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ) (البقرة / 222) ، (فَأَمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحًا فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ) (القصص / 67) .

التوبة في الأحاديث :

– عَنْ عَبْدِ اللهِ بْن مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : قال رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ منزلًا وبه مهلكة ، و مَعَهُ رَاحِلَةٌ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً ، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ ، حَتَّى اشْتَدَّ عَلَيْهِ الحر والْعَطَشُ ، أو ما شاء اللّه ، قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي ، فَرَجَعَ فنام نومة ثمّ رفع رأسه فَإِذَا رَاحِلَته عِنْدَهُ) . (حم ق ت) عن ابن مسعود .

قال الشيخ الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : 5033 في صحيح الجامع .

– عَنْ أَنَسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ " . قال الألباني : حسن ، ابن ماجة (4251) (صحيح الترمذي / 2499) .

أقوال في التوبة :

1– قال عمر بن الخطّاب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : " اجلسوا إلى التّوّابين فإنّهم أرقّ أفئدة " .

2– وقال أيضًا – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – في معنى قوله تعالى : (تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا) (التحريم / 8) . يذنب العبد ثمّ يتوب فلا يعود فيه .

3– عن ابن عبّاس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قال : قال اللّه – عزّ وجلّ – : (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ) (النجم / 32) قال : هو الرّجل يصيب الفاحشة يلمّ بها ثمّ يتوب منها . قال يقول : إن تغفر اللّهمّ تغفر جمّا ... وأيّ عبد لك لا ألّما

4– قال الحسن البصريّ – يرحمه اللّه – : يابن آدم ترك الخطيئة أيسر من طلب التّوبة .

5– وقال أيضًا – يرحمه اللّه – في معنى التّوبة النّصوح : أن يكون العبد نادمًا على ما مضى ، مجمعًا على أن لا يعود فيه .

وقال فيها أيضًا : ندم بالقلب ، واستغفار باللّسان وترك بالجوارح ، وإضمار ألّا يعود .

6– وقال الكلبيّ : أن يستغفر باللّسان ، ويندم بالقلب ، ويمسك بالبدن .

7– وقال سعيد بن المسيّب : التّوبة النّصوح ما تنصحون بها أنفسكم .

8– وقال محمّد بن كعب القرظيّ : التّوبة يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللّسان ، الإقلاع بالأبدان ، إضمار ترك العود بالجنان ، مهاجرة سيّئ الإخوان .

9– قال أبو حازم : عند تصحيح الضّمائر تغفر الكبائر ، إذا عزم العبد على ترك الآثام أمّه الفتوح .

10– قال يحيى بن معاذ – يرحمه اللّه تعالى : الّذي حجب النّاس عن التّوبة طول الأمل ، وعلامة التّائب إسبال الدّمعة وحبّ الخلوة والمحاسبة للنّفس عند كلّ همّة .

11– قال ابن القيّم – يرحمه اللّه تعالى – : التّوبة من أفضل مقامات السّالكين لأنّها أوّل المنازل ، وأوسطها ، وآخرها . فلا يفارقها العبد أبدًا ولا يزال فيها إلى الممات . وإن ارتحل السّالك منها إلى منزل آخر ارتحل به ، ونزل به . فهي بداية العبد ونهايته ، وحاجته إليها في النّهاية ضروريّة ، كما حاجته إليها في البداية كذلك .

12– قال محمود الورّاق – يرحمه اللّه – :

قدّم لنفسك توبة مرجوّة ... قبل الممات وقبل حبس الألسن

بادر بها غلق النّفوس فإنّها ... ذخر وغنم للمنيب المحسن

13– قال بعض أهل العلم : من أعطي أربعًا لم يمنع أربعًا : من أعطي الشّكر ، لم يمنع المزيد ، ومن أعطي التّوبة ، لم يمنع القبول ، ومن أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة ، ومن أعطي المشورة لم يمنع الصّواب .

14– عن النّعمان بن بشير – رضي اللّه عنه – قال : سئل عمر ابن الخطّاب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عن التّوبة النّصوح قال : التّوبة النّصوح أن يتوب الرّجل من العمل السّيّئ ثمّ لا يعود إليه أبدًا .

15– عن سماك بن حرب قال : سمعت النّعمان بن بشير – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – يخطب قال : سمعت عمر بن الخطّاب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – يقول : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا) (التحريم / 8) قال : يذنب الذّنب ثمّ لا يرجع فيه .

16 – عن ابن عبّاس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قال : قوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا) (التحريم / 8) ألّا يعود صاحبها لذلك الذّنب الّذي يتوب منه .

17– عن أبي الأحوص عَنْ عَبْدِ اللهِ بْن مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : التّوبة النّصوح الرّجل يذنب الذّنب ثمّ لا يعود فيه .

18– روي عن مجاهد قوله : تَوْبَةً نَصُوحًا قال : يستغفرون ثمّ لا يعودون .

19– روي عن الضّحّاك في قوله : تَوْبَةً نَصُوحًا قال : النّصوح أن تتحوّل عن الذّنب ثمّ لا تعود له أبدًا .

20– عن قتادة قال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا) (التحريم / 8) قال : هي الصّادقة النّاصحة .

من فوائد (التوبة) :

(1) التّوبة من كمال الإيمان وحسن الإسلام .

(2) سبب حبّ اللّه تعالى ورضاه ؛ لأنّ اللّه يحبّ التّوّابين ويحبّ المتطهّرين .

(3) سعة رحمة اللّه تعالى للتّائب .

(4) ضعف الإنسان لكون الخطيئة جزءًا منه .

(5) عموم وشمول مغفرة اللّه ورحمته لكلّ ذنب تاب العبد منه وإن كان شركًا .

(6) حرمة المسلم (عرضه وماله) فلا تقبل التّوبة من حقوق العباد إلّا بأن يأخذ حقّه أو يعفو .

(7) يتجلّى اللّه على التّائب برضوانه وإحسانه .

(8) يقبل اللّه على التّائب أضعاف إقبال عبده عليه بطاعته .

(9) تسبّب التّوبة ذهاب الضّيق وإزالة الهمّ .

(10) الرّجاء في العفو والتّوبة ما دامت الرّوح في الجسد إلى طلوع الشّمس من مغربها ، وقبل الغرغرة .

(11) وجوب التّوبة على العموم وعلى الخصوص والمبادرة بها .

(12) المعاصي سواد والتّوبة جلاؤها .

3 – الْمُتَطَهِّرون

قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (البقرة / 222)

الطهارة لغة :

مصدر قولهم : طهر الشّيء طهرًا وطهارة وهو مأخوذ من مادّة (ط هـ ر) الّتي تدلّ على نقاء وزوال دنس ، يقال طَهَر وطَهُر (بالفتح والضّمّ) ، طهرًا وطهارة (المصدران عن سيبويه) ، وقال الرّاغب : يقال : طهرت المرأة وطهرت والفتح أقيس لأنّها خلاف طمثت ويقال في المؤنّث طاهرة (بالتّاء) ، وطهّرته بالماء ، نظّفته به ، ويقال طهّرته فتطهّر وطهر واطّهّر فهو طاهر ومتطهّر . عن ابن الأعرابيّ وأنشد :

أضعت المال للأحساب حتّى ... خرجت مبرّأ طهر الثّياب

والطّهر ، نقيض الحيض . والطّهر : نقيض النّجاسة ، والجمع أطهار . واسم الماء : الطّهور . وكلّ ماء نظيف : طهور ، وماء طهور أي يتطهّر به وكلّ طهور طاهر ، وليس كلّ طاهر طهورًا .

قال الأزهريّ : وكلّ ما قيل في قوله – عزّ وجلّ – (وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُورًا) (الفرقان / 48) فإنّ الطّهور في اللّغة : هو الطّاهر المطهّر؛ لأنّه لا يكون طهورًا إلّا وهو يتطهّر به .

وقال ابن الأثير : الطّهور بالضّم : التّطهّر وبالفتح : الماء الّذي يتطهّر به .

والطّهارة : اسم يقوم مقام التّطهّر بالماء .

التّطهّر والتّطهير : التّنزّه والكفّ عن الإثم وما لا يجمل ، ورجل طاهر الثّياب أي منزّه . وهم قوم يتطهّرون أي يتنزّهون عن الأدناس ورجل طهر الخلق وطاهره ، والأنثى طاهرة .

والتّوبة الّتي تكون بإقامة الحدّ ، كالرّجم وغيره : طهور للمذنب تطهّره تطهيرًا ، وقد طهّره الحدّ .

وطهّر فلان ولده إذا أقام سنّة ختانه .

واصطلاحًا :

قال الرّاغب : الطّهارة ضربان : طهارة جسم وطهارة نفس ، ولكلّ معناه الاصطلاحيّ فطهارة النّفس : ترك الذّنب والعمل للصّلاح وتنقية النّفس من المعايب .

وطهارة الجسم : رفع حدث أو إزالة نجس أو ما في معناهما وعلى صورتهما .

وقال المناويّ : الطّهارة شرعًا صفة حكميّة توجب أن تصحّح للموصوف صحّة الصّلاة به أو فيه أو معه . وقال الجرجانيّ : الطّهارة في الشّرع : عبارة عن غسل أعضاء مخصوصة بصفة مخصوصة .

ما ورد في تفسير الآية :

– قال أبو حيان محمد بن حيان النحوي في تفسير البحر المحيط (375/2) :

(ويحب المتطهرين) أي : المبرئين من الفواحش ، وخصه بعضهم بأنه التائب من الشرك والمتطهر من الذنوب ، قاله ابن جبير ؛ أو بالعكس ، قاله عطاء ، ومقاتل ؛ وبعضهم خصه بالتائب من المجامعة في الحيض ، وقال مجاهد: من إتيان النساء في أدبارهنّ في أيام حيضهنّ ؛ وقال أبو العالية: التوابين من الكفر المتطهرين بالإيمان.

– نضرة النعيم (7 / 2719)

من معاني كلمة الطهارة في القرآن الكريم :

قال ابن الجوزيّ – يرحمه اللّه تعالى – : ذكر أهل التّفسير أنّ الطّهارة في القرآن على أوجه :

(1) الطّهارة من الذّنوب ، ومنه قوله تعالى : (خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها) (التوبة / 103) .

و قوله تعالى : (فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ) (المجادلة / 12) .

(2) الطّهارة من الأوثان ، ومنه قوله تعالى في البقرة : (أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ) (البقرة / 125) ومثلها في الحجّ .

(3) ومنها : الحلال ، ومنه قوله تعالى في هود : (هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) (هود / 78) أي أحلّ .

(4) ومنها : طهارة القلب من الرّيبة ، ومنه قوله تعالى في البقرة : (ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَأَطْهَرُ) (البقرة / 232) يريد : أطهر لقلب الرّجل والمرأة من الرّيبة ، وفي الأحزاب (ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ)(الأحزاب / 53) أي من الرّيبة والدّنس .

(5) ومنها : الطّهارة من الفاحشة ، ومنه قوله تعالى : (يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ) (آل عمران/ 42) .

أنواع الطهارة :

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة – يرحمه اللّه تعالى – :

الطّهارة أنواع :

(1) منها الطّهارة من الكفر والفسوق ، كما يراد بالنّجاسة ضدّ ذلك كقوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) (التوبة / 28) .

(2) ومنها : الطّهارة من الحدث وضدّ هذه نجاسة الحدث .

(3) ومنها : الطّهارة من الأعيان الخبيثة الّتي هي نجسة .

قال ابن القيّم – يرحمه اللّه تعالى – : المراد من قوله تعالى : (وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ) (المدثر / 4) الآية تعمّ كلّ ما ذكره ابن تيميّة سابقًا ، إن كان طهارة القلب ، فطهارة الثّوب ، وطيب مكسبه تكميل لذلك ، فإنّ خبث الملبس يكسب القلب هيئة خبيثة ، كما أنّ خبث المطعم يكسبه ذلك ، ولذلك حرّم ما حرّم من اللّباس ، لما تكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات الّتي تلبس جلودها ، فإنّ الملابسة الظّاهرة تسري إلى الباطن .

والمقصود أنّ طهارة الثّوب وكونه من مكسب طيّب وهو من تمام طهارة القلب وكمالها ، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها . فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأمورًا به ، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النّفس ، فلا يتمّ إلّا بذلك . واللّه سبحانه بحكمته جعل الدّخول إلى جنّته موقوفًا على الطّيب والطّهارة ، فلا يدخلها إلّا طيّب طاهر ، فهما طهارتان : طهارة البدن ، وطهارة القلب .

قال الفيروز آباديّ – يرحمه اللّه تعالى – : الطّهارة ضربان : جسمانيّة ، ونفسانيّة وحمل عليهما عامّة الآيات .

وقوله تعالى : (وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا) (المائدة / 6) أي استعملوا الماء أو ما يقوم مقامه . وقال تعالى :

(وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذا تَطَهَّرْنَ ...) (البقرة / 222) . وقوله تعالى : (وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) (آل عمران / 55) . أي مخرجك من جملتهم ومنزّهك أن تفعل فعلهم . وقيل في قوله تعالى : (لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) (الواقعة / 79) يعني به تطهير النّفس أي إنّه لا يبلغ حقائق معرفته إلّا من يطهّر نفسه من درن الفساد والجهالات والمخالفات . وقوله تعالى : (وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ) (البقرة / 25) أي مطهّرات من درن الدّنيا وأنجاسها . وقيل من الأخلاق السّيّئة ، بدلالة قوله تعالى : (وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ) (المدثر / 4) وقيل معناه : نفسك نزّهها عن المعايب . وقيل : طهّره عن الأغيار (يعني القلب) ، وتطهّر من الإثم : تنزّه منه . وهو طاهر الثّياب : نزه من مدانس الأخلاق .

وقال الجرجانيّ : الطّاهر من عصمه اللّه – تعالى– من المخالفات .

وطاهر الظّاهر : من عصمه اللّه – تعالى – من المعاصي .

وطاهر الباطن : من عصمه اللّه تعالى من الوساوس والهوامس .

وطاهر السّرّ : من لا يغافل عن اللّه– تعالى– طرفة عين .

وطاهر السّرّ والعلانية : من قام بتوفية حقوق الحقّ والخلق جميعًا لسعته برعاية الجانبين .

عاقبة المتطهرين :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (البقرة / 222) (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) (التوبة / 108) .

الطهارة في الأحاديث :

1– عَنْ أَبِى مَالِكٍ الأَشْعَرِىِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ . وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ – أَوْ تَمْلأُ – مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ " .

(م / 556) .

2– عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قَالَ : " فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلاَةِ فَهِىَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلاَةِ فَهِىَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ " . فال الألباني : حسن (صحيح أبي داود / 1609) .

3– عَنِ عَبْد اللَّهِ بْن أَبِي أَوْفَى – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو : " اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الأَرْضِ ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ ، اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي بِالْبَرْدِ وَالثَّلْجِ وَالْمَاءِ الْبَارِدِ ، اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنَ الذُّنُوبِ ، وَنَقِّنِي كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَس " .

قال الألباني في صحيح الأدب المفرد : 684/529 (صحيح) .

أقوال في (الطهارة) :

1– قال عثمان بن عفّان – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : لو طهرت قلوبنا لما أشبعت من كلام ربّنا .

2– قال ابن القيّم – يرحمه اللّه تعالى – : صلّى سلمان الفارسيّ وأبو الدّرداء – رضي اللّه عنهما – في بيت نصرانيّة ، فقال لها أبو الدّرداء : هل في بيتك مكان طاهر فنصلّي فيه ؟ فقالت : طهّرا قلوبكما ثمّ صلّيا أين أحببتما . فقال له سلمان : خذها من غير فقيه .

3 – قال عبد للّه بن عمر– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – : فلمّا أنزلت الزّكاة جعلها اللّه طهرًا للأموال .

4 – قال أبو العالية – يرحمه اللّه تعالى – في قوله تعالى : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) (التوبة / 108) : إنّ الطّهور بالماء لحسن ، ولكنّهم المطّهّرون من الذّنوب .

5– قال الأعمش – يرحمه اللّه تعالى – في قوله تعالى : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) : التّوبة من الذّنوب والتّطهّر من الشّرك .

6– قال ابن القيّم – يرحمه اللّه تعالى – : من تطهّر في الدّنيا ولقي اللّه طاهرًا من نجاساته دخل الجنّة بغير معوّق ، وأمّا من لم يتطهّر في الدّنيا فإن كانت نجاسته عينيّة كالكافر لم يدخلها بحال . وإن كانت نجاسته كسبيّة عارضة دخلها بعد ما يتطهّر في النّار من تلك النّجاسة ثمّ لم يخرج منها .

7– قال ابن القيّم – يرحمه اللّه تعالى – : جمع اللّه تعالى بين الزّكاة والطّهارة لتلازمهما كما في قوله تعالى : (خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها) (التوبة / 103) وذلك لأنّ نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرّديئة في البدن ، وبمنزلة الدّغل في الزّرع ، وبمنزلة الخبث في الذّهب والفضّة والنّحاس والحديد . فكما أنّ البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرّديئة تخلّصت القوّة الطبيعيّة منها فاستراحت ، فعملت عملها بلا معوّق ولا ممانع فنما البدن . فكذلك القلب إذا تخلّص من الذّنوب بالتّوبة ، فالمقصود أنّ زكاة القلب موقوفة على طهارته كما أنّ زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرّديئة .

من فوائد (الطهارة) :

(1) بها ينال العبد محبّة اللّه ورضاه .

(2) شرط لصحّة الصّلاة ، والطّواف ، ومسّ القرآن .

(3) الطّهارة عامّة في كلّ ما يتّصل بالمسلم من مسجده وثوبه وبيته وسوقه وغير ذلك .

(4) صحّة للأبدان وقوّة للأديان .

(5) الأخذ بالأيسر والأسهل والأوسط قدرًا ونوعًا سمة ظاهرة في الدّين ومنه باب الطّهارة .

(6) طهارة الباطن كطهارة الظّاهر فطهارة الوجدان كطهارة الأبدان بل أهمّ .

(7) عبادة لا يطّلع عليها إلّا اللّه فيستدلّ بها على صحّة الإيمان .

(8) إشاعة النّظافة في المجتمع تبعث في النّفس السّرور والانشراح .

(9) المجتمع النّظيف الطّاهر قليل خبثه الماديّ والمعنويّ .

(10) الطّهارة وسيلة هامّة من وسائل الوقاية من الأمراض ، ومن المعروف أنّ الوقاية خير من العلاج .

4 – المتقون

قَالَ تَعَالَى : (فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (آل عمران / 76)

التقوى لغة :

هي الاسم من قولهم اتّقى والمصدر الاتّقاء وكلاهما مأخوذ من مادّة (و ق ى) الّتي تدلّ على دفع شيء عن شيء بغيره ، والثّلاثيّ من هذه المادّة (وقى) يقال : وقيت الشّيء أقيه وقيًا ، والوقاية ما يقي الشّيء ، والاتّقاء اتّخاذ الوقاية وهو بمعنى التّوقّي ، يقال : توقّيت الشّيء واتّقيته بمعنى ، ومعنى قولهم : اتّق اللّه : توقّه أي اجعل بينك وبينه كالوقاية ، وقول النّبيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ) (خ / 1417) .

كأنّه أراد اجعلوها

(أي شقّ التّمرة) وقاية بينكم وبينها (النّار) .

وقال الرّاغب ما خلاصته : الوقاية : حفظ الشّيء ممّا يؤذيه ويضرّه وهي بهذا المعنى مصدر مثل الوقاء ، يقال : وقيت الشّيء أقيه وقاية ووقاء ، وعلى ذلك قوله – عزّ وجلّ – : – (وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) (الدخان / 56) والتّقوى جعل النّفس في وقاية ممّا يخاف ، هذا تحقيقه ، ثمّ يسمّى الخوف تارة تقوى ، والتّقوى خوفًا ، حسب تسمية مقتضى الشّيء بمقتضيه ، والمقتضي للشّيء بمقتضاه ، ويقال : اتّقى فلان بكذا : إذا جعله وقاية لنفسه ، وعلى ذلك قوله سبحانه : (أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ) (الزمر / 24) وفيه تنبيه على شدّة ما ينالهم ، وأنّ أجدر شيء يتّقون به من العذاب يوم القيامة هو وجوههم .

قال الجوهريّ : التّقوى والتّقى واحد والتّقيّ : المتّقي . وقد قالوا : ما أتّقاه للّه . وقال الشاعر :

ومن يتّق فإنّ اللّه معه ... ورزق اللّه مؤتاب وغادي

قال ابن منظور : وفي التّنزيل العزيز : – (وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ) (محمد / 17) أي جزاء تقواهم . وقيل معناه : ألهمهم تقواهم . وقوله تعالى: (هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) (المدثر / 56) ، أي هو أهل أن يتّقى عقابه ، وأهل أن يعمل بما يؤدّي إلى مغفرته . قال أبو بكر : رجل تقيّ ويجمع أتقياء ، معناه أنّه موقّ نفسه من العذاب والمعاصي بالعمل الصّالح ، وأصله من وقيت نفسي أقيها .

التقوى اصطلاحا :

قال الرّاغب : التّقوى في تعارف الشّرع : حفظ النّفس عمّا يؤثم وذلك بترك المحظور ، ويتمّ ذلك بترك بعض المباحات ، لما روي : " الحلال بيّن والحرام بيّن ، ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه " ، وقال الجرجانيّ : التّقوى في الطّاعة يراد بها الإخلاص وفي المعصية يراد بها التّرك والحذر ، وقيل هي : الاحتراز بطاعة اللّه عن عقوبته وصيانة النّفس عمّا تستحقّ به العقوبة من فعل أو ترك ، وقيل : هي المحافظة على آداب الشّريعة ومجانبة كلّ ما يبعد المرء عن اللّه تعالى ، وقيل : هي ترك حظوظ النّفس ومباينة الهوى .

وقال الفيروزآباديّ : التّقوى البالغة الجامعة : اجتناب كلّ ما فيه ضرر وهو المعصية ، والفضول ، فعلى ذلك تنقسم إلى فرض ونفل .

وقيل : هي التّجنّب عن كلّ ما يؤثّم من فعل أو ترك . وقيل : هي امتثال أوامره تعالى واجتناب نواهيه ، بفعل كلّ مأمور به وترك كلّ منهيّ عنه حسب الطّاقة . قال الحليميّ : حقيقة التّقوى فعل المأمور به والمندوب إليه واجتناب المنهيّ عنه والمكروه المنزّه عنه لأنّ المراد من التّقوى وقاية العبد نفسه من النّار وهو إنّما يقي نفسه من النّار بما ذكرت .

ما ورد في تفسير الآية :

– قال محمد بن جرير ، أبو جعفر الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن (525/6) :

(الله يحبّ المتقين) ، يعني : فإن الله يحب الذين يتقونه فيخافون عقابه ويحذرون عذابه ، فيجتنبون ما نهاهم عنه وحرّمه عليهم ، ويطيعونه فيما أمرهم به .

– و جاء في كتاب : بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية (287/2) :

قَالَ الْغَزَالِيُّ : فِي مِنْهَاجِ الْعَابِدِينَ : التَّقْوَى كَنْزٌ عَزِيزٌ وَجَوْهَرٌ نَفِيسٌ وَخَيْرٌ كَثِيرٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَفَوْزٌ كَبِيرٌ وَغُنْمٌ جَسِيمٌ وَمِلْكٌ عَظِيمٌ فَجَمِيعُ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَحْتَ هَذِهِ الْخَصْلَةِ الْوَاحِدَةِ أَيْ التَّقْوَى وَتَأَمَّلْ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِهَا مِنْ تَعْلِيقِ الْخَيْرِ وَالثَّوَابِ وَعَدَّ مِنْهَا اثْنَيْ عَشَرَ :

أَوَّلُهَا : الْمِدْحَةُ وَالثَّنَاءُ (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) (آل عمران / 186) .

ثَانِيهَا : الْحِفْظُ وَالْحِرَاسَةُ مِنْ الْأَعْدَاءِ (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا) (آل عمران / 120) .

ثَالِثُهَا : التَّأْيِيدُ وَالنُّصْرَةُ (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا) (النحل / 128) (وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (البقرة / 194) .

رَابِعُهَا : النَّجَاةُ مِنْ الشَّدَائِدِ وَالرِّزْقُ مِنْ الْحَلَالِ (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبْ) (الطلاق / 3) .

خَامِسُهَا : إصْلَاحُ الْعَمَلِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) (الأحزاب / 70 ، 71) .

سَادِسُهَا : غُفْرَانُ الذُّنُوبِ (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) (الصف / 12) .

سَابِعُهَا : مَحَبَّةُ اللَّهِ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (التوبة / 4 ، 7) .

ثَامِنُهَا : الْقَبُولُ (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ) (المائدة / 27) .

تَاسِعُهَا : الْإِكْرَامُ وَالْإِعْزَازُ (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات / 13) .

عَاشِرُهَا : الْبِشَارَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) (يونس / 63 ، 64) .

الْحَادِيَ عَشَرَ : النَّجَاةُ مِنْ النَّارِ (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا) (مريم / 72) (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى) (الليل / 17).

الثَّانِيَ عَشَرَ : الْخُلُودُ فِي الْجَنَّةِ (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران / 133) فَهَذِهِ وَكُلُّ خَيْرٍ وَسَعَادَةٍ فِي الدَّارَيْنِ تَحْتَ هَذِهِ التَّقْوَى فَلَا تَنْسَ نَصِيبَك مِنْهَا ثُمَّ قَالَ فَعَلَيْك بِهَذِهِ التَّقْوَى إنْ أَرَدْت سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْعُقْبَى وَلَقَدْ

صَدَقَ الْقَائِلُ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ فَذَاكَ الَّذِي سِيقَ إِلَيْهِ الْمَتْجَرُ الرَّابِحُ وَكُتِبَ عَلَى بَعْضِ الْقُبُورِ لَيْسَ زَادٌ سِوَى التُّقَى فَخُذِي مِنْهُ أَوْ دَعِي ، وَبَلَغَنِي أَنَّ عَامِرًا بَكَى عِنْدَ مَوْتِهِ ، وَكَانَ يُصَلِّي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَلْفَ رَكْعَةٍ ، ثُمَّ يَأْتِي إِلَى فِرَاشِهِ فَيَقُولُ لِنَفْسِهِ أَيَا مَأْوَى كُلِّ شَرٍّ وَاَللَّهِ مَا رَضِيتُك لِلَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ فَقِيلَ لَهُ : مَا يُبْكِيك ؟ فَقَالَ : قَوْله تَعَالَى : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ) (المائدة / 27) .

ثُمَّ تَأَمَّلْ نُكْتَةً أُخْرَى هِيَ أَصْلٌ لِلْأُصُولِ ، وَهِيَ أَنَّ بَعْضَهُمْ حِينَ اسْتَوْصَى مِنْ بَعْضِ أَشْيَاخِهِ قَالَ أُوصِيك بِوَصِيَّةِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ قَوْله تَعَالَى : (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ) (النساء / 131) .

قُلْت وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِصَلَاحِ الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ أَوْ لَيْسَ هُوَ أَرْحَمُ وَأَرْأَفُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَلَوْ كَانَ فِي الْعَالَمِ أَصْلَحُ وَأَجْمَعُ وَأَعْظَمُ وَأَجَلُّ وَأَنْجَحُ مِنْ التَّقْوَى لَأَمَرَ عِبَادَهُ بِهِ فَإِذَا أَوْصَى الْكُلَّ بِهَا فَهِيَ الْغَايَةُ فَجَمَعَ كُلَّ نُصْحٍ وَدَلَالَةٍ وَإِشَارَةٍ وَتَنْبِيهٍ وَتَأْدِيبٍ وَتَعْلِيمٍ وَتَهْذِيبٍ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ الْوَاحِدَةِ فَهِيَ الْكَافِيَةُ لِلْمُهِمَّاتِ وَالْمُبَلِّغَةُ إلَى أَعْلَى الدَّرَجَاتِ .

نضرة النعيم 4 / 1079 (التقوى) :

من معاني كلمة التقوى في القرآن :

ورد لفظ التّقوى في القرآن الكريم على خمسة أوجه :

1- الخوف والخشية كما في قوله تعالى: (يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) (الحج/ 1).

2- العبادة كما في قوله تعالى: (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) (النحل / 2) .

3- ترك المعصية كما في قوله تعالى : (وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (البقرة / 189) أي لا تعصوه .

4- التّوحيد كما في قوله تعالى : (أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى) (الحجرات / 3) أي للتّوحيد .

5- الإخلاص كما في قوله سبحانه : (ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) (الحج / 32) .

بين التقوى والورع :

التّقوى تقارب الورع إلّا أنّ بينهما فروقًا منها :

1- التّقوى أخذ عدّة ، والورع دفع شبهة .

2- التّقوى متحقّق السّبب ، والورع مظنون السّبب .

3- التّقوى احتراز عما يتّقيه الإنسان ويحصل به الحيلولة بينه وبين ما يكره ، والورع تجاف بالنّفس عن الانبساط فيما لا يؤمن عاقبته .

بشارات القرآن للمتقين :

بشّر القرآن الكريم المتّقين ببشارات عديدة منها :

العون والنّصرة ، والتّكريم ، والعلم والحكمة ، وتكفير الذّنوب وتعظيم الأجر ، والمغفرة ، واليسر والسّهولة في الأمر ، والخروج من الغمّ والمحنة ، ومنها الرّزق الواسع في الدّنيا ، والنّجاة من العقوبة في الآخرة ، ومنها التّوفيق والعصمة والفوز بالمراد ، وشهادة اللّه لهم بالصّدق ، ومحبّة اللّه وإكرامه ونيل الوصال وقبول الصّدقة والصّفاء وكمال العبوديّة ، ومنها المقام الأمين والجنّات والعيون والأمن من البليّة وعزّ الفوقيّة وزوال الحزن والخوف من العقوبة والزّوجات الحسان (الكواعب الأتراب) في الجنّة ، وأعظم من هذا كلّه القرب من الحضرة الإلهيّة عند الفوز بمقعد صدق عند مليك مقتدر .

أمر الله بالتقوى :

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (البقرة / 189) ، (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ) (البقرة / 197) .

جزاء و عاقبة و فضل المتقين :

(قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) (النساء / 77) (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (التوبة / 4) (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (التوبة / 36) (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ) (النور / 52) (وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (الزمر / 61) (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ) (الأعراف / 96) (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ) (الأعراف / 156) (وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) (الأعراف / 169) (وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ) (النحل / 30 ،31) (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ) (الرعد / 35) (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) (الحجر / 45) (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا) (مريم / 63) (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) (الشعراء / 90) (هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ) (ص / 49) (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) (الدخان / 51 ، 52) (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) (الجاثية / 19) (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (18) (الدخان 17 ، 18) (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ) (القمر 54) (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) (المرسلات 41 ، 42) (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازًا (31) حَدائِقَ وَأَعْنابًا (32) وَكَواعِبَ أَتْرابًا (33) وَكَأْسًا دِهاقًا (34) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْوًا وَلا كِذَّابًا (35) جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِسابًا (36) (النبأ / 31-36) .

أحاديث في (التقوى) :

1– عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَجُلاً جَاءَهُ فَقَالَ : أَوْصِنِي . فَقَالَ : سَأَلْتَ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ قَبْلِكَ فقال : " أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ ، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ ، فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلامِ ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلاَوَةِ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ ، وَذِكْرُكَ فِي الأَرْضِ ". (حم) . قال الشيخ الألباني : (حسن) انظر حديث رقم : 2543 في صحيح الجامع .

2 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ فَأَوْصِنِي ، قَالَ : " عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ " فَلَمَّا أَنْ وَلَّى الرَّجُلُ ، قَالَ : " اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ الأَرْضَ ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ " . قال الشيخ الألباني في (صحيح الترمذي) : حسن ، ابن ماجة (2771) .

3 – عَنْ سَمُرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ : " الحَسَبُ : الْمَالُ ، وَالكَرَمُ : التَّقْوَى " . قال الشيخ الألباني في (صحيح الترمذي) : صحيح ، الإرواء (1870) .

4– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ ، فَقَالَ :" تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ ، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ ، فَقَالَ : الفَمُ وَالفَرْجُ " . قال الشيخ الألباني في (صحيح الترمذي / 2004) : حسن الإسناد .

5 – عَنْ أَبِي ذَرٍّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ " . قال الشيخ الألباني في (صحيح الترمذي / 1987) : حسن ، المشكاة (5083) ، الروض النضير (855) .

6– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ ؟ قَالَ : " أَتْقَاهُمْ " فَقَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ ، قَالَ : " فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ " قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ ، قَالَ : " فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونَ ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقُهُوا " . (خ / 3353).

7 – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسعُود – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى " . (م / 7079) .

8– عن سعد بن أبي وقّاص– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ " . (م / 7621) .

أقوال في (التقوى) :

1– سأل رجل أبا هريرة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : ما التّقوى ؟ قال : " هل أخذت طريقًا ذا شوك ؟ " قال : نعم ، قال : " فكيف صنعت ؟ " . قال : إذا رأيت الشّوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه ، قال : " ذاك التّقوى " .

2– عن مالك بن أنس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : " بلغني أنّ رَجُلًا من بعض الفقهاء كتب إلى ابن الزّبير – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – يقول : ألا إنّ لأهل التّقوى علامات يعرفون بها ، ويعرفونها من أنفسهم ، من رضي بالقضاء ،

وصبر على البلاء ، وشكر على النّعماء ، وصدق في اللّسان ، ووفّى بالوعد والعهد ، وتلا لأحكام القرآن ، وإنّما الإمام سوق من الأسواق ، فإن كان من أهل الحقّ حمل إليه أهل الحقّ حقّهم ، وإن كان من أهل الباطل حمل إليه أهل الباطل باطلهم " .

3– قال أبو الدّرداء – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – . " تمام التّقوى أن يتّقي اللّهَ العبدُ حتّى يتّقيه من مثقال ذرّة وحتّى يترك بعض ما يرى أنّه حلال خشية أن يكون حرامًا يكون حجابًا بينه وبين الحرام " .

4– عن عمر بن الخطّاب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : " آخ الإخوان على قدر التّقوى ، ولا تجعل حديثك بذلة إلّا عند من يشتهيه ، ولا تضع حاجتك إلّا عند من يحبّ قضاءها " .

5– قال عمر بن عبد العزيز – يرحمه اللّه تعالى – : " التّقيّ ملجم لا يفعل كلّ ما يريد " .

6– قال طلق بن حبيب – يرحمه اللّه – :

" التّقوى العمل بطاعة اللّه على نور من اللّه ، رجاء رحمة اللّه ، والتّقوى ترك معاصي اللّه على نور من اللّه ، مخافة عذاب اللّه " .

7– قال الشّاعر :

ابل الرّجال إذا أردت إخاءهم ... وتوسّمنّ أمورهم وتفقّد

فإذا وجدت أخا الأمانة والتّقى ... فبه اليدين– قرير عين– فاشدد

ودع التّذلّل والتخشّع تبتغي ... قرب امرئ إن تدن منه تبعّد

من فوائد (التقوى) :

(1) معيّة اللّه تعالى للمتّقين .

(2) البشرى بالتّكريم للمتّقين .

(3) تكفير الذّنوب وتعظيم الأجر .

(4) الوعد بالمغفرة وزوال الخوف من النّفوس .

(5) اليسر والسّهولة في الأمر .

(6) في التّقوى تكفير للذّنوب وتعظيم للأجر من اللّه – سبحانه وتعالى – .

(7) العون والنّصرة من اللّه للمتّقين .

(8) الأمن من البليّة ونيل الوصال والقربة .

(9) عزّ الفوقيّة على سائر الخلق .

(10) الخروج من الهمّ والمحنة والوعد بالرّزق الواسع .

(11) النّجاة من العذاب والعقوبة .

(12) الفوز بالجنّة .

(13) التّوفيق والشّهادة لهم بالصّدق .

(14) محبّة اللّه للمتّقين .

5 – الصابرون

قَالَ تَعَالَى : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) (آل عمران / 146)

نضرة النعيم (الصبر 6 / 2441) :

الصبر لغة :

مصدر صبر يصبر وهو مأخوذ من مادّة (ص ب ر) الّتي تدلّ بحسب وضع اللّغة على معان ثلاثة : الأوّل الحبس ، والثّاني : أعالي الشّيء ، والثّالث : جنس من الحجارة ، وقد اشتقّ الصّبر المراد هنا من المعنى الأوّل وهو الحبس ، يقال : صبرت نفسي على ذلك الأمر أي حبستها ، والمصبورة المحبوسة على الموت ، ومن الباب ما ورد من نهيه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " أَنْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْرًا " . (م / 5175) .

وقال الرّاغب : الصّبر : الإمساك في ضيق ، يقال صبرت الدّابّة بمعنى حبستها بلا علف ، ويقال صبر فلان عند المصيبة صبرًا وصبّرته أنا حبسته . قال تعالى : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) (الكهف / 28) أي احبس نفسك معهم .

وقال عنترة يذكر حربًا كان فيها :

فصبرت عارفة لذلك حرّة ... ترسو إذا نفس الجبان تطلّع

يقول : حبست نفسًا صابرة .

وقيل : أصل الكلمة من الشّدّة والقوّة ، ومنه الصّبر للدّواء المعروف بشدّة مرارته وكراهته .

قال الأصمعيّ : إذا لقي الرّجل الشّدّة بكمالها قيل لقيها بأصبارها ، وقيل مأخوذ من الجمع والضّمّ ، فالصّابر يجمع نفسه ، ويضمّها عن الهلع .

والتّصبّر : تكلّف الصّبر . أمّا الصّبر الجميل في قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السّلام : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) (يوسف / 18) ، فالمراد به الصّبر الّذي لا جزع فيه ولا شكوى ، وقال ابن جريج عن مجاهد إنّ المعنى : لا أشكو ذلك لأحد .

وقال مجاهد أيضًا : الصّبر الجميل : الّذي لا جزع فيه ، وقال أبو حيّان : المعنى : أتجمّل لكم في صبري فلا أعاشركم على كآبة الوجه ، وعبوس الجبين ، بل على ما كنت عليه معكم (من قبل) وقال ابن تيميّة : الصّبر الجميل هو الّذي لا شكوى فيه ولا معه .

من معاني الصبر :

قال الفيروز آباديّ : وربّما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه ، فإن كان حبس النّفس لمصيبة سمّي صبرًا ، وإن كان في محاربة سمّي شجاعة ، وإن كان في إمساك الكلام سمّي كتمانًا ، وإن كان عن فضول العيش سمّي زهدًا ، وإن كان عن شهوة الفرج سمّي عفّة ، وإن كان عن شهوة طعام سمّي شرف نفس ، وإن كان عن إجابة داعي الغضب سمّي حلمًا .

قال ابن القيّم : والاسم الجامع لذلك كلّه (الصّبر) وهذا يدلّك على ارتباط مقامات الدّين كلّهابالصّبر .

معنى اسم اللّه الصبور :

قال ابن منظور في أسماء اللّه تعالى : الصّبور وهو الّذي لا يعاجل العصاة بالانتقام . وهو من أبنية المبالغة ، ومعناه قريب من معنى الحليم . والفرق بينهما أنّ المذنب لا يأمن العقوبة في صفة الصّبور كما يأمنها في صفة الحليم . قال أبو إسحاق : الصّبور في صفة اللّه – عزّ وجلّ – : الحليم . وفي الحديث : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لاَ أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ " . (م / 7258)أي أشدّ حلمًا على فاعل ذلك وترك المعاقبة عليه .

قال الزّجّاج : الصّبور فعول بمعنى فاعل ، ومعنى الصّبر والصّبور في اسم اللّه تعالى قريب من معنى الحليم .

وقال الغزاليّ : الصّبور هو الّذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه ، بل ينزّل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سنن محدود ، لا يؤخّرها عن آجالها المقدّرة لها ، ولا يقدّمها على أوقاتها ، بل يودع كلّ شيء في أوانه على الوجه الّذي يجب أن يكون كما ينبغي .

الصبر اصطلاحًا :

قال الرّاغب : هو حبس النّفس على ما يقتضيه العقل والشّرع أو عمّا يقتضيان حبسها عنه . وقال الجاحظ : الصّبر عن الشّدائد خلق مركّب من الوقار والشّجاعة . وقال المناويّ: الصّبر : قوّة مقاومة الأهوال والآلام الحسّيّة والعقليّة .

وقيل : هو حبس النّفس عن الجزع والتّسخّط ، وحبس اللّسان عن الشّكوى ، وحبس الجوارح عن التّشويش .

وقيل : هو ترك الشّكوى من ألم البلوى لغير اللّه إلّا إلى اللّه ؛ لأنّ اللّه تعالى أثنى على أيّوب – عليه السّلام – بالصّبر بقوله : (إِنَّا وَجَدْناهُ صابِرًا) (ص / 44) مع دعائه في دفع الضّرّ عنه بقوله : (وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (الأنبياء / 83) فعلم أنّ العبد إذا دعا اللّه تعالى في كشف الضّرّ عنه لا يقدح في صبره .

وقيل : هو خلق فاضل من أخلاق النّفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل ، وهو قوّة من قوى النّفس الّتي بها صلاح شأنها وقوام أمرها .

وقيل : هو الثّبات على أحكام الكتاب والسّنّة .

وقيل : هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

وقيل : هو الثّبات مع اللّه ، وتلقّي بلائه بالرّحب والسّعة .

وقيل : هو ثبات القلب عند موارد الاضطراب .

مراتب الصبر :

قال الفيروز آباديّ : مراتب الصّبر خمسة : صابر ومصطبر ، ومتصبّر ، وصبور ، وصبّار . فالصّابر أعمّها ، والمصطبر : المكتسب للصّبر ، المبتلى به ، والمتصبّر : متكلّف الصّبر حامل نفسه عليه ، والصّبور : العظيم

الصّبر الّذي صبره أشدّ من صبر غيره ، والصّبّار : الشّديد الصّبر فهذا في القدر والكمّ والّذي قبله في الوصف والكيف .

أنواع الصبر :

قال أبو عمر : سألت الحليميّ عن الصّبر ، قال :

ثلاثة أنواع : الصّبر على طاعة الجبّار ، والصّبر عن معاصي الجبّار ، والصّبر على الصّبر على طاعته وترك معصيته .

وقال ابن القيّم : الصّبر باعتبار متعلّقه ثلاثة أقسام : صبر الأوامر والطّاعات حتّى يؤدّيها ، وصبر عن المناهي والمخالفات حتّى لا يقع فيها ، وصبر على الأقدار والأقضية حتّى لا يتسخّطها .

وقال الفيروز آباديّ : الصّبر على ثلاثة أنواع :

(1) صبر باللّه ، (2) صبر مع اللّه ، (3) صبر للّه .

أهمية الصبر :

قال ابن تيميّة – يرحمه اللّه تعالى – : قد ذكر اللّه الصّبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعًا . وقرنه بالصّلاة في قوله تعالى : (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ) (البقرة / 45) ، وجعل الإمامة في الدّين موروثة عن الصّبر واليقين بقوله : (وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ) (السجدة / 24) . فإنّ الدّين كلّه علم بالحقّ وعمل به ، والعمل به لا بدّ فيه من الصّبر . بل وطلب علمه يحتاج إلى الصّبر . كما قال معاذ بن جبل – رضي اللّه عنه – : عليكم بالعلم فإن طلبه للّه عبادة ، ومعرفته خشية ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، ومذاكرته تسبيح ، به يعرف اللّه ويعبد ، وبه يمجّد اللّه ويوحّد ، يرفع اللّه بالعلم أقوامًا يجعلهم للنّاس قادة وأئمّة يهتدون بهم وينتمون إلى رأيهم .

فجعل البحث عن العلم من الجهاد ، ولا بدّ في الجهاد من الصّبر ، ولهذا قال تعالى : (وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ) (سورة العصر) ، وقال تعالى : (وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ) (ص / 45) .

فالعلم النّافع هو أصل الهدى ، والعمل بالحقّ هو الرّشاد ، وضدّ الأوّل الضّلال ، وضدّ الثّاني الغيّ .

فالضّلال العمل بغير علم ، والغيّ اتّباع الهوى ، قال تعالى : (وَالنَّجْمِ إِذا هَوى * ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى) (النجم / 1– 2) فلا ينال الهدى إلّا بالعلم ولا ينال الرّشاد إلّا بالصّبر . ولهذا قال عليّ : ألا إنّ الصّبر من الإيمان بمنزلة الرّأس من الجسد ، فإذا انقطع الرّأس بان الجسد ، ثمّ رفع صوته فقال ألا لا إيمان لمن لا صبر له .

المصابرة :

المصابرة مفاعلة – من الصّبر ، ويكثر استعمال هذه الصّيغة – كما يقول الصّرفيّون – في أحد أمرين ؛

المشاركة في الأمر كما في نحو قاتل فلان فلانًا أي أنّهما اشتركا معا في القتال ، الآخر : الموالاة والمتابعة في

الأمر كما في قول اللّه تعالى : (وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ) (الأعراف / 21) أي والى في القسم ، وعلى ذلك فإنّ المصابرة قد تعني :

1– المشاركة في الصّبر كأن يصبر الإنسان عن المعاصي ، ويصبر الشّيطان على الإغواء وحينئذ تكون الغلبة لأكثرهما صبرًا .

2– موالاة الصّبر ومتابعته سواء كان صبرًا عن المعاصي أو صبرًا على الطّاعات .

وكما أمرنا المولى عزّ وجلّ بالصّبر فقد أمرنا أيضًا بالمصابرة في قوله عزّ من قائل : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران / 200) .

فما معنى المصابرة الّتي أمرنا بها ؟

قال ابن القيّم – يرحمه اللّه تعالى – إجابة عن هذا التّساؤل : قيل في قوله تعالى : (اصْبِرُوا وَصابِرُوا ..) الآية ، أنّه انتقال من الأدنى إلى الأعلى ، فالصّبر دون المصابرة .

وقيل : اصبروا بنفوسكم على طاعة اللّه ، وصابروا بقلوبكم على البلوى في اللّه .

وقيل : اصبروا في اللّه ، وصابروا باللّه ، (أي أنّ الصّبر يكون في طاعة اللّه والمصابرة تكون في الاستعانة باللّه) .

وقيل : اصبروا على النّعماء ، وصابروا على البأساء والضّرّاء وقال – يرحمه اللّه تعالى – فالصّبر مع نفسك ، والمصابرة بينك وبين عدوّك .

وقال – يرحمه اللّه – في تفسير الآية الكريمة مؤكّدًا هذا المعنى الأخير : أمرهم بالصّبر ، وهو حال الصّابر في نفسه ، والمصابرة مقاومة الخصم في ميدان الصّبر ، فإنّها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين – كالمشاتمة والمضاربة – وهي إذن حال المؤمن في الصّبر مع خصمه ، أمّا المرابطة فهي الثّبات واللّزوم والإقامة على الصّبر والمصابرة ، فقد يصبر العبد ولا يصابر ، وقد يصابر ولا يرابط ، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبّد بالتّقوى ، فأخبر سبحانه أنّ ملاك ذلك كلّه : التّقوى ، وأنّ الفلاح موقوف عليها ، فقال : (وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (البقرة / 189) وهذا الّذي ذهب إليه ابن القيّم هو عين ما رجّحه الطّبريّ عند ما قال : وأولى التأويلات في ذلك قول من قال : اصبروا على دينكم وطاعة ربّكم ، وذلك أنّ اللّه لم يخصّص من معاني الصّبر على الدّين والطّاعة شيئًا فيجوز إخراجه من ظاهر التّنزيل ، ومن ثمّ يكون الأمر بالصّبر على جميع معاني طاعة اللّه فيما أمر ونهى صعبها وشديدها وسهلها وخفيفها ، أمّا المصابرة فيقصد بها مصابرة الأعداء من المشركين لأنّ المعروف من كلام العرب في المفاعلة أن تكون من فريقين أو اثنين فصاعدًا ، ولا تكون من واحد إلّا قليلا ، وإذا كان ذلك كذلك فإنّما أمر المؤمنون أن يصابروا غيرهم من أعدائهم وألّا يكون عدوّهم أصبر منهم .

وقال النّيسابوريّ : المراد بالصّبر جهاد النّفس بالرّياضات ، وبالمصابرة : مراقبة القلب عند الابتلاءات .

وقال القرطبيّ : المصابرة : في قول زيد بن أسلم : مصابرة الأعداء ، وقال الحسن : على الصّلوات الخمس ، وقيل : إدامة مخالفة النّفس عن شهواتها فهي تدعو وهي تنزع ، وقال عطاء والقرظيّ (محمّد بن كعب) :

صابروا الوعد الّذي وعدتم ، أي لا تيأسوا وانتظروا الفرج .

قال القرطبيّ – يرحمه اللّه تعالى – والقول الأوّل (أي قول زيد بن أسلم) هو رأي الجمهور ، ومثله قول عنترة:

فلم أر حيّا صابروا مثل صبرنا ... ولا كافحوا مثل الّذين نكافح

أي صابروا العدوّ في الحرب ، ولم يبد منهم جبن ولا خور .

وقال أبو حيّان : أمر اللّه تعالى بالصّبر والمصابرة والرّباط ، فقيل اصبروا وصابروا بمعنى واحد للتّوكيد ، ثمّ ذكر الآراء الأخرى الّتي ذكرها القرطبيّ ، وذكر ابن كثير – يرحمه اللّه تعالى – أنّ الصّبر على الصّلوات ، والمصابرة على النّفس والهوى .

قلت : ولا تنافي بين هذه الأقوال جميعًا لأنّ الصّيغة تحتملها معًا ، وقد قرّر علماء الأصول أنّ المعاني المحتملة (للّفظ أو الصّيغة) مرادة للّه تعالى .

من مظاهر المصابرة :

ذكر ابن القيّم وغيره للمصابرة صورًا عديدة ، وأشكالا متنوّعة ، ذكرناها فيما سبق ، ونضيف إليها :

1– المثابرة في إنجاز الأعمال والمواظبة عليها ، طالما أنّ هذا العمل في طاعة اللّه تعالى ، وفي هذا يلتقي معنى الاصطبار مع المصابرة ، قال تعالى : (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ) (مريم / 65) ، وقال تعالى : (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها) (طه / 132) .

2– متابعة الأعمال وعدم اليأس من إنجازها لما في هذا من إدامة للصّبر عليها ، وانتظار للفرج الموعود في قوله تعالى : (إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) (الكهف / 30) .

الصبر على الابتلاء :

الابتلاء في اللّغة مصدر قولهم : ابتلى اللّه العبد ابتلاء إذا اختبره في صبره وشكره .

أمّا في الاصطلاح فقد قال الكفويّ : الابتلاء في الأصل هو التّكليف بالأمر الشّاقّ لكنّه لمّا استلزم الاختبار إلى من يجهل العواقب ظنّ ترادفهما ، وقال المناويّ : البلاء كالبليّة : الامتحان ، وسمّي الغمّ بلاء لأنّه يبلي الجسم . وقال بعض الباحثين المحدثين : الابتلاء هو المظهر العمليّ لعلاقة العبوديّة بين اللّه والإنسان ، ومعنى هذه العلاقة كمال الطّاعة لكمال المحبّة ، والحياة الدّنيا هي الزّمن المقرّر لهذا الابتلاء ، قال تعالى : (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ) (الملك / 2) . وينقسم الابتلاء إلى قسمين :

الأوّل : الابتلاء بالشّرّ ، وهو مناط الصّبر .

الثّاني : الابتلاء بالخير ، وهو مناط الشّكر .

وفيما يتعلّق بالنّوع الأوّل ، فإنّه يشمل الابتلاء بالمحن والكوارث ونقص الأموال والأنفس والثّمرات مصداقًا لقوله تعالى : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ) (البقرة/ 155) ، وهنا يكون الصّبر والرّضا هما المقياس الحقيقيّ للإيمان الصّادق .

ضرورة الابتلاء بالشّرّ :

قال ابن القيّم – يرحمه اللّه – : سأل رجل الشّافعيّ يرحمه اللّه – فقال : يا أبا عبد اللّه ، أيّهما أفضل للرّجل أن يمكّن (فيشكر اللّه عزّ وجلّ) أو يبتلى (بالشّرّ فيصبر) ؟

فقال الشّافعيّ : لا يمكّن حتّى يبتلى ، فإنّ اللّه ابتلى نوحًا وإبراهيم ومحمّدًا – صلوات اللّه عليهم أجمعين – فلمّا صبروا مكّنهم ، فلا يظنّ أحد أن يخلص من الألم البتّة .

الصبر والمصابرة في القرآن الكريم :

ورد الصّبر في القرآن الكريم في سياقات عديدة منها :

1– الثّناء على أهله كقوله : (وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ) (البقرة / 177) .

2– الاستجابة لأمر اللّه تعالى بالصّبر وإيجاب معيّته لهم تلك المعيّة الّتي تتضمّن حفظهم لقوله تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (البقرة / 153) ، وقوله تعالى : (وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (الأنفال / 46) .

3– الإخبار أنّ أهل الصّبر مع أهل العزائم (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ) (الشورى / 43) .

4– يورث صاحبه الإمامة (وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا) (السّجدة / 24) .

5– اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان .

6– إطلاق البشرى لأهل الصّبر على الابتلاء بمصائب الحياة الدّنيا ومصاعبها بأنّ جزاءهم على صبرهم هو الحصول على صلوات من ربّهم ورحمة وهداية إلى الصّراط المستقيم بإذن اللّه كقوله تعالى : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (البقرة / 155– 157) .

7– إنّ الصّابرين بأنفسهم على طاعة اللّه والتّكاليف المنوطة بهم والتّقوى ومجاهدة النّفس ونهيها عن الهوى وتزكيتها ومحاسبتها ومراقبتها عند الابتلاءات جزاؤهم أن يوفّى لهم أجورهم بغير حساب لقوله تعالى : (أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِدًا وَقائِمًا ...) (الزمر / 9– 10) ، وأولئك الصّابرين لهم عقبى الدّار ، لقوله تعالى : (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ...) (الرعد 22– 24) .

أمر الله بالصبر :

1 – (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ) (البقرة / 45) .

2 – (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران / 200) .

3 – (وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) (النحل / 126) .

4 – (وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) (النحل / 127) .

فضل و عاقبة الصابرين :

(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (البقرة / 249) (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) (آل عمران / 146) .

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ (156) أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) (157) (البقرة) .

– (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (يوسف / 90) .

– (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل / 96) .

– (إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ) (الزمر / 10) .

أحاديث في الصبر :

1 – عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا عِنْدَهُ قَالَ : " مَا يَكُنْ عِنْدِى مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ ، وَمَا أُعْطِىَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ " . (م / 2471) .

2 – عَنْ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاحٍ قَالَ : قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ : أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ قُلْتُ : بَلَى ، قَالَ : هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ ، أَتَتِ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَتْ : إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ لِي ، قَالَ : " إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ " فَقَالَتْ : أَصْبِرُ ، فَقَالَتْ : إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ ، " فَدَعَا لَهَا " (خ / 5652) .

3 – عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " إِذَا أَحَبَّ اللهُ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ " . قال الشيخ الألباني في (صحيح الترغيب / 3406) .

4 – عَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – : " الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ ، وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ " .

قال الشيخ الألباني في (صحيح ابن ماجة / 4032) : صحيح ، المشكاة (5087) ، الصحيحة (939).

أقوال في الصبر :

1– عن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : وجدنا خير عيشنا الصّبر .

2– قال عليّ بن أبي طالب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : الصّبر مطيّة لا تكبو .

3– عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – : أنّ ثلاثة نفر جاءوه فقالوا : يا أبا محمّد إنّا واللّه ! ما نقدر على شيء : لا نفقة ولا دابّة ولا متاع . فقال لهم : ما شئتم ، إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يسّر اللّه لكم ، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسّلطان ، وإن شئتم صبرتم .

4– عن عبد اللّه بن مسعود – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أنّه قال : الصّبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كلّه .

5- قال سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز عند ما مات ولد سليمان : أيصبر المؤمن حتّى لا يجد لمصيبته ألمًا ؟ قال يا أمير المؤمنين : لا يستوي عندك ما تحبّ وما تكره ، ولكنّ الصّبر معوّل المؤمن .

6 – قيل لربيعة بن عبد الرّحمن : ما منتهى الصّبر ؟ قال : يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه .

7- وقال أبو عليّ الدّقّاق : فاز الصّابرون بعزّ الدّارين . لأنّهم نالوا من اللّه معيّته فإنّ اللّه مع الصّابرين .

8- وقيل : الصّبر للّه غناء ، وباللّه تعالى بقاء ، وفي اللّه بلاء ، ومع اللّه وفاء ، وعن اللّه جفاء ، والصّبر على الطّلب عنوان الظّفر وفي المحن عنوان الفرج .

قال ابن تيمية : ذكر اللّه تعالى في كتابه : الصّبر الجميل ، والصّفح الجميل ، والهجر الجميل .

الصّبر الجميل : هو الّذي لا شكوى فيه ولا معه ، والصّفح الجميل : هو الّذي لا عتاب معه ، والهجر الجميل : هو الّذي لا أذى معه .

9- قال ذو النّون : الصّبر : التّباعد من المخالفات ، والسّكون عند تجرّع غصص البليّات ، وإظهار الغنى مع طول الفقر بساحات المعيشة .

10- قال الفيروز آباديّ : قيل : الصّبر : الوقوف مع البلاء بحسن الأدب ، وقيل : هو الفناء في البلوى ، بلا ظهور شكوى ، وقيل : إلزام النّفس الهجوم على المكاره ، وقيل : المقام مع البلاء بحسن الصّحبة ، كالمقام مع العافية .

11- وقيل الصّبر : هو الاستعانة باللّه ، وقيل هو ترك الشّكوى ، وقيل :

الصّبر مثل اسمه مرّ مذاقته ... لكن عواقبه أحلى من العسل .

12- قال الحريريّ : الصّبر ألّا تفرّق بين حال النّعمة وحال المحنة مع سكون الخاطر فيهما ، والتّصبّر : السّكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحنة .

13- قال الثوريّ عن بعض أصحابه :

ثلاث من الصّبر : ألّا تحدّث بوجعك ، ولا بمصيبتك ، ولا تزكّي نفسك .

من فوائد (الصبر والمصابرة) :

(1) ضبط النّفس عن السّأم والملل ، لدى القيام بأعمال تتطلّب الدّأب والمثابرة خلال مدّة مناسبة ، قد يراها المستعجل مدّة طويلة .

(2) ضبط النّفس عن العجلة والرّعونة ، لدى تحقيق مطلب من المطالب المادّيّة أو المعنويّة .

(3) ضبط النّفس عن الغضب والطّيش ، لدى مثيرات عوامل الغضب في النّفس ، ومحرّضات الإرادة للاندفاع بطيش لا حكمة فيه ولا اتّزان في القول أو في العمل .

(4) ضبط النّفس عن الخوف لدى مثيرات الخوف في النّفس .

(5) ضبط النّفس عن الطّمع لدى مثيرات الطّمع فيها .

(6) ضبط النّفس عن الاندفاع وراء أهوائها وشهواتها وغرائزها .

(7) ضبط النّفس لتحمّل المتاعب والمشقّات والآلام الجسديّة والنّفسيّة ، كلّما كان في هذا التّحمّل خير عاجل أو آجل .

(8) دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام .

(9) يورث هداية في القلب .

(10) يثمر محبّة اللّه ومحبّة النّاس .

(11) سبب للتّمكين في الأرض .

(12) الفوز بالجنّة والنّجاة من النّار .

(13) معيّة اللّه للصّابرين .

(14) الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة .

(15) مظهر من مظاهر الرّجولة الحقّة وعلامة على حسن الخاتمة .

(16) صلاة اللّه ورحمته وبركاته على الصّابرين .

قال محمد بن محمد الخادمي في كتابه : بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية (4 / 173) :

(الصَّبْرُ ، وَهُوَ حَبْسُ النَّفْسِ عَنْ الْجَزَعِ) قِيلَ الصَّبْرُ ثَبَاتُ الْقُوَّةِ الْمُضَادَّةِ لِلشَّهْوَةِ فِي مُقَاوَمَةِ الشَّهْوَةِ وَتَفْصِيلُهُ أَنَّ لِلْبَهَائِمِ شَهْوَةً بِلَا عَقْلٍ ؛ وَلِلْمَلَائِكَةِ عَقْلًا بِلَا شَهْوَةٍ ؛ وَلِلْإِنْسَانِ كِلَاهُمَا مَعًا وَالصَّبْرُ مُقَاوَمَةُ الْعَقْلِ الشَّهْوَةَ فَهُوَ مَخْصُوصٌ بِالْإِنْسَانِ دُونَ الْبَهَائِمِ لِنُقْصَانِهِمْ وَدُونَ الْمَلَائِكَةِ لِكَمَالِهِمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (إنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) فَلَيْسَ لَهُمْ مِيزَانٌ كَمَا لَيْسَ لَهُمْ حِسَابٌ لِعَدَمِ دُخُولِ الصَّبْرِ تَحْتَ إحْصَاءِ عَدَدٍ

وَفِي الْقُشَيْرِيَّةِ قِيلَ حُبِسَ الشِّبْلِيُّ وَقْتًا فَدَخَلَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ فَقَالَ مَنْ أَنْتُمْ قَالُوا أَحِبَّاؤُك جَاءُوك زَائِرِينَ فَأَخَذَ يَرْمِيهِمْ بِالْحِجَارَةِ ، وَأَخَذُوا يَهْرُبُونَ فَقَالَ يَا كَذَّابُونَ لَوْ كُنْتُمْ أَحِبَّائِي لَصَبَرْتُمْ عَلَى بَلَائِي .

وَوَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّك فَإِنَّك بِأَعْيُنِنَا) ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كُنْت بِمَكَّةَ فَرَأَيْت فَقِيرًا طَافَ بِالْبَيْتِ ، وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ رُقْعَةً وَنَظَرَ فِيهَا وَمَزَّ فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فَتَرَقَّبْته أَيَّامًا وَهُوَ يَفْعَلُ مِثْلَهُ فَيَوْمًا مِنْ الْأَيَّامِ طَافَ وَنَظَرَ فِي الرُّقْعَةِ وَتَبَاعَدَ قَلِيلًا وَسَقَطَ مَيِّتًا فَأَخْرَجْنَا الرُّقْعَةَ مِنْ جَيْبِهِ فَإِذَا فِيهَا – (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّك فَإِنَّك بِأَعْيُنِنَا) ؛ وَلِمِثْلِ ذَلِكَ الْفَضْلِ كُلِّهِ قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ : الْمُصِيبَةُ وَاحِدَةٌ فَإِذَا جَزَعَ صَاحِبُهَا تَكُونُ ثِنْتَيْنِ إحْدَاهُمَا الْمُصِيبَةُ وَثَانِيَتُهُمَا ذَهَابُ أَجْرِ الْمُصِيبَةِ بَلْ الْمُصِيبَةُ هِيَ هَذَا لَا نَفْسُ الْمُصِيبَةِ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ مَرَّ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ فَقَالَ : " اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي " قَالَتْ : إلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي ، وَلَمْ تَعْرِفْهُ ، فَقِيلَ لَهَا : إنَّهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ ، فَقَالَتْ : لَمْ أَعْرِفْكَ ، فَقَالَ : " إنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى " . (خ / 31)

" الصَّبْرُ " أَيْ الْكَامِلُ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْأَجْرُ الْجَزِيلُ " عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى " إذْ بَعْدَ ذَلِكَ يَهُونُ الْأَمْرُ وَتَنْكَسِرُ حِدَّةُ الْمُصِيبَةِ فَإِنَّ مُفَاجَأَةَ الْمُصِيبَةِ بَغْتَةً بِهَا رَوْعَةٌ تُزْعِجُ الْقَلْبَ (وَالصَّبْرُ أَصْلُ كُلِّ عِبَادَةٍ) قَالَ فِي

الْمِنْهَاجِ فَإِنَّ مَبْنَى أَمْرِ الْعِبَادَةِ كُلِّهِ عَلَى الصَّبْرِ وَاحْتِمَالِ الْأَذَى فَمَنْ لَمْ يَكُنْ صَبُورًا لَمْ يَصِلْ إلَى شَيْءٍ مِنْهَا بِالْحَقِيقَةِ ؛ لِأَنَّ مَنْ قَصَدَ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَجَرَّدَ لَهَا اسْتَقْبَلَتْهُ الشَّدَائِدُ وَالْمَصَائِبُ مِنْ وُجُوهٍ أَوَّلُهَا لَا عِبَادَةَ إلَّا بِقَمْعِ الْهَوَى ، وَقَهْرِ النَّفْسِ ، وَلَا أَشَدَّ عَلَى النَّفْسِ مِنْ ذَلِكَ وَثَانِيهَا حِفْظُ عَمَلِهِ عَمَّا يُفْسِدُهُ وَاتِّقَاءُ الْعَمَلِ أَشَدُّ مِنْ الْعَمَلِ وَثَالِثُهَا مَنْ كَانَ فِي دَارِ الْمِحْنَةِ لَا يَنْفَكُّ عَنْ الْمُصِيبَةِ نَفْسًا ، وَأَوْلَادًا أَوْ أَقْرِبَاءَ ، وَعِرْضًا وَغَيْرَهَا فَكُلُّهَا تُوجِبُ الصَّبْرَ ، وَإِلَّا فَالْجَزَعُ يَمْنَعُ الْعِبَادَةَ وَرَابِعُهَا كُلَّمَا ازْدَادَ الْقُرْبَةَ إلَى اللَّهِ تَعَالَى فَالْمَصَائِبُ لَهُ أَكْثَرُ وَالْبَلَاءُ عَلَيْهِ أَشَدُّ كَقَوْلِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – : " أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ " فَإِذَنْ مَنْ تَجَرَّدَ لِلْعِبَادَةِ تَكْثُرُ عَلَيْهِ الْمِحَنُ ثُمَّ قَالَ فِي الصَّبْرِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : أَوَّلُهَا كَالنَّجَاةِ وَالنَّجَاحِ – (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) (الطلاق / 2) – الْآيَةَ أَيْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ بِالصَّبْرِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ الشَّدَائِدِ .

وَثَانِيهَا : وَكَالظَّفَرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ (فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (هود / 49) .

وَثَالِثُهَا : وَكَالظَّفَرِ بِالْمُرَادِ (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّك الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا) (الأعراف / 137) .

وَرَابِعُهَا : وَكَالتَّقَدُّمِ عَلَى النَّاسِ وَالْإِمَامَةِ (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا) (الأنبياء / 73) .

وَخَامِسُهَا : وَكَالثَّنَاءِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى (إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ) (ص / 44) .

وَسَادِسُهَا : وَكَالْبِشَارَةِ وَالصَّلَاةِ وَالرَّحْمَةِ (وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ) إلَى قَوْله تَعَالَى : (هُمْ الْمُهْتَدُونَ) (البقرة /157).

وَسَابِعُهَا : وَكَمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى (وَاَللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) (آل عمران /146) .

وَثَامِنُهَا : وَكَالدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الْجَنَّةِ – (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا) (الفرقان / 75) .

وَتَاسِعُهَا : وَكَالتَّكْرِمَةِ الْعَظِيمَةِ – (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ) (الرعد / 24) .

وَعَاشِرُهَا : وَكَالثَّوَابِ الْغَيْرِ الْمُتَنَاهِي – (إنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الزمر / 10) – فَكُلُّ ذَلِكَ عَلَى صَبْرِ سَاعَةٍ ؛ وَلِذَا قَالَ – صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنْ الصَّبْرِ " (خ / 1469) ، وَقَالَ عُمَرُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : جَمِيعُ خَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ .

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ : الصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرْجَى وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُونُ اصْبِرْ وَإِنْ طَالَتْ اللَّيَالِي فَرُبَّمَا أَمْكَنَ الْحَرُونُ وَرُبَّمَا نِيلَ بِاصْطِبَارٍ مَا قِيلَ هَيْهَاتَ لَا يَكُونُ ثُمَّ قَالَ فَعَلَيْك بِاغْتِنَامِ هَذِهِ الْخَصْلَةِ الشَّرِيفَةِ وَبَذْلِ الْمَجْهُودِ فِيهَا تَكُنْ مِنْ الْفَائِزِينَ .

وَ الصَّبْرُ أَيْضًا أَصْلُ كُلِّ (كَفٍّ عَنْ مَعْصِيَةٍ) ؛ لِأَنَّ كُلَّ عِبَادَةٍ لَا تَكُونُ بِلَا صَبْرٍ عَلَى تَعَبِهَا ، وَلَا يَحْتَرِزُ الْعَبْدُ مِنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ إلَّا بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا خَوْفًا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمًا لَهُ قِيلَ الصَّبْرُ ثَلَاثَةٌ :

أَوَّلُهَا : أَنْ تَقْهَرَ دَوَاعِيَ الْهَوَى فَلَا يَبْقَى لَهُ قُوَّةُ الْمُنَازَعَةِ هَذَا لِلْمُقَرَّبِينَ .

وَثَانِيهَا : أَنْ تَغْلِبَ دَوَاعِي الْهَوَى وَيَسْقُطَ بِالْكُلِّيَّةِ مُنَازَعَةُ بَاعِثِ الدِّينِ فَسَلَّمَ نَفْسَهُ إلَى جُنْدِ الشَّيْطَانِ ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْغَافِلُونَ ، وَهُمْ الَّذِينَ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ شِقْوَتُهُمْ وَاسْتَرَقَّتْهُمْ شَهَوَاتُهُمْ ، وَعَلَامَتُهَا الْقُنُوطُ وَالْغُرُورُ بِالْأَمَانِيِّ ، وَهُوَ غَايَةُ الْحُمْقِ .

وَثَالِثُهَا : أَنْ تَكُونَ الْحَرْبُ سِجَالًا بَيْنَ الْجُنْدَيْنِ فَتَارَةً لَهُ الْيَدُ عَلَيْهَا وَتَارَةً لَهَا عَلَيْهِ ، وَهَذَا مِنْ الْمُجَاهِدِينَ لَا مِنْ الْفَائِزِينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا .

(تَتِمَّةٌ) : قَالَ الْفَاضِلُ الْمُنَاوِيُّ فِي شَرْحِ حَدِيثِ : " إذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ " لِيَسْمَعَ تَضَرُّعَهُ أَيْ تَذَلُّلَهُ وَمُبَالَغَتَهُ فِي السُّؤَالِ " فَإِذَا دَعَا قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ صَوْتٌ مَعْرُوفٌ وَقَالَ جِبْرِيلُ يَا رَبِّ اقْضِ حَاجَتَهُ فَيَقُولُ دَعُوا عَبْدِي فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ " قَالَ الْغَزَالِيُّ ؛ وَلِهَذَا الْمَعْنَى تَرَاهُ يُكْثِرُ ابْتِلَاءَ أَوْلِيَائِهِ ، وَأَصْفِيَائِهِ الَّذِينَ هُمْ أَعَزُّ عِبَادِهِ ، وَإِذَا رَأَيْت اللَّهَ يَحْبِسُ عَنْك الدُّنْيَا وَيُكْثِرُ عَلَيْك الشَّدَائِدَ وَالْبَلْوَى فَاعْلَمْ أَنَّك عَزِيزٌ عِنْدَهُ ، وَأَنَّك عِنْدَهُ بِمَكَانٍ ، وَأَنَّهُ لَيَسْلُكُ بِك طَرِيقَ أَوْلِيَائِهِ أَمَا تَسْمَعُ قَوْله تَعَالَى – : (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّك فَإِنَّك بِأَعْيُنِنَا) – بَلْ اعْرِفْ مِنَّتَهُ عَلَيْك فِيمَا يَحْفَظُ عَلَيْك مِنْ صَلَوَاتِك وَيُكْثِرُ مِنْ أُجُورِك وَثَوَابِك وَيُنْزِلُك مَنْزِلَ الْأَبْرَارِ .

(تَنْبِيهٌ) : قَالَ الْعَارِفُ الْجِيلَانِيُّ : التَّلَذُّذُ بِالْبَلَاءِ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَارِفِينَ لَكِنْ لَا يُعْطِيهِ اللَّهُ لِعَبْدٍ إلَّا بَعْدَ بَذْلِهِ جَهْدَهُ فِي مَرْضَاتِهِ فَإِنَّ الْبَلَاءَ تَارَةً بِمُقَابَلَةِ جَرِيمَةٍ وَتَارَةً تَكْفِيرٌ وَتَارَةً رَفْعٌ لِلدَّرَجَاتِ وَتَبْلِيغُ الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ ؛ وَلِكُلٍّ مِنْهَا عَلَامَةٌ فَعَلَامَةُ الْأَوَّلِ عَدَمُ الصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ ، وَكَثْرَةُ الْجَزَعِ وَالشَّكْوَى لِلْخَلْقِ ، وَعَلَامَةُ الثَّانِي الصَّبْرُ ، وَعَدَمُ الشَّكْوَى وَخِفَّةُ الطَّاعَاتِ عَلَى بَدَنِهِ ، وَعَلَامَةُ الثَّالِثِ الرِّضَا وَالطُّمَأْنِينَةُ وَخِفَّةُ الْعَمَلِ عَلَى الْبَدَنِ وَالْقَلْبِ . ا هـ .

وَيَدُورُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ – صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبِهَذَا الإِسْنَادِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ " .

قال الشيخ الألباني في (صحيح الترمذي / 2396) : (حديث : " إذا أراد الله ... ") حسن صحيح ، (حديث : " إن عظم الجزاء .. ") حسن (حديث : " إذا أراد الله .. ") ، الصحيحة (1220) ، المشكاة (1565) ، (حديث : " إن عظم الجزاء ... ") ، ابن ماجة (4031) .

6 – المتوكلون

قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران / 159)

نضرة النعيم (التوكل4 /1377) :

التوكل لغة :

التّوكّل مصدر توكّل يتوكّل وهو مأخوذ من مادّة (و ك ل) الّتي تدلّ على اعتماد على الغير في أمر ما ، ومن ذلك التّوكّل وهو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك ، وواكل فلان إذا ضيّع أمره متّكلا على غيره والوكال في الدّابة : أن يسير بسير الآخر . وقال الرّاغب : التّوكيل أن تعتمد على غيرك وتجعله نائبا عنك ، وتواكل القوم إذا اتّكل كلّ على الآخر ، والاسم من التّوكيل الوكالة (بالفتح والكسر) . والاسم :

التّكلان ، وتقول : اتّكلت على فلان في أمري إذا اعتمدته ، ويقال : فلان وكلة أو تكلة ، أي عاجز يكل أمره إلى غيره ، كما يقال : فرس واكل يعني يتّكل على صاحبه في العدو ، ويحتاج إلى الضّرب .

والمتوكّل على اللّه : الّذي علم أنّ اللّه كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده ، ولا يتوكّل على غيره .

قال ابن سيده : يقال : وكل باللّه وتوكّل عليه واتّكل بمعنى استسلم إليه ، ويقال توكّل بالأمر إذا ضمن القيام به ، ووكلت أمري إلى فلان أي ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه ، ووكل فلانًا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته ، أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه ، ووكل إليه الأمر سلّمه ، ووكله إلى رأيه وكلا ووكولا : تركه .

الوكيل من أسماء اللّه الحسنى :

قال ابن الأثير : في أسماء اللّه تعالى (الوكيل) وهو القيّم الكفيل بأرزاق العباد ، وحقيقته أنّه يستقلّ بأمر الموكول إليه .

وقال الغزاليّ : الوكيل هو الموكول إليه الأمور ولكنّ الموكول إليه ينقسم إلى من يوكل إليه بعض الأمور ، وذلك ناقص ، وإلى من يوكل إليه الكلّ ، وليس ذلك إلّا اللّه ، سبحانه وتعالى . والموكول إليه ينقسم إلى من يستحقّ أن يكون موكولا إليه ، لا بذاته ولكن بالتّفويض والتّوكيل ، وهذا ناقص ، لأنّه فقير إلى التّفويض والتّولية ؛ وإلى من يستحقّ بذاته أن تكون الأمور موكولة إليه والقلوب متوكّلة عليه ، لا بتولية وتفويض من جهة غيره ، وذلك هو الوكيل المطلق ، والوكيل أيضًا ينقسم إلى من يفي بما وكلّ إليه وفاء تامّا من غير قصور ، وإلى من لا يفي بالجميع . والوكيل المطلق هو الّذي الأمور موكولة إليه ، وهو مليّ بالقيام بها ، وفيّ بإتمامها ، وذلك هو اللّه تعالى فقط .

وقد ورد لفظ الوكيل في القرآن الكريم مرّات عديدة وذكر فيه المفسّرون أقوالًا منها : حفيظًا لكم ، كفيلًا بأموركم ، شريكًا (عن مجاهد) وقيل غير ذلك .

قال الشّنقيطيّ في أضوائه : المعاني كلّها متقاربة ، ومرجعها إلى شيء واحد هو أنّ الوكيل : من يتوكّل عليه ، فتفوّض الأمور إليه ، ليأتي بالخير ويدفع الشّرّ .

وهذا لا يصحّ إلّا للّه وحده جلّ وعلا . ولهذا حذّر من اتّخاذ وكيل دونه لأنّه لا نافع ولا ضارّ ولا كافي إلّا هو وحده جلّ وعلا ، عليه توكّلنا ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

من أسماء رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : المتوكّل . كما في الحديث : "... وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ ، وَلاَ غَلِيظٍ ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ " (خ /2125) وإنّما قيل له ذلك – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لقناعته باليسير والصّبر على ما كان يكره .

واصطلاحًا :

صدق اعتماد القلب على اللّه – عزّ وجلّ – في استجلاب المصالح ودفع المضارّ من أمور الدّنيا والآخرة ، وكلة الأمور كلّها إليه ، وتحقيق الإيمان بأنّه لا يعطي ولا يمنع ولا يضرّ ولا ينفع سواه .

وقال الجرجاني : التّوكّل هو الثّقة بما عند اللّه واليأس عمّا في أيدي النّاس .

الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل :

قال ابن قيّم الجوزيّة : التّوكّل من أعظم الأسباب الّتي يحصل بها المطلوب ، ويندفع بها المكروه . فمن أنكر الأسباب لم يستقم معه التّوكّل .

ولكن من تمام التّوكّل : عدم الرّكون إلى الأسباب .

وقطع علاقة القلب بها ، فيكون حال قلبه قيامه باللّه لا بها ، وحال بدنه قيامه بها .

فالأسباب محلّ حكمة اللّه وأمره ونهيه .

والتّوكّل متعلّق بربوبيّته وقضائه وقدره ، فلا تقوم عبوديّة الأسباب إلّا على ساق التّوكّل ولا يقوم ساق التّوكّل إلّا على قدم العبوديّة .

بين التوكل والاتّكال :

إنّ الأخذ بالأسباب مع تفويض أمر النّجاح للّه تعالى والثّقة بأنّه عزّ وجلّ لا يضيع أجر من أحسن عملا ، هو من التّوكّل المأمور به ، أمّا القعود عن الأسباب وعدم السّعي فليس من التّوكّل في شيء وإنّما هو اتّكال أو تواكل حذّرنا منه رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، ونهى عن الأسباب المؤدّية إليه ، مصداق ذلك ما جاء في حديث معاذ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : قال رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ ؟ " قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : " فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا " ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ : " لاَتُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا " (خ / 2856) ، وهنا يضع الرّسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قاعدة جليلة ، هي أنّ كلّ ما يؤدّي إلى ترك العمل أو ما يكون مظنّة للاتّكال أو التّواكل ليس من التّوكّل في شيء ، وقد جاء في حديث أبي هريرة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – ما يؤكّد هذه الحقيقة ، ففي الحوار الّذي رواه أبو هريرة عن الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وعمر بن الخطّاب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – هذا الحوار – كما جاء في رواية

مسلم : قال عمر : يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى ، أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْلَيْكَ مَنْ لَقِىَ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ بَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ ؟ قَالَ : " نَعَمْ " . قَالَ : فَلاَ تَفْعَلْ فَإِنِّى أَخْشَى أَنْ يَتَّكِلَ النَّاسُ عَلَيْهَا فَخَلِّهِمْ يَعْمَلُونَ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " فَخَلِّهِمْ " (م / 156) .

ويفهم من الحديث والّذي قبله أنّ الاتّكال يعني ترك العمل وعدم الأخذ بالأسباب وأنّ ذلك ليس من التّوكّل في شيء .

بين التوكل والتفويض :

بين التّوكّل على اللّه وتفويض الأمر إليه علاقة العموم والخصوص إذ التّفويض أوسع من معنى التّوكّل ، والتّوكّل أخصّ من التّفويض ، قال صاحب المنازل : والتّفويض ألطف إشارة ، وأوسع معنى من التّوكّل ، والتّوكّل يكون بعد وقوع السّبب ، أمّا التّفويض فإنّه يكون قبل وقوع السّبب وبعده ، والتّفويض هو عين الاستسلام ، أمّا التّوكّل فهو شعبة منه .

وقال ابن القيّم : يعني بذلك من يفوّض أمره إلى اللّه يتبرّأ من الحول والقوّة ، ويفوّض الأمر لصاحب الأمر من غير أن يقيم المفوّض إليه مقام نفسه في مصالحه ، بخلاف التّوكّل ، فإنّ الوكالة تقتضي أن يقوم الوكيل مقام الموكّل .

وقال – يرحمه اللّه تعالى – : لو قال قائل : التّوكّل فوق التّفويض ، وأجلّ منه وأرفع لكان مصيبًا ، ولهذا كان القرآن الكريم مملوءًا به (أي بالتّوكّل) أمرًا وإخبارًا عن خاصّة اللّه وأوليائه ، وصفوة المؤمنين ، وأمر اللّه به رسوله في مواضع عديدة من كتابه ، وسمّاه المتوكّل .

أمّا التّفويض فلم يجيء في القرآن الكريم إلّا فيما حكاه المولى عزّ وجلّ عن مؤمن آل فرعون ، وذلك قوله عزّ وجلّ : (وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ) (غافر / 44) ، ثمّ خلص إلى القول : إنّ اتّخاذ المولى عزّ وجلّ وكيلا هو محض العبوديّة ، وخالص التّوحيد ، إذا قام به صاحبه حقيقة ، وهو بذلك أوسع من التّفويض ، وأعلى وأرفع .

بين التوكل والثقة باللّه – عزّ وجلّ – :

نقل ابن القيّم عن صاحب المنازل قوله : الثّقة :

سواد عين التّوكّل ، ونقطة دائرة التّفويض . وذكر من أمثلة ذلك ما جاء في القرآن الكريم عن أمّ موسى : (فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي) (القصص / 7) قال : فإنّ فعلها هذا هو عين ثقتها باللّه تعالى ، إذ لولا كمال ثقتها بربّها لما ألقت بولدها في تيّار الماء ، قال ابن القيّم : والمراد أنّ الثّقة خلاصة التّوكّل ولبّه ، كما أنّ سواد العين أشرف ما فيها ، أمّا العلاقة بين الثّقة والتّفويض فتتلخّص في أنّ الثّقة هي الّتي يدور عليها التّفويض ، قال : وكثير من النّاس يفسّر التّوكّل بالثّقة . ومنهم من يفسّره بالتّفويض ، ومنهم من يفسّره بالتّسليم ومقام التّوكّل يشمل ذلك كلّه .

قلت : وممّا يدلّ على صحّة ما قال ابن القيّم من شمول معنى التّوكّل لكلّ من التّفويض والثّقة ما ذكره الإمام الغزاليّ في تعريف التّوكّل حيث قال : التّوكّل مشتقّ من الوكالة ، يقال : وكل أمره إلى فلان : أي فوّضه إليه

واعتمد عليه فيه ، ويسمّى المفوّض إليه : متّكلا عليه ومتوكّلا عليه متى اطمأنّت إليه نفسه ووثق به ، ولم يتّهمه فيه بتقصير ، ولم يعتقد فيه عجزًا أو قصورًا ، وهو (التوكّل) عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده .

مواطن التوكل :

إنّ التوكّل على اللّه عزّ وجلّ مطلوب في كلّ شئون الحياة ، بيد أنّ هناك مواطن كثيرة ورد فيها الحضّ على التوكّل والأمر به للمصطفى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والمؤمنين ، وقد ذكر الفيروز آباديّ من ذلك :

1– إن طلبتم النّصر والفرج فتوكّلوا عليه : (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (آل عمران / 160) .

2– إذا أعرضت عن أعدائك فليكن رفيقك التوكّل : (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا) (النساء / 81) .

3– إذا أعرض عنك الخلق فاعتمد على التوكّل : (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) (التوبة / 129) .

4– إذا تلي القرآن عليك أو تلوته فاستند على التوكّل : (وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (الأنفال / 2) .

5– إذا طلبت الصّلح والإصلاح بين قوم لا تتوسّل إلى ذلك إلّا بالتوكّل : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) (الأنفال / 61) .

6– إذا وصلت قوافل القضاء فاستقبلها بالتوكّل : (قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (التوبة / 51) .

7– إذا نصبت الأعداء حبالات المكر فادخل أنت في أرض التوكّل : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ) (يونس / 71) .

8– إذا عرفت أنّ مرجع الكلّ إلى اللّه وتقدير الكلّ فيها للّه فوطّن نفسك على فرش التوكّل : (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) (هود / 123) .

9– إذا علمت أنّ اللّه هو الواحد على الحقيقة ، فلا يكن اتّكالك إلّا عليه : (قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ) (الرعد / 30) .

10– إذا كانت الهداية من اللّه ، فاستقبلها بالشّكر والتوكّل : (وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) (إبراهيم / 12) .

11– إذا خشيت بأس أعداء اللّه والشّيطان والغدّار فلا تلتجئ إلّا إلى باب اللّه : (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (النحل / 99) .

12– إذا أردت أن يكون اللّه وكيلك في كلّ حال ، فتمسّك بالتوكّل في كلّ حال : (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا) (النساء / 81) .

13– إذا أردت أن يكون الفردوس الأعلى منزلك فانزل في مقام التّوكّل : (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (النحل / 42) .

14– إن شئت أن تنال محبّة اللّه فانزل أوّلا في مقام التّوكّل : (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران / 159) .

15– إذا أردت أن يكون اللّه لك، وتكون للّه خالصا فعليك بالتّوكّل : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) (الطلاق / 3) . (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) (النمل / 79) .

أمر الله بالتوكل :

(فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران / 159) ، (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (التغابن / 13) ، (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) (الشعراء / 217) ، (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) (يوسف / 67) .

فضل و عاقبة المتوكلين :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران / 159) ، (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) (الطلاق / 3) .

أحاديث في التوكل :

1– عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ : بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ " . قَالَ : " يُقَالُ حِينَئِذٍ : هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ فَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِىَ وَكُفِىَ وَوُقِىَ " . قال الألباني في صحيح أبي داود / 5095) : صحيح الترمذي (3666) .

2– عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – : (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حِينَ قَالُوا : (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) . (خ / 4563) .

3– عَنْ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – يَقُولُ : " لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا " . قال الألباني في (صحيح ابن ماجة / 4164) : صحيح .

أقوال في التوكل :

1– عن ابن عبّاس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قال : " كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزوّدون ويقولون : نحن المتوكّلون ، فإذا قدموا مكّة سألوا النّاس ، فأنزل اللّه تعالى وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى " .

3– قال الزّبير بن العوّام – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : " كان أوّل من جهر بالقرآن بعد رسول اللّه – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – بمكّة عبد اللّه بن مسعود – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – . قال : اجتمع يومًا أصحاب رسول اللّه – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – ، فقالوا : واللّه ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قطّ فمن رجل يسمعهموه ؟ قال عبد اللّه

بن مسعود : أنا . قالوا : إنّا نخشاهم عليك . إنّما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه ، قال : دعوني فإنّ اللّه – عزّ وجلّ – سيمنعني ، قال : فغدا ابن مسعود حتّى أتى المقام في الضّحى ، وقريش في أنديتها ، حتّى قام عند المقام ثمّ قرأ : بسم اللّه الرّحمن الرّحيم – رافعًا بها صوته – (الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ) قال : ثمّ استقبلها يقرؤها .

قال : فتأمّلوه فجعلوا يقولون ما يقول ابن أمّ عبد ؟ قال : ثمّ قالوا : إنّه ليتلو بعض ما جاء به محمّد ، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه ، وجعل يقرأ حتّى بلغ منها ما شاء اللّه أن يبلغ ، ثمّ انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا في وجهه ، فقالوا هذا الّذي خشينا عليك . قال : ما كان أعداء اللّه أهون عليّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينّهم بمثلها ، قالوا : حسبك فقد أسمعتهم ما يكرهون " .

4– عن عون بن عبد اللّه قال : بينا رجل في بستان بمصر في فتنة ابن الزّبير مكتئبًا معه شيء ينكت به في الأرض ، إذ رفع رأسه فسنح له صاحب مسحاة ، فقال له : يا هذا مالي أراك مكتئبًا حزينًا ؟ قال : فكأنّه ازدراه . فقال : لا شيء . قال صاحب المسحاة : أللدّنيا فإنّ الدّنيا عرض حاضر يأكل منها البرّ والفاجر ، والآخرة أجل صادق يحكم فيها ملك قادر ، يفصل بين الحقّ والباطل . فلمّا سمع ذلك منه كأنّه أعجبه ، قال : فقال : لما فيه المسلمون . قال : فإنّ اللّه سينجّيك بشفقتك على المسلمين ، وسل ، فمن ذا الّذي سأل اللّه – عزّ وجلّ – فلم يعطه ، ودعاه فلم يجبه وتوكّل عليه فلم يكفه ، أو وثق به فلم ينجه ؟ قال : فعلقت لدعاء : اللّهمّ سلّمني وسلّم منّي فتمحّلت ولم تصب منهم أحدًا .

5– قال سعيد بن جبير – يرحمه اللّه – : التّوكّل على اللّه عزّ وجلّ جماع الإيمان .

6– قال عياض الأشعريّ – يرحمه اللّه تعالى : شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء :

أبو عبيدة بن الجرّاح ويزيد بن أبي سفيان وابن حسنة وخالد بن الوليد وعياض . وقال عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة . قال فكتبنا إليه : أنّه قد جاش إلينا الموت ، واستمددناه فكتب إلينا أنّه قد جاءني كتابكم تستمدّوني وإنّي أدلّكم على من هو أعزّ نصرًا وأحضر جندًا ، اللّه – عزّ وجلّ – فاستنصروه فإنّ محمّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ – قد نصر يوم بدر في أقلّ من عدّتكم ، فإذا أتاكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني . فقاتلناهم فهزمناهم وقتلناهم أربع فراسخ ، وأصبنا أموالًا .

7– قال أبو وائل شقيق بن سلمة : خرجنا في ليلة مخوفة ، فمررنا بأجمة فيها رجل نائم ، وقيّد فرسه فهي ترعى عند رأسه فأيقظناه ، فقلنا له : تنام في مثل هذا المكان ؟ قال : فرفع رأسه فقال : إنّي أستحي من ذي العرش أن يعلم أنّي أخاف شيئا دونه ثمّ وضع رأسه فنام .

8– قال الإمام أحمد – يرحمه اللّه تعالى – : ينبغي للنّاس كلّهم (يتوكّلون) على اللّه – عزّ وجلّ – ولكن يعوّدون أنفسهم بالكسب فمن قال بخلاف هذا القول فهذا قول إنسان أحمق .

9– وقال أيضًا : الاستغناء عن النّاس بطلب العمل أعجب إلينا من الجلوس وانتظار ما في أيدي النّاس .

10- وقال أيضًا : صدق المتوكّل على اللّه عزّ وجلّ – أن يتوكّل على اللّه ولا يكون في قلبه أحد من الآدميّين يطمع أن يجيئه بشيء ، فإذا كان كذلك كان اللّه يرزقه وكان متوكّلًا .

11- قال ابن القيّم – يرحمه اللّه تعالى – :

التّوكّل من أقوى الأسباب الّتي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم .

12 – قال ابن القيّم والفيروز آباديّ – يرحمهما اللّه تعالى – : التّوكّل نصف الدّين ، والنّصف الثّاني الإنابة ، فإنّ الدّين استعانة وعبادة ، فالتّوكّل هو الاستعانة ، والإنابة هي العبادة .

من فوائد (التوكل) :

(1) أنّه من كمال الإيمان وحسن الإسلام .

(2) يجلب محبّة اللّه تعالى ومعونته ونصره وتأييده .

(3) دوام طلب المعونة من اللّه الملك ليقين المتوكّل بالعجز التّامّ عن تحصيل ما يريده وتمام قدرة اللّه على إنجاز كلّ ما يريد وفوق ما يريد .

(4) الحفظ والمنعة من الشّيطان الرّجيم ومن البشر اللّئيم .

(5) الوقوف على الحدود الشّرعيّة وعدم الخوض في الحرام .

(6) ترك المزاحمة مع النّاس ؛ لأنّ المتوكّل لا يخاف فوت شيء قدّر له .

(7) قطع الطمع فيما في أيدي النّاس توكّلًا على ما عند اللّه .

(8) راحة البال واستقرار الحال .

(9) لا يمنع الأخذ بالأسباب المشروعة المباحة مع الخروج من أسرها .

(10) يحقّق طاعة اللّه ورسوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ – .

(11) يحقّق رضا اللّه ، فيجعل للعبد مخرجًا ويكفّر عنه سيّئاته .

(12) يهيّأ صاحبه للفوز بصحبة النّبيّين في جنّات النّعيم .

(13) من أسباب سعة الرّزق .

(14) به تمام المعونة من اللّه – عزّ وجلّ– ممّا يدفع عن المتوكّل شرّ الأشرار من الشّيطان ومن كلّ من يكيده.

قال ابن عجيبة في تفسيره (1 / 355) :

وقيل لبهلوان المجنون : متى يكون العبد متوكلًا ؟ قال : إذا كان بالنفس غريبًا بين الخلق ، وبالقلب قريبًا إلى الحق .

قال ابن جزي : التوكل هو الاعتماد على الله في تحصيل المنافع وحفظها بعد حصولها ، وفي دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها ، وهو من أعلى المقامات ، لوجهين : أحدهما : قوله : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران / 159) ، والآخر : الضمان الذي في قوله : (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) (الطّلاَق : 3) ،

وقد يكون واجبًا لقوله : (وَعَلَى اللَّهِ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (المَائدة : 23) ، فجعله شرطًا في الإيمان ، ولظاهر قوله : (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونِ) (آل عِمرَان : 122) ؛ فإن الأمر محمول على الوجوب .

واعلم أن الناس في التوكل على ثلاث مراتب :

الأولى : أن يعتمد العبد على ربه ، كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده ، الذي لا يشك في نصحيته له وقيامه بمصالحه . الثانية : أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه ؛ لا يعرف سواها ولا يلجأ إلاَّ إليها . الثالثة : أن يكون العبد مع ربه كالميت بين يدي الغاسل ، قد أسلم إليه نفسه بالكلية .

فصاحب الدرجة الأولى عنده حظ من النظر لنفسه ، بخلاف صاحب الثانية . وصاحب الثانية له حظ من الاختيار ، بخلاف صاحب الثالثة . وهذه الدرجات مبنية على التوحيد الخاص ، الذي تكلمتُ عليه في قوله : (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) (البَقَرَة : 163) ، فهي تقوى بقوته وتضعف بضعفه .

فإن قيل : هل يشترط في التوكل ترك الأسباب أم لا ؟ فالجواب : أن الأسباب على ثلاثة أقسام :

أحدها : سبب معلوم قطعًا قد أجراه الله ، فهذا لا يجوز تركه ؛ كالأكل لرفع الجوع وللباس لرفع البرد .

الثاني : سبب مظنون : كالتجارة وطلب المعاش ، وشبه ذلك ، فهذا لا يقدح فعله في التوكل ، فإن التوكل من أعمال القلوب لا من أعمال البدن ، ويجوز تركه لمن قوي عليه .

والثالث : سبب موهوم بعيد ، فهذا يقدح فعله في التوكل ، قلت : ولعل هذا مثل طلب الكيمياء والكنوز وعلم النار والسحر ، وشبه ذلك .

ثم فوق التوكل التفويض ، وهو : الاستسلام لأمر الله تعالى بالكلية ، فإن المتوكل له مراد واختيار ، وهو يطلب مراده في الاعتماد على ربه ، وأما المفوض فليس له مراد ولا اختيار ، بل أسند الاختيار إلى الله تعالى ، فهو أكمل أدبًا مع الله ا . هـ . وأصله للغزالي .

7- المقسطون

قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (المائدة / 42)

نضرة النعيم (القسط 8 / 3153) :

القسط لغة :

قسط وأقسط لغتان بمعنى عدل .

وأمّا قسط الّذي مصدره القسط فهو بمعنى جار ، فكأنّ الهمزة فيه للسّلب ، كما يقال : شكا إليه فأشكاه .

والقسط : الميزان ، سمّي به من القسط العدل ، ففي الحديث : " 465 – عَنْ أَبِي مُوسَى – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – بِأَرْبَعٍ : " إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَنَامَ يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيَخْفِضُهُ وَيُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ وَعَمَلُ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ " . (م / 465) أراد أنّ اللّه يخفض ، ويرفع ميزان أعمال العباد المرتفعة إليه ، وأرزاقهم النّازلة من عنده كما يرفع الوزّان يده ويخفضها عند الوزن ، وقيل :

أراد بالقسط : القسم من الرّزق الّذي هو نصيب كلّ مخلوق ، وخفضه تقليله ، ورفعه تكثيره .

والقسط : الحصّة والنّصيب . وتقسّطوا الشّيء بينهم : تقسّموه على العدل والسّواء . وأمّا قوله تعالى : (وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ) (الشعراء / 182) فالمراد أقوم الموازين .

معنى اسم اللّه (المقسط) :

في أسماء اللّه الحسنى (المقسط) بمعنى العادل ، وقال الحليميّ : هو المعطي عباده القسط وهو العدل من نفسه ، وقد يكون معناه : المعطي لكلّ منهم قسطا من خيره .

القسط اصطلاحًا :

قال المناويّ : القسط (بالكسر) هو النّصيب بالعدل .

وقال القرطبيّ : القسط هو العدل في المعاملات .

الأمر بالقسط :

قال ابن تيمية – يرحمه اللّه تعالى – : أخبر اللّه في كتابه أنّه أنزل الكتاب والحديد ليقوم النّاس بالقسط ، فقال تعالى : (لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحديد / 25) .

ولهذا أمر النّبيّ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – أمّته بتولية ولاة الأمور عليهم وأمر ولاة الأمور أن يردّوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكموا بين النّاس أن يحكموا بالعدل .

أمر الله بالقسط :

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) (الأعراف / 29) (وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الحجرات / 9) .

فضل المقسطين :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (المائدة / 42) . قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن :

وقوله : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) يقول إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم فيبرون من برهم ويحسنون إلى من أحسن إليهم انتهى منه .

أحاديث في القسط :

4825 – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – : " إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِى حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا " . (م / 4825) .

من فوائد (القسط) :

(1) فيه مرضاة للرّحمن واتّباع لسيّد الأنام .

(2) يضمن الحقوق ويحفظ الأمانات .

(3) القيام بالقسط سمة من سمات إخلاص الشّهادة للّه .

(4) يكسو صاحبه نورًا يوم القيامة .

(5) من قام بالقسط عظم ثوابه .

(6) فيه الحفاظ على سلامة المجتمع .

(7) يعيذ صاحبه من لعنة اللّه والملائكة والنّاس أجمعين .

8 – الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ

قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ) (الصف / 4)

سؤال : مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟

وخير من يجيب على هذا السؤال ، هو من لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى المبلغ عن ربه إذ يقول :

1– عَنْ أَبِي مُوسَى – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً ؟ فَقَالَ : " مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ " . (خ / 123) ، (م / 5031)

2– وعند البخاري : فَقَالَ : الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ قَالَ : " مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ " . (خ / 2810) .

7458– عَنْ أَبِي مُوسَى– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ – فَقَالَ : الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ قَالَ : " مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهْوَ فِي سَبِيلِ اللهِ " . (خ / 7458) ، (م / 5029) .

قال الطبري في تفسيره (22 /610) :

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) .

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلْقَائِلِينَ : لَوْ عَلِمْنَا أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ لَعَمِلْنَاهُ حَتَّى نَمُوتَ : (إِنَّ اللَّهَ) أَيُّهَا الْقَوْمُ (يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا) . يَعْنِي فِي طَرِيقِهِ وَدِينِهِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ (صَفًّا) يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ أَعْدَاءَ اللَّهِ مُصْطَفِّينَ .

وَقَوْلُهُ : (كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) . يَقُولُ : يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَفًّا مُصْطَفًّا ، كَأَنَّهُمْ فِي اصْطِفَافِهِمْ هُنَالِكَ حِيطَانٌ مَبْنِيَّةٌ قَدْ رُصَّ ، فَأُحْكِمَ وَأُتْقِنَ ، فَلاَ يُغَادِرُ مِنْهُ شَيْئًا . وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ : بُنِيَ بِالرَّصَاصِ .

وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ .

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ :

– عَنْ قَتَادَةَ ، قَوْلُهُ : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) أَلَمْ تَرَ إِلَى صَاحِبِ الْبُنْيَانِ كَيْفَ لاَ يُحِبُّ أَنْ يَخْتَلِفَ بُنْيَانُهُ ، كَذَلِكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لاَ يَخْتَلِفُ أَمْرُهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِتَالِهِمْ وَصَفِّهِمْ فِي صَلاَتِهِمْ ، فَعَلَيْكُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ عِصْمَةٌ لِمَنْ أَخَذَ بِهِ .

– قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) . قَالَ : وَالَّذِينَ صَدَّقُوا قَوْلَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ هَؤُلاَءِ ؛ قَالَ : وَهَؤُلاَءِ لَمْ يَصَّدَّقُوا قَوْلَهُمْ بِالأَعْمَالِ لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نَكَصُوا عَنْهُ وَتَخَلَّفُوا .

وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُ : إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا) لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْقِتَالَ رَاجِلًا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْقِتَالِ فَارِسًا ، لِأَنَّ الْفُرْسَانَ لاَ يَصْطَفُّونَ ، وَإِنَّمَا يَصْطَفُّ الرَّجَّالَةُ .

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ :

– عَنْ أَبِي بَحْرِيَّةَ ، قَالَ : كَانُوا يَكْرَهُونَ الْقِتَالَ عَلَى الْخَيْلِ ، وَيَسْتَحِبُّونَ الْقِتَالَ عَلَى الأَرْضِ ، لِقَوْلِ اللَّهِ : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) . قَالَ : وَكَانَ أَبُو بَحْرِيَّةَ يَقُولُ : إِذَا رَأَيْتُمُونِي الْتَفِتُ فِي الصَّفِّ ، فَجَئُوا فِي لَحْيَيَّ .

تفسير القرطبي (18 /81) :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)

فيه ثلاث مسائل : الأولى – قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا) أي يصفون صفًا : والمفعول مضمر ، أي يصفون أنفسهم صفًا . (كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) قال الفراء : مرصوص بالرصاص . وقال المبرد : هو من رصصت البناء إذا لاءمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة . وقيل : هو من الرصيص وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض . والتراص التلاصق ، ومنه وتراصوا في الصف . ومعنى الآية : يحب من يثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء . وقال سعيد بن جبير : هذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم . الثانية – وقد استدل بعض أهل التأويل بهذا على أن قتال الراجل أفضل من قتال الفارس ، لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة . قال المهدوي : وذلك غير مستقيم ، لما جاء في فضل الفارس في الأجر والغنيمة . ولا يخرج الفرسان من معنى الآية ، لان معناه الثبات . الثالثة – لا يجوز الخروج عن الصف إلا لحاجة تعرض للإنسان ، أو في رسالة يرسلها الامام ، أو في منفعة تظهر في المقام ، كفرصة تنتهز ولا خلاف فيها . وفي الخروج عن الصف للمبارزة خلاف على قولين أحدهما : أنه لا بأس بذلك إرهابًا للعدو ، وطلبًا للشهادة وتحريضًا على القتال . وقال أصحابنا : لا يبرز أحد طالبًا لذلك ، لأن فيه رياء وخروجًا إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدو . وإنما تكون المبارزة إذا طلبها الكافر ، كما كانت في حروب النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يوم بدر وفي غزوة خيبر ، وعليه درج السلف . وقد مضى القول مستوفى في هذا في " البقرة " عند قوله تعالى : (وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) (البقرة : 195) .

تفسير ابن كثير (8 / 107) :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) فهذا إخبار منه تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى ، يقاتلون في سبيل الله مَن كفر بالله ، لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان .

وقال سعيد بن جبير في قوله (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا) قال : كان رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله : (كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) ملتصق بعضه في بعض ، من الصف في القتال .

وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض .

وقال ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – : (كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) مُثَبّت ، لا يزول ، ملصق بعضه ببعض .

قال الشّنقيطيّ في أضواء البيان (8 / 106) :

قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) (61 / 4) .

اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ فِي الْمُرَادِ بِالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ ، فَنَقَلَ بَعْضُهُمْ عَنِ الْفَرَّاءِ : أَنَّهُ الْمُتَلَاحِمُ بِالرَّصَاصِ لِشِدَّةِ قُوَّتِهِ ، وَالْجُمْهُورُ : أَنَّهُ الْمُتَلَاصِقُ الْمُتَرَاصُّ الْمُتَسَاوِي .

وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّشْبِيهِ هُنَا هُوَ وَجْهُ الشَّبَهِ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ هُنَا هُوَ شَكْلُ الْبِنَاءِ لَا فِي تَلَاحُمِهِ بِالرَّصَاصِ ، وَعَدَمِ انْفِكَاكِهِ وَلَا تَسَاوِيهِ وَتَرَاصِّهِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَتَنَافَى وَطَبِيعَةَ الْكَرِّ وَالْفَرِّ فِي أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ ، وَلِكُلِّ وَقْعَةٍ نِظَامُهَا حَسَبَ مَوْقِعِهَا .

وَالَّذِي يَظْهَرُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ : أَنَّ وَجْهَ الشَّبَهِ الْمُرَادَ هُنَا هُوَ عُمُومُ الْقُوَّةِ وَالْوَحْدَةِ .

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ اسْتِوَاءَ بِنَائِهِمْ فِي الثَّبَاتِ حَتَّى يَكُونُوا فِي اجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ.ا هـ.

وَيَدُلُّ لِهَذَا الْآتِي :

أَوَّلًا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (3 / 121) .

فَالْمَقَاعِدُ هُنَا هِيَ الْمَوَاقِعُ لِلْجَمَاعَاتِ مِنَ الْجَيْشِ ، وَهِيَ التَّعْبِئَةُ حَسَبَ ظُرُوفِ الْمَوْقِعَةِ ، كَمَا فَعَلَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي وَضْعِ الرُّمَاةِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ حِمَايَةً لِظُهُورِهِمْ مِنَ الْتِفَافِ الْعَدُوِّ بِهِمْ لِطَبِيعَةِ الْمَكَانِ ، وَكَمَا فَعَلَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَرَصَّهُمْ ، وَسَوَّاهُمْ بِقَضِيبٍ فِي يَدِهِ أَيْضًا لِطَبِيعَةِ الْمَكَانِ .

وَهَكَذَا ، فَلَابُدَّ فِي كُلِّ وَقْعَةٍ مِنْ مُرَاعَاةِ مَوْقِعِهَا ، بَلْ وَظُرُوفِ السِّلَاحِ وَالْمُقَاتِلَةِ .

وَقَدْ ذَكَرَ صَاحِبُ – (الْجُمَّانِ فِي تَشْبِيهَاتِ الْقُرْآنِ) – أَجْزَاءَ الْجَيْشِ وَتَقْسِيمَاتِهِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ مِنْ قَلْبٍ وَمَيْمَنَةٍ وَمَيْسَرَةٍ وَأَجْنِحَةٍ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ فَيَكُونُ وَجْهُ الشَّبَهِ هُوَ الِارْتِبَاطَ الْمَعْنَوِيَّ وَالشُّعُورَ بِالْمَسْئُولِيَّةِ ، وَالْإِحْسَاسَ بِالْوَاجِبِ كَمَا فَعَلَ الْحَبَّابُ بْنُ الْمُنْذِرِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ حِينَ نَظَرَ إِلَى مَنْزِلِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَوْقِعِ فَلَمْ يَرُقْهُ ، وَسَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَجَابَهُ فَأَبْدَى خُطَّةً جَدِيدَةً فَأَخَذَ بِهَا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَغَيَّرَ الْمَوْقِعَ مِنْ مَكَانِ الْمَعْرَكَةِ .

وَثَانِيًا قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (8 / 45 – 46) .

فَذَكَرَ تَعَالَى مِنْ عَوَامِلِ النَّصْرِ : الثَّبَاتَ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وَذِكْرَ اللَّهِ وَالطَّاعَةَ ، وَالِامْتِثَالَ ، وَالْحِفَاظَ عَلَيْهَا بِعَدَمِ التَّنَازُعِ وَالصَّبْرَ عِنْدَ الْحَمْلَةِ وَالْمُجَالَدَةَ ، فَتَكُونُ حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَكُلُّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ مَعْنَى الْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ فِي قُوَّتِهِ وَحِمَايَتِهِ وَثَبَاتِهِ ، وَقَدْ عَابَ تَعَالَى عَلَى الْيَهُودِ تَشَتُّتَ قُلُوبِهِمْ عِنْدَ الْقِتَالِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى) (59 / 14) ، وَامْتَدَحَ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِتَالِهِمْ بِوَحْدَتِهِمْ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ .

وَقَدْ جَاءَتِ السُّنَةُ بِهَذَا التَّشْبِيهِ لِلتَّعَاوُنِ فِي قَوْلِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ " . (خ / 481) .

فَهُوَ يُبَيِّنُ الْمُرَادَ مِنْ وَجْهِ الشَّبَهِ فِي الْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ هُنَا ، وَقَدْ أُثِرَ عَنْ أَبِي مُوسَى – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَوْلُهُ لِأَصْحَابِهِ : الْزَمُوا الطَّاعَةَ ؛ فَإِنَّهَا حِصْنُ الْمُحَارِبِ .

وَعَنْ أَكْثَمَ بْنِ صَيْفِيٍّ : أَقِلُّوا الْخِلَافَ عَلَى أُمَرَائِكُمْ ، وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ لَأَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَى الِالْتِزَامِ بِهَذَا التَّوْجِيهِ الْقُرْآنِيِّ الْكَرِيمِ ، إِزَاءَ قَضِيَّتِهِمِ الْعَامَّةِ مَعَ عَدُوِّهِمِ الْمُشْتَرِكِ ، وَلَا سِيَّمَا ، وَقَدْ مَرَّ الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ بِعِدَّةِ تَجَارِبَ فِي تَارِيخِهِمُ الطَّوِيلِ وَكَانَ لَهُمْ مِنْهَا أَوْضَحُ الْعِبَرِ ، وَلَهُمْ فِي هَذَا الْمَنْهَجِ الْقُرْآنِيِّ أَكْبَرُ مُوجِبٍ لِاسْتِرْجَاعِ حُقُوقِهِمْ وَالْحِفَاظِ عَلَى كِيَانِهِمْ ، فَضْلًا عَنْ أَنَّهُ الْعَمَلُ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ .

و قال العدوي في تفسيره :

تفسير قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا)

ثم قال سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ) (الصف : 4) ، جمهور المفسرين على تأويل هذه الآية على ظاهرها ، أي : أن الله يحب من المؤمنين إذا هم قاتلوا عدوهم أن يكونوا صفوفًا متلاحمة متماسكة حتى لا يخترقهم عدو .

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا) أي : صفًا واحدًا متلاحمًا حتى لا يخترقهم العدو ، هذا رأي أكثر المفسرين ، لكن مع هذا الرأي وقفات ، وآراء أخر لأهل التفسير ؛ إذ الحروب تختلف في طرقها ، والكر والفر أثناء القتال يستدعي مخالفة الصف ، ويستدعي التقدم أو التأخر ، أو الاحتيال من أجل لقاء العدو ، فربنا سبحانه يقول في كتابه الكريم : (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (آل عمران :121) فقوله سبحانه : (وإذ غدوت) أي : خرجت في الغداة ، (من أهلك) أي : من عند أهلك ، وهي عائشة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْها – كما في التفسير والأحاديث ، (تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) أي : تنزل المقاتلين منازلهم .

فهل يلزم هذا الآن في صور القتال التي تختلف عن تلك الصور التي كانت على عهد الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، إذ صور القتال على عهد الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كانت تتمثل في الضرب بالسيوف ، والرمي بالسهام ، والاتقاء بالدروع ، ونحو ذلك ، وهذه لا تتلاءم الآن مع أنظمة الحروب كما أسلفنا ، فالكر والفر يستدعي أن تتقدم أو تتأخر .

وبعض المفسرين حملوا الآية على عموم الوحدة والتآلف بين المؤمنين ، التآلف القلبي والتآلف الظاهري ، وعلى الوحدة القلبية والوحدة الفكرية ، والسمع والطاعة للإمام ، وعدم الخروج عليه أثناء القتال .

فثم أقوام تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى ! كما قال الله سبحانه وتعالى في شأن أهل الكتاب : (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى) (الحشر : 14) أي : تحسبهم في الظاهر مجتمعين على قلب رجل واحد ، ولكن قلوبهم متفرقة .

والشاهد : أن من المفسرين من قال – وهو قول قوي في غاية القوة – المراد : التلاحم والتآلف بين القلوب ، مع ما يترتب عليه من امتثال الأوامر الظاهرة حين يضعهم الإمام ويرتبهم ، كما كان الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يفعل ، حيث كان ينزل الرماة منازلهم ويبوئ المؤمنين أماكنهم للقتال .

تفرق المسلمين في الوقت الحاضر :

تفشت إلينا في أزماننا هذه بدع ومسميات ما أنزل الله بها من سلطان ، وتحزبات وجماعات شتتت المسلمين ، وفرقت شملهم ؛ فتجد في المدينة الواحدة مائة جماعة ، هذه جماعة الإخوان المسلمين ، وتلك جماعة السلفيين ، وتلك جماعة الجهاد ، وتلك الجماعة الإسلامية ، وتلك الجمعية الشرعية ، وهذه التكفير والهجرة ، أسماء ومسميات ما أنزل الله بها من سلطان ، ونحن من هذا الموقع نظهر ديننا ، وندعو إخواننا إلى ما دعانا إليه ربنا .

اسمعوا – يا مسلمون – لسنا منتظمين مع أي جماعة من الجماعات على الإطلاق ، المسلمون كلهم لنا إخوة كما قال الله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات : 10) نتعاون مع كل مسلم في حدود استطاعتنا ، وفيما يقره شرعنا ، وهذه المسميات أورثت تعصبات وحزبيات وعداوات لا حصر لها ، يأتي العالم ممن ليس في جماعتك فلا تحضر له درسًا ، ولا تسمع منه آية ولا حديثًا ، ثم يأتي عالم أو جاهل من جماعتك ومن حزبك فتقوم له وتقعد ، وتدعو إليه القاصي والداني ، وهذا ليس من الإنصاف في شيء ، فربنا أمرنا أن نكون كما قال : (قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ) (النساء : 135) . إمارات شتتت المسلمين وفرقت جمعهم ، وكل يدعي أن عمله الجماعي دعا إليه الإسلام ، حقًا العمل الجماعي دعا إليه الإسلام ، ولكن أي جماعة هي ؟ إنها الجماعة العامة للمسلمين ، ليست جماعة ولا حزبًا يضحك عليه ويأمرِّ عليه أميرًا ، ويبدأ العمل السري الذي هو أخطبوط لا تدري ما مصدره ولا منتهاه .

صحيح أن العمل الجماعي مستحب ، ولكن بين عموم المسلمين ، والعمل الجماعي ليس محصورًا في فئة يضحك عليها شخص أنه أمير لها ، ويأتي حدث من الأحداث يعين أميرًا للدقهلية ، أو أميرًا للغربية ، ويفرح بالإمارة ويبدأ في تجميع الناس حوله .

أصبحت هذه بدع بالية والحمد لله ، طغت عليها كلها أقوال سلفنا الصالح من أصحاب رسول الله ، ومن التابعين لهم وأتباع التابعين .

وقد كان سبب ذهاب دولة الأندلس ومطالعه وبشائره السيئة هذه الفرقة التي حدثت في بلاد المسلمين الآن ، جماعات متعددة ، الكل يتناحر ، والكل يغتاب الآخر ، والكل بعيد عن كتاب الله وعن سنة رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ! فدعوة – معشر الإخوة – إلى الالتمام والانطواء تحت كتاب الله وسنة رسول الله ، والسير على ما سار عليه أصحاب نبينا ، وأتباع نبينا ؛ إذ هم خير القرون ، قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ " (خ / 2652) . كما قال الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

وإنه لعجب أن يتجه أقوام إلى دينهم ، يخرجون من الجاهلية ، ومن لوث المعاصي ، ويبتدئون في الاتجاه إلى الدين ، وإذا بالأنياب تختطفهم ، هذا يريدهم مع الإخوان المسلمين ، وهذا يريدهم مع الجهاد ، وهذا يريدهم مع التنظيم السلفي ، وهذا يريدهم مع أنصار السنة ! أشياء تشتت على الشخص فكره ، وتشعب على المبتدئ فكره وعقله ، ومن الذي يعلم الناس كتاب الله ؟ ومن الذي يعلمهم سنة رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ؟ فمعشر الإخوة ! رجعة إلى أصحاب رسول الله ، ورجعة إلى منهج أصحاب رسول الله .

ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – حدثت بينه وبين ابن الزبير خلافات ، فحواها وسببها : أن ابن الزبير لما مات معاوية ، وولي ابنه يزيد الخلافة عن غير إمرة شرعية حقيقية ، بل كانت سنة غير متبعة ، حينها بويع لـ (ابن الزبير) من أهل مكة ، ومن أهل الحجاز قاطبة ، ومن أهل العراق ، ومن عدة دول ، وامتنع عليه أهل الشام في طائفة ، فجيء لـ (ابن عباس) كي يبايع ، فقال : لا أبايع حتى يجتمع المسلمون كلهم على إمام واحد ، وانضم إلى ابن عباس في هذه الوقفة محمد بن الحنفية العالم الحبر الكريم ابن علي بن أبي طالب ، وكان مآلهما إلى أن أخرجا وأبعدا إلى الطائف .

الشاهد : أن ابن عباس لم يرض أن ينطوي تحت لواء إلا إذا اجتمع المسلمون كلهم على هذا اللواء .

ثم يأتي من يشغب بأحاديث يفهمها للناس على غير وجهها ، يشغب عليهم بحديث الرسول : " وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً " (م / 4899) ، وهذا التشغيب مرفوض ، فما هي البيعة ؟ هل يصح أن آخذ ثلاثة أو أربعة ، أو مائة أو ألفًا ، وأخدعهم وأقول لهم : أنا أميركم بايعوني وإلا فستموتون ميتة جاهلية ؟ من الذي قال ذلك ؟ الإمام أحمد روي أنه قال في شرحه لهذا الحديث : هذا في الإمام الذي يجتمع عليه المسلمون ، ويشار إليه بالأصابع .

أما التشعبات والتفرقات فقد قال فيها نبينا محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخَرَ مِنْهُمَا " (م /4905) ، فمن هو الخليفة الآن ؟ إنها أصبحت فوضى ، كما ذكر النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في حديث حذيفة بن اليمان إذ قال له : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِى ذَلِكَ ؟ قَالَ : " تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ " . فَقُلْتُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ ؟ قَالَ : " فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ " (م / 4890) ، لكن العلماء يضبطون هذا الحديث : اعتزلهم في الشر ، وشاركهم في الخير ، شارك المسلمين في جنائزهم ، شاركهم في أعمال البر التي يقومون بها ، ولا تحكر نفسك على جماعة بعينها ، كتاب الله ليس فيه أن جماعة باسمها يجب أن تتبع دون غيرها ، سنة رسول الله بين أيدينا هي الحكم على القاصي والداني ، إن زلت قدم شخص كائنًا من كان أو وقع في شيء من هذه الأمور فإنه لا يتبع ، هذا الله قد وطأ لذلك بفعل الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما استغفر لأبيه ، فقال الله سبحانه وتعالى : (إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) (الممتحنة : 4) .

أيها الإخوة ! مضت عهود البدع والخرافات ، والضحك على الشباب ، والضحك على الأخوات ، مضت هذه العهود بما فيها ، أيام كان الجهل فيها يغطي على الأفئدة ، والآن سنة رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –

ظاهرة للجميع ، الكل لنا إخوان مسلمون ، الكل إخواننا في الله ، نحبهم بقدر ما فيهم من صلاح ، ولا نحمد فيهم خصالهم السيئة ، كذلك جعلنا ربنا أمة وسطًا .

قال سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ) (الصف : 4) .

إثبات صفة المحبة لله تعالى :

في قوله سبحانه : (يحب) إثبات صفة المحبة لله سبحانه وتعالى ، وقد نفاها قوم وأولها آخرون ، وليس هذا التأويل بمقبول ، فصفة المحبة لله ثابتة في جملة مواطن ، قال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ...) (خ / 6040) .

الشاهد : " إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل " ، فصفة المحبة ثابتة لله بنصوص الكتاب ونصوص السنة ، وكذلك صفة البغض .

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ) (الصف : 4) .

أي : في تشابكهم واجتماعهم وتآلفهم ، كما في الحديث : إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ " . (خ / 481) . وفي قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " المؤمن للمؤمن " تعميم للأخوة ، قال سبحانه : " كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ " .

النصوص الدالة على وجوب وحدة الصف :

إذًا : فيلزمنا نحن كمسلمين أن نكون على قلب رجل واحد ، لا مسلمو مصر فحسب بل مسلمو العالم أجمع ، وقد جاءت نصوص الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بهذا ، إذًا : لابد هنا من وقفة : فقد جاءت نصوص الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، بل وجاءت آيات الكتاب العزيز تحث على الوحدة بين عموم المسلمين ، قال الله سبحانه وتعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات : 10) ، وقال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ) (خ / 2442) ، وقال الله سبحانه وتعالى : (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ) (الحج : 78) ، وقال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ ، عِبَادَ اللَّهِ " . قال الألباني في صحيح الترمذي / 2836 : (صحيح) .

وحذرنا ربنا سبحانه وتعالى من التفرق والاختلاف في جملة آيات ، قال سبحانه : (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوه) (آل عمران :105) ، وقال سبحانه : (وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) (الأنفال : 46) .

وقال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ " قال الألباني في صحيح الترمذي / 2165 : (صحيح) . وقال : " يَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ " قال الألباني في صحيح الترمذي / 2166 : (صحيح) . وأي جماعة هي المرادة ؟ هي جماعة المسلمين العامة ؛ إذ لم تكن ثم أحزاب ولا تكتلات على عهد رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ " المراد به جماعة المسلمين العامة ،

التي ينطوي تحتها كل مسلم ، هذا معنى كلام رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعلى آله وسلم – ، إذ – كما أسلفنا – لم تكن الأحزاب ، ولا التكتلات ، ولا العصبيات ، ولا القوميات موجودة على عهد النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

وقال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ " قال الألباني : (حسن) انظر حديث رقم : 3109 في صحيح الجامع ، أي جماعة هي الرحمة ؟ هي جماعة المسلمين العامة ؛ إذ لم ينص في الكتاب العزيز ولا في سنة الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على جماعة بعينها ، إذ لم تكن – كما أسلفنا – هناك تحزبات ولا تكتلات على عهد الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

ذم الرسول للنعرات الجاهلية :

أثيرت نعرة من النعرات الجاهلية على عهد الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وكان من حملة هذه النعرة قوم مسلمون ، مع أنها نعرة تنادي بأسماء أثنى الله عليها ، لكنها لما كانت تنطوي على بث للفرقة والخلاف بين المسلمين وصفها الرسول بالنتن ، عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ : كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : " مَا بَالُ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ " قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ ، فَقَالَ : " دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ " (خ / 4905) .

مع أن هذا الشعار الذي رفع : يا للأنصار ! وقد أثنى الله عليهم في جملة مواطن ، والمهاجرون أيضًا أثنى عليهم الله في جملة مواطن ، لكن لما ولَّد هذا الشعار المرفوع فرقة واختلافًا بين المسلمين شجبه الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وذمه أيما ذم ، ووصفه رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بالنتن بقوله : " دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ " ، وكان من الذين أججوا شعار هذه الفتنة عبد الله بن أبي بن سلول ؛ إذ قال لما رأى هذا الموقف المختلف : أو قد فعلوها ؟ – يعني : المهاجرين – لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فنزل قوله تعالى : (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ) (المنافقون :8) ، فأصول ديننا كلها تدعونا إلى الاجتماع تحت اسم واحد ، هو اسم الإسلام ، ومسمى المسلمين ، هذه نصوص كتاب الله كلها تنطق بذلك : (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْل) (الحج :78) (هو) : راجعة إلى من ؟ قال كثير من أهل التأويل : إن (هو) راجعة إلى الله سبحانه ، أي : الله الذي سمانا المسلمين ، ويدل عليه حديث الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –" فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ ، عِبَادَ اللَّهِ " . قال الألباني في صحيح الترمذي / 2836 : (صحيح) .

حرص الكفار على تفريق المسلمين :

لما شعر أعداء الله بأن في اتحاد المسلمين قوة لهم كما لا يخفى ، مزقوهم إربًا ، مزقوهم إلى قوميات ، واشتعلت في تركيا جماعة تركيا الفتاة التي تبث القومية التركية في تركيا ، وتفصلها عن الإسلام ، واشتعلت في بلاد العرب ما يقاوم القومية التركية ، وهي القومية العربية ؛ ففضلوا العربي النصراني على التركي المسلم ،

وتقسموا إلى دويلات كل دويلة ترفع شعارها الجاهلي ، فمصر ترفع الشعار الفرعوني ، والعراق ترفع الشعار البابلي كل حزب بما لديهم فرحون ، كما قال تعالى : (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (المؤمنون :53) .

ولم يقف الأمر إلى هذا الحد ، بل المذاهب أيضًا التي يفترض فيها جميعها أن يكون منطلقها كتاب الله وسنة رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في الفتيا ثم أقوال الصحابة تعصب لها أهلها غاية التعصب ، تعصب الشافعية في أوقات للمذهب الشافعي أيما تعصب ، وتعصب الأحناف للمذهب الحنفي أيما تعصب ، وكذلك الحنابلة ، وكذلك المالكية ، حتى صدرت جملة من الفتاوى تحرم على بعض أهل المذاهب الزواج من المذهب الآخر ، وقد شكى من هذا الصنعاني – يرحمه الله تعالى – صاحب كتاب سبل السلام وهو ابن الأمير الهاشمي المشهور ، وذكر رحمه الله تعالى أبيات شعر يتوجع فيها غاية التوجع من أهل زمانه الذين ناصبوه العداء ، لا لذنب اقترفه ، ولا لإثم ارتكبه ، إلا لكونه متبعًا للدليل الوارد من الكتاب والسنة فقال – يرحمه الله تعالى – ناعيًا على قومه ، وناعيًا أيضًا على أقربائه من آل بيت الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الذين تعصبوا للمذهب الزيدي ، قال فيهم وفي غيرهم من المتعصبة الذين نبذوا الأدلة وراء ظهورهم : سلام على أهل الحديث فإنني هم بذلوا في حفظ سنة أحمد وأعني بهم أسلاف سنة أحمد أولئك أمثال البخاري ومسلم بحور أحاشيهم عن الجزر إنما رووا وارتووا من بحر علم محمد كفاهم كتاب الله والسنة التي أأنتم أهدى أم صحابة أحمد أولئك أهدى في الطريقة منكم وشتان ما بين المقلد والهدى فمن قلد النعمان أصبح شاربا ومن يقتدي أضحى إمام معارف فمقتديا في الحق كن لا مقلدا وأقبح من كل ابتداع سمعته مذاهب من رام الخلاف لبعضها يصب عليه سوط ذم وغيبة ويعزى إليه كل ما لا يقوله فيرميه أهل الرفض بالنصب فرية وليس له ذنب سوى أنه غدا ويتبع أقوال النبي محمد لئن عده الجهال ذنبا فحبذا علام جعلتم أيها الناس ديننا هم علماء الدين شرقا ومغربا ولكنهم كالناس ليس كلامهم ولا زعموا حاشاهم أن قولهم بلى صرحوا أنا نقابل قولهم ... نشأت على حب الأحاديث من مهدي وتنقيحها من جهدهم غاية الجهد أولئك في بيت القصيد هم قصدي وأحمد أهل الجد في العلم والجد لهم مدد يأتي من الله بالمد وليس لهم تلك المذاهب من ورد كفت قبلهم صحب الرسول ذوي المجد وأهل الكسا هيهات ما الشوك كالورد فهم قدوتي حتى أوسد في لحدي ومن يقتدي والضد يعرف بالضد نبيذا وفيه القول للبعض بالحد وكان أونسيا في العبادة والزهد وخل أخا التقليد في الأسر بالقد وأنكاه للقلب الموفق للرشد يعض بأنياب الأساود والأسد ويجفوه من قد كان يهواه عن عمد لتنصيصه عند التهامي والنجد ويرميه أهل النصب بالرفض والجحد يتابع قول الله في الحل والعقد وهل غيره بالله في الشرع من يهدي به حبذا يوم انفرادي في لحدي لأربعة لا شك في فضلهم عندي ونور عيون الفضل والحق والزهد دليلا ولا تقليدهم في غد يجدي دليل فيستهدي به كل مستهدي إذا خالف المنصوص بالقدح والرد .

وتوجع آخر فقال : إن يسألوا عن مذهبي لم أبح به وأكتمه وكتمانه لي أسلم ونحن لا نوافقه على مسألة الكتمان تلك ، قال : إن يسألوا عن مذهبي لم أبح به وأكتمه وكتمانه لي أسلم فإن حنفيًا قلت قالوا بأنني أبيح

الطلا وهو الشراب المحرم وإن مالكيًا قلت قالوا بأنني أبيح لهم لحم الكلاب وهم هم وإن شافعيًا قلت قالوا بأنني أبيح نكاح البنت والبنت تحرم وإن حنبليًا قلت قالوا بأنني ثقيل بغيض حلولي مجسم وإن قلت من أهل الحديث وحزبه قالوا تيس ليس يدري ويفهم عجبت من هذا الزمان وأهله فمن ذا الذي من ألسن الناس يسلم .

الجماعة المأمور بلزومها في النصوص :

إن الجماعة العامة التي نادانا الله بها ، وطالبنا الله بالانضمام تحتها هي جماعة المسلمين العامة ، ليس إلا ذلك ، ومن عارض فهذا كتاب الله بين أيدينا ، وتلك سنة رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بين أيدينا ، هما حكم على الجميع ، والأدلة كلها تحث على الوحدة بين المسلمين جميعًا ، والمسلم يحب بقدر ما فيه من طاعة ، ويبغض بقدر ما فيه من معصية .

ولكن شاء الله سبحانه – ولا راد لقضائه – : أن تتفتت أمة محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وتتفرق إلى شيع وأحزاب ، كما تفرق من كان قبلها ، : " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِى عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً " قال الألباني في صحيح أبي داود / 4596 : حسن صحيح ابن ماجة (3991) ، وقال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " سَأَلْتُ رَبِّى ثَلاَثًا فَأَعْطَانِى ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِى وَاحِدَةً سَأَلْتُ رَبِّى أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا " (م / 7442) ، ولما نزل قول الله جل ذكره : (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) (الأنعام : 65) ، قال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أعوذ بوجهك ! ولما قال : (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) (الأنعام :65) قال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أَعُوذُ بِوَجْهِكَ قَالَ : (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قَالَ أَعُوذُ بِوَجْهِكَ (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " هَذَا أَهْوَنُ ، أَوْ هَذَا أَيْسَرُ " . (خ / 4628) .

فشاء الله أن يقتل بعض أمة محمد بعضًا ، وأن يسبي بعضهم بعضًا ، وأن يغير بعضهم على بعض ، حكمة الله وسنة الله تعالى في خلقه ، ولكن ليس لنا مخرج إلا الاجتماع تحت كتاب ربنا وسنة نبينا ، والتآلف مع عموم المسلمين .

9- الأذلة على المؤمنين ، 10- الأعزة على الكافرين ، 11 – الذين لا يخافون لومة لائم

قَالَ تَعَالَى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ) (آل عمران : 31)

قال أبو جعفر الطبري في تفسيره (409/10) :

القول في تأويل قوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (المائدة / 54) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله وبرسوله :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ "، أي : صدّقوا لله ورسوله ، وأقرُّوا بما جاءهم به نبيُّهم محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ "، يقول : من يرجع منكم عن دينه الحق الذي هو عليه اليوم ، فيبدِّله ويغيره بدخوله في الكفر ، إما في اليهودية أو النصرانية أو غير ذلك من صنوف الكفر ، فلن يضر الله شيئًا ، وسيأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، يقول : فسوف يجيء الله بدلًا منهم ، المؤمنين الذين لم يبدِّلوا ولم يغيروا ولم يرتدوا ، بقومٍ خير من الذين ارتدُّوا وابدَّلوا دينهم ، يحبهم الله ويحبون الله . وكان هذا الوعيد من الله لمن سبق في علمه أنه سيرتدُّ بعد وفاةِ نبيّه محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – . وكذلك وعدُه من وعدَ من المؤمنين ما وعدَه في هذه الآية ، لمن سبق له في علمه أنه لا يبدّل ولا يغير دينه ، ولا يرتدّ . فلما قَبَض الله نبيَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، ارتدّ أقوام من أهل الوبَرِ ، وبعضُ أهل المَدَر ، فأبدل الله المؤمنين بخيرٍ منهم كما قال تعالى ذكره ، ووفى للمؤمنين بوعده ، وأنفذ فيمن ارتدَّ منهم وعيدَه .

قال أبو حيان في تفسيره (البحر المحيط) (4 / 470) :

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) (المائدة / 54) هو جمع ذليل لا جمع ذلول الذي هو نقيض الضعف ، لأن ذلولًا لا يجمع على أذلة بل ذلل ، وعدي أذلة بعلى وإن كان الأصل باللام ، لأنه ضمنه معنى الحنو والعطف كأنه قال : عاطفين على المؤمنين على وجه التذلل والتواضع .

قيل : أو لأنه على حذف مضاف التقدير : على فضلهم على المؤمنين ، والمعنى أنهم يذلون ويخضعون لمن فضلوا عليه مع شرفهم وعلو مكانهم ، وهو نظير قوله : (أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ) (الفتح / 29) وجاءت هذه الصفة بالاسم الذي فيه المبالغة ، لأن أذلة جمع ذليل وأعزة جمع عزيز ، وهما صفتا مبالغة ، وجاءت الصفة قبل هذا بالفعل في قوله : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) لأن الاسم يدل على الثبوت ، فلما كانت صفة مبالغة ، وكانت لا تتجدد بل هي كالغريزة ، جاء الوصف بالاسم .

(يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أي في نصرة دينه . (وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائم) أي هم صلاب في دينه ، لا يبالون بمن لام فيه . فمتى شرعوا في أمر بمعروف أو نهي عن منكر ، أمضوه لا يمنعهم اعتراض معترض ، ولا قول قائل هذان الوصفان أعني : الجهاد والصلابة في الدين هما نتيجة الأوصاف السابقة ، لأنّ من أحب الله لا يخشى إلا إياه ، ومن كان عزيزًا على الكافر جاهد في إخماده واستئصاله . وناسب تقديم

الجهاد على انتفاء الخوف من اللائمين لمحاورته أعزة على الكافرين ، ولأن الخوف أعظم من الجهاد ، فكان ذلك ترقيًا من الأدنى إلى الأعلى .

و قال محمد الطاهر بن عاشور التونسي في كتابه : التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور (5 / 135) : ومحبة العبد ربه انفعال النفس نحو تعظيمه والأنس بذكره وامتثال أمره والدفاع عن دينه . فهي صفة تحصل للعبد من كثرة تصور عظمة الله تعالى ونعمه حتى تتمكن من قلبه ، فمنشؤها السمع والتصور . وليست هي كمحبة استحسان الذات ، ألا ترى أنا نحب النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من كثرة ما نسمع من فضائله وحرصه على خيرنا في الدنيا والآخر ، وتقوى هذه المحبة بمقدار كثرة ممارسة أقواله وذكر شمائله وتصرفاته وهديه ، وكذلك نحب الخلفاء الأربعة لكثرة ما نسمع من حبهم الرسول ومن بذلهم غاية النصح في خير المسلمين ، وكذلك نحب حاتمًا لما نسمع من كرمه . وقد قالت هِنْدٌ بِنْتُ عُتْبَةَ امرأة أبي سفيان لرسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " قَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ مَا كَانَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ مِنْ أَهْلِ خِبَاءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَذِلُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ ثُمَّ مَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَهْلُ خِبَاءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ يَعِزُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ "(خ / 3825).

والأذلة والأعزة وصفان متقابلان وصف بهما القوم باختلاف المتعلق بهما، فالأذلة جمع الذليل وهو الموصوف بالذل . والذل بضم الذال وبكسرها : الهوان والطاعة ، فهو ضد العز : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ) (آل عمران :123) وفي بعض التفاسير : الذل بضم الذال ضد العز وبكسر الذال ضد الصعوبة ، ولا يعرف لهذه التفرقة سند في اللغة . والذليل جمعه الأذلة ، والصفة الذل (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) (الاسراء :24) . ويطلق الذل على لين الجانب والتواضع ، وهو مجاز ، ومنه ما في هذه الآية . فالمراد هنا الذل بمعنى لين الجانب وتوطئة الكنف ، وهو شدة الرحمة والسعي للنفع ، ولذلك علق به قوله : (عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) . ولتضمين (أذلة) معنى مشفقين حانين عدي بعلى دون اللام ، أو لمشاكلة (على) الثانية في قوله : (عَلَى الْكَافِرِينَ) .

والأعزة جمع العزيز فهو المتصف بالعز وهو القوة والاستقلال ، ولأجل ما في طباع العرب من القوة صار العز في كلامهم يدل على معنى الاعتداء ، ففي المثل من عز بز . وقد أصبح الوصفان متقابلين ، فلذلك قال السموأل أو الحارثي :

وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل

وإثبات الوصفين المتقابلين للقوم صناعة عربية بديعية ، وهي المسماة الطباق ، وبلغاء العرب يغربون بها ، وهي عزيزة في كلامهم ، وقد جاء كثير منها في القرآن . وفيه إيماء إلى أن صفاتهم تسيرها آراؤهم الحصيفة فليسوا مندفعين إلى فعل ما إلا عن بصيرة ، وليسوا ممن تنبعث أخلاقه عن سجية واحدة بأن يكون لينًا في كل حال ، وهذا هو معنى الخلق الأقوم ، وهو الذي يكون في كل حال بما يلائم ذلك الحال ، قال :

حليم إذا ما الحلم زين أهله ... مع الحلم في عين العدو مهيب

وقال تعالى : (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) (الفتح :29) . وقوله : (يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) صفة ثالثة ، وهي من أكبر العلامات الدالة على صدق الإيمان . والجهاد : إظهار الجهد ، أي الطاقة في دفاع العدو ، ونهاية الجهد التعرض للقتل ، ولذلك جيء به على صيغة مصدر فاعل لأنه يظهر جهده لمن يظهر له مثله . وقوله : (وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ) صفة رابعة ، وهي عدم الخوف من الملامة ، أي في أمر الدين ، كما هو السياق .

12- المجاهدون في سبيل الله

نضرة النعيم (الجهاد 4 / 1481) :

الجهاد لغة :

الجهاد مثل المجاهدة مصدر قولهم جاهد يجاهد ، وذلك مأخوذ من مادّة (ج هـ د) الّتي تدلّ في الأصل على المشقّة ، ثمّ يحمل على هذا الأصل ما يقاربه ، ومصدر الثلاثيّ من ذلك قولهم : جهد (بالفتح) ، وجهد (بالضّمّ) وكلاهما يعني إمّا : الوسع والطّاقة أو التعب والمشقّة ، ومن ثمّ يكون الاختلاف بين الفتح والضّمّ راجعًا إلى اختلاف اللّهجات ، فهو بالضّمّ لغة أهل الحجاز ، وبالفتح في لغة غيرهم ، وقال بعض اللّغويّين : إنّ الجهد بالفتح المشقّة ، وبالضّمّ الوسع والطّاقة ، ومن الجهد بمعنى المشقّة قولهم جهد دابّته وأجهدها إذا حمل عليها في السّير فوق طاقتها ، ومن المشقّة أيضًا : جهد الرّجل فهو مجهود ، يقال أصابهم قحوط من المطر فجهدوا جهدًا شديدًا ، وجهد عيشهم بالكسر أي نكد واشتدّ .

ومن الجهد بمعنى الطّاقة قوله – عزّ وجلّ – : (وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ) (التوبة / 79) .

أي طاقتهم ، قال ابن منظور : قال الفرّاء : الجهد في هذه الآية الطّاقة ، تقول هذا جهدي أي طاقتي ، وقرأ جهدهم بالفتح من قولك اجهد جهدك في هذا الأمر أي ابلغ غايتك ، ولا يقال اجهد جهدك ، وقيل : إذا كان المعنى هو المشقّة أو الغاية فالفتح لا غير ، وإذا كان الوسع والطّاقة فيجوز الفتح والضّمّ ، ويراد بالجهد في حديث أمّ معبد : شاة خلّفها الجهد عن الغنم ، الهزال ، ومن ذلك قولهم :

جهد الرّجل إذا هزل ، قال الجوهريّ : يقال جهد الرّجل فهو مجهود (من المشقّة) ، يقال : أصابهم قحوط من المطر فجهدوا جهدًا شديدًا ، وجهد عيشهم (بالكسر) أي نكد واشتدّ .

ومن الجهد (بالضم) ما جاء في حديث الصّدقة : أيّ الصّدقة أفضل ؟ قال : جهد المقلّ أي قدر ما يحتمله حال القليل المال .

والاجتهاد : أخذ النّفس ببذل الطّاقة وتحمّل المشقّة ، يقال جهدت رأيي وأجهدته : أتعبته بالفكر ، وجاهد العدوّ مجاهدة وجهادًا : قاتله ، وفي الحديث : " لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة " ، الجهاد محاربة الأعداء ، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطّاقة من قول أو فعل ، والمراد بالنّيّة : إخلاص العمل للّه ، أي إنّه لم يبق بعد فتح مكّة هجرة ؛ لأنّها قد صارت دار إسلام ، وإنّما هو الإخلاص في الجهاد وقتال الكفّار ، والجهاد (أيضًا) المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللّسان أو ما أطاق من شيء ، قال الرّاغب : والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدوّ الظّاهر ، ومجاهدة الشّيطان ، ومجاهدة النّفس ؛ وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى : (وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ) (الحج / 78) والمجاهدة تكون باليد واللّسان ، قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " جَاهِدُوا بِأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ " قال الألباني في صحيح النسائي / 3192 : (صحيح) .

اصطلاحًا :

قال الرّاغب : الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدوّ ، وقال الجرجانيّ : هو الدّعاء إلى الدّين الحقّ ، وقد جمع ابن حجر بين هذين النّوعين من الجهاد وأضاف غيرهما فقال : الجهاد بذل الجهد في قتال الكفّار . ويطلق أيضًا على مجاهدة النّفس والشّيطان والفسّاق والكفّار . فأمّا مجاهدة النّفس ، فعلى تعلّم أمور الدّين ثمّ على العمل بها ثمّ على تعليمها .

وأمّا مجاهدة الشّيطان ، فعلى دفع ما يأتي به من الشّبهات وما يزيّنه من الشّهوات .

وأمّا مجاهدة الكفّار ، فتقع باليد والمال واللّسان والقلب .

وأمّا مجاهدة الفسّاق ، فباليد ثمّ اللّسان ، ثمّ القلب .

مراتب الجهاد :

قال ابن القيّم : لمّا كان جهاد أعداء اللّه في الخارج فرعًا على جهاد العبد نفسه في ذات اللّه ، كما قال النّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ " قال الألباني في صحيح الترمذي / 1621 : (صحيح) ، كان جهاد النّفس مقدّمًا على جهاد العدوّ في الخارج ، وأصلًا له ، فإنّه ما لم يجاهد نفسه أوّلا لتفعل ما أمرت به ، وتترك ما نهيت عنه ، ويحاربها في اللّه ، لم يمكنه جهاد عدوّه في الخارج . فهذان العدوّان : عدوّ الخارج وعدوّ النّفس وبينهما عدوّ ثالث لا يمكنه جهادهما إلّا بجهاده وهو واقف بينهما يثبّط العبد عن جهادهما ، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما وهو الشّيطان ، فهذه الأعداء الثّلاثة أمر العبد بمحاربتها وجهادها ، وقد بلي بمحاربتها في هذه الدّار ، وسلّطت عليه امتحانًا من اللّه له وابتلاء ، فأعطى اللّه العبد مددًا وعدّة وأعوانًا وسلاحًا لهذا الجهاد ، وأخبرهم أنّه مع المتّقين ومع المحسنين ، ومع الصّابرين ومع المؤمنين ، وأنّه يدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم ؛ بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوّهم . وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم ، وعلى قدره ، فإن قوي الإيمان ، قويت المدافعة ، فمن وجد خيرًا ، فليحمد اللّه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلّا نفسه . وأمرهم أن يجاهدوا فيه حقّ جهاده .

واختلفت عبارات السّلف في حقّ الجهاد :

فقال ابن عبّاس : هو استفراغ الطّاقة فيه ، وألّا يخاف في اللّه لومة لائم . وقال مقاتل : اعملوا للّه حقّ عمله واعبدوه حقّ عبادته .

أقسام الجهاد :

قال ابن القيّم – رحمه اللّه – : أقسام الجهاد أربعة : جهاد النّفس ، وجهاد الشّيطان ، وجهاد الكفّار ، وجهاد المنافقين . أمّا جهاد النّفس فقد أفردنا له صفة خاصّة باعتباره الجهاد الأكبر .

جهاد الشيطان :

لمّا كان الشّيطان عدوًّا مبينًا للإنسان منذ خلق اللّه – عزّ وجلّ – هذا الإنسان ، فقد أمرنا اللّه – عزّ وجلّ – أن نتّخذه عدوّا ، يقول اللّه – عزّ وجلّ – : (إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) (فاطر/ 6) ، ومن ثمّ

وجبت مجاهدته ، لا أنّ ذلك يمهّد السّبيل أمام الإنسان لكي يجاهد نفسه وهي عدوّ الدّاخل ، ويجاهد الكفّار والمنافقين وهذه عداوة الخارج، ولا يمكن جهادهما إلّا بمجاهدته والتّصدّي له ، وتعني هذه المجاهدة – كما ذكرنا قبلا – دفع ما يأتي به من الشّبهات وما يزيّنه من الشّهوات .

ولجهاد الشّيطان – كما يقول ابن القيّم – مرتبتان :

الأولى : جهاده على دفع ما يلقى إلى العبد من الشّبهات والشّكوك .

الثّانية : جهاده على ما يلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشّهوات ، فالمرتبة الأولى يكون بعدها اليقين والثانية يكون بعدها الصّبر ، قال تعالى : (وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ) (السجدة / 24) ، فأخبر اللّه – عزّ وجلّ – أنّ إمامة الدّين إنّما تنال بالصّبر واليقين ، فالصّبر يدفع الشّهوات والإرادات الفاسدة ، واليقين يدفع الشّكوك والشّبهات .

جهاد الكفار والمنافقين ومن في حكمهم :

وأمّا جهاد الكفّار والمنافقين فمراتبه أربعة :

بالقلب ، واللّسان ، والمال ، والنّفس . وجهاد الكفّار أخصّ باليد ، وجهاد المنافقين أخصّ باللّسان . وأمّا جهاد أرباب الظّلم والبدع والمنكرات فعلى ثلاث مراتب : باليد إذا قدر ، فإن عجز انتقل إلى اللّسان ، فإن عجز جاهد بقلبه .

حكم الجهاد :

جهاد النّفس في ذات اللّه تعالى وجهاد الشّيطان فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد .

أمّا جهاد الكفّار والمنافقين ومن في حكمهم من أهل البدع ، فهو فرض كفاية قد يكتفى فيه ببعض الأمّة إذا حصل منهم مقصود الجهاد . وأكمل الخلق عند اللّه تعالى من كمّل مراتب الجهاد كلّها ، وهم متفاوتون في منازلهم عند اللّه تفاوتهم في هذه المراتب .

أمر الله بالجهاد :

(انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالًا وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (التوبة / 41) .

(وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) (الحج / 78) .

فضل و عاقبة المجاهدين :

(لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيمًا) (النساء / 95) .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) (الأنفال / 72) (وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت / 69) (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة / 218) .

13- المتبعون للنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –

قَالَ تَعَالَىٰ: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (آل عمران : 31)

قال عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي قي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (1 / 965):

هذه الآية هي الميزان ، التي يعرف بها من أحب الله حقيقة ، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة ، فعلامة محبة الله ، اتباع محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الذي جعل متابعته وجميع ما يدعو إليه، طريقًا إلى محبته ورضوانه ، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه ، إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامتثال أمرهما ، واجتناب نهيهما .

فمن فعل ذلك ، أحبه الله ، وجازاه جزاء المحبين ، وغفر له ذنوبه ، وستر عليه عيوبه ، فكأنه قيل : ومع ذلك ،

فما حقيقة اتباع الرسول وصفتها ؟

فأجاب بقوله : (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ) بامتثال الأمر ، واجتناب النهي ، وتصديق الخبر ، (فَإِنْ تَوَلَّوْا) عن ذلك ، فهذا هو الكفر ، والله (لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) .

قال محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (1 /199) :

قوله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) صرح تعالى في هذه الآية الكريمة : أن اتباع نبيه موجب لمحبته جل وعلا ذلك المتبع ، وذلك يدل على أن طاعة رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هي عين طاعته تعالى ، وصرح بهذا المدلول في قوله تعالى : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) (4 / 80) ، وقال تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (59 /7) .

تنبيه :

يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن علامة المحبة الصادقة لله ورسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هي اتباعه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فالذي يخالفه ويدعي أنه يحبه فهو كاذب مفتر ؛ إذ لو كان محبًا له لأطاعه ، ومن المعلوم عند العامة أن المحبة تستجلب الطاعة ، ومنه قول الشاعر : (الكامل)

لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وقول ابن أبي ربيعة المخزومي : (المتقارب)

ومن لو نهاني من حبه ... عن الماء عطشان لم أشرب

وقد أجاد من قال : (البسيط)

قالت : وقد سألت عن حال عاشقها ... بالله صفه ولا تنقص ولا تزد

فقلت : لو كان رهن الموت من ظمأ ... وقلت قف عن ورود الماء لم يرد

ومن اتباعه التأسي به في فعله ، قالوا : وصيغة الأمر في قوله : (فَاتَّبِعُونِي) للوجوب .

التأويلات في بعض آيات الصفات :

قال محمد بن عبد الرحمن الخميس في كتابه : (أنوار الهلالين في التعقبات على الجلالين) :
جاء في تفسير الجلالين تأويل بعض آيات الصفات على خلاف الظاهر وعلى خلاف منهج السلف في ذلك ، ومن الأمثلة على ذلك : الآية " 32 و 76 و 134 و 146 " من سورة آل عمران والآية " 94 " من سورة المائدة والآية " 109 " من سورة التوبة عطل صفة المحبة وصرفها عن ظاهرها إلى الثواب فقال : (يحببكم الله : بمعنى يثبكم الله) .
والصواب أن يقال : إن الله يحبكم وإذا أحبكم يثبكم لأن المثوبة من آثار المحبة لا عين المحبة .
جاء في التفسير القيم لابن القيم (1 /86) :
فأصل العبادة محبة الله بل إفراده بالمحبة وأن يكون الحب كله لله فلا يحب معه سواه وإنما يحب لأجله وفيه كما يجب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه فمحبتنا لهم من تمام محبته وليست محبة معه كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبه وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علمًا عليها وشاهدًا لمن ادعاها فقال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله وشرطًا لمحبة الله لهم ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله وانتفاء المتابعة ملزوم لإنتفاء محبة الله لهم فيستحيل إذا ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله
ودل على أن متابعة الرسول هي حب الله ورسوله وطاعة أمره ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه ألبتة ولا يهديه الله قال الله تعالى : (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة / 24) . فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه أو معاملة أحدهم على معاملة الله فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وإن قاله بلسانه فهو كذب منه وإخبار بخلاف ما هو عليه وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله فذلك المقدم عنده أحب إليه من الله ورسوله لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه أو طاعته أو مرضاته ظنا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول فيطيعه ويحاكم إليه ويتلقى أقواله كذلك فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول وعرف أن غير من اتبعه هو أولى به مطلقًا أو في بعض الأمور ولم يلتفت إلى الرسول ولا إلى من هو أولى به فهذا الذي يخاف عليه وهو داخل تحت الوعيد فإن استحل عقوبة من خالفه وأذله ولم يوافقه على اتباع شيخه فهو من الظلمة المعتدين وقد جعل الله لكل شيء

قدرًا وقال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) وهي تسمى آية المحبة قال أبو سليمان الداراني : لما ادعت القلوب محبة الله أنزل الله لها محنة (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) قال بعض السلف : ادعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحنة (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) وقال يحبكم الله إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها فدليلها وعلامتها اتباع الرسول وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة ومحبته لكم منتفية .

اهـ (مدارج السالكين حـ 3 صـ 13 . صـ 14) .

قال ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (32/2) :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32)) (آل عمران) .

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر ، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنه قال : " مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ " (م / 4590) .

ولهذا قال : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) أي : يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه ، وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول ، كما قال بعض الحكماء العلماء : ليس الشأن أن تُحِبّ ، إنما الشأن أن تُحَبّ ، وقال الحسن البصري وغيره من السلف : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية ، فقال : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) .

قال عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (128/1) :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وهذه الآية فيها وجوب محبة الله ، وعلاماتها ، ونتيجتها ، وثمراتها ، فقال : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ) أي : ادعيتم هذه المرتبة العالية ، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى ، بل لا بد من الصدق فيها ، وعلامة الصدق اتباع رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في جميع أحواله ، في أقواله وأفعاله ، في أصول الدين وفروعه ، في الظاهر والباطن ، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى ، وأحبه الله وغفر له ذنبه ، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته ، ومن لم يتبع الرسول فليس محبًا لله تعالى ، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله ، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها ، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها ، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق ، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله ، وما نقص من ذلك نقص .

الذين يحبهم الله

من السُّنَّة

الذي يتقرب إلى الله بالنوافل

1 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا [1] فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ [2] وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ [3] فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ [4] الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي [5] عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ [6] " . (خ /6021) .

---

(1) وَلِيًّا :الْمُرَاد بِوَلِيِّ اللَّهِ الْعَالِم بِاَللَّهِ الْمُوَاظِب عَلَى طَاعَته الْمُخْلِص فِي عِبَادَته .

(2) آذَنْتُه بِالْحَرْبِ : آذَنْتُه : بِالْمَدِّ وَفَتْح الْمُعْجَمَة بَعْدهَا نُونٌ أَيْ أَعْلَمْته ، وَالْإِيذَانُ الْإِعْلَامُ ، وَمِنْهُ أُخِذَ الْأَذَانُ . قال الحافظ في الفتح : وَقَدْ اُسْتُشْكِلَ وُقُوعُ الْمُحَارَبَة وَهِيَ مُفَاعَلَةٌ مِنْ الْجَانِبَيْنِ مَعَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ فِي أَسْرِ الْخَالِقِ ، وَالْجَوَاب أَنَّهُ مِنْ الْمُخَاطَبَةِ بِمَا يُفْهَمُ ، فَإِنَّ الْحَرْبَ تَنْشَأُ عَنْ الْعَدَاوَةِ وَالْعَدَاوَةُ تَنْشَأُ عَنْ الْمُخَالَفَةِ وَغَايَة الْحَرْب الْهَلَاك وَاَللَّه لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ ، فَكَأَنَّ الْمَعْنَى فَقَدْ تَعَرَّضَ لِإِهْلَاكِي إِيَّاهُ . فَأَطْلَقَ الْحَرْبَ وَأَرَادَ لَازِمَهُ أَيْ أَعْمَلُ بِهِ مَا يَعْمَلُهُ الْعَدُوُّ الْمُحَارَبُ . قَالَ الْفَاكِهَانِيُّ : فِي هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ ، لِأَنَّ مَنْ حَارَبَهُ اللَّهُ أَهْلَكَهُ ، وَهُوَ مِنْ الْمَجَازِ الْبَلِيغِ ، لِأَنَّ مَنْ كَرِهَ مَنْ أَحَبَّ اللَّهُ خَالَفَ اللَّهَ وَمَنْ خَالَفَ اللَّهَ عَانَدَهُ وَمَنْ عَانَدَهُ أَهْلَكَهُ ، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فِي جَانِبِ الْمُعَادَاةِ ثَبَتَ فِي جَانِبِ الْمُوَالَاةِ ، فَمَنْ وَالَى أَوْلِيَاءَ اللَّه أَكْرَمَهُ اللَّهُ . وَقَالَ الطُّوفِيُّ : لَمَّا كَانَ وَلِيُّ اللَّهِ مَنْ تَوَلَّى اللَّهَ بِالطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى تَوَلَّاهُ اللَّهُ بِالْحِفْظِ وَالنُّصْرَةِ ، وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْعَادَةَ بِأَنَّ عَدُوَّ الْعَدُوِّ صَدِيقٌ وَصَدِيقَ الْعَدُوِّ عَدُوٌّ ، فَعَدُوُّ وَلِيِّ اللَّهِ عَدُوُّ اللَّهِ فَمَنْ عَادَاهُ كَانَ كَمَنْ حَارَبَهُ وَمَنْ حَارَبَهُ فَكَأَنَّمَا حَارَبَ اللَّه .

(3) أُحِبَّهُ : ظَاهِرُهُ أَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ تَقَعُ بِمُلَازَمَةِ الْعَبْدِ التَّقَرُّبَ بِالنَّوَافِلِ ، وَقَدْ اُسْتُشْكِلَ بِمَا تَقَدَّمَ أَوَّلًا أَنَّ الْفَرَائِضَ أَحَبُّ الْعِبَادَاتِ الْمُتَقَرَّبِ بِهَا إِلَى اللَّهِ فَكَيْفَ لَا تُنْتِجُ الْمَحَبَّةَ ؟ وَالْجَوَابُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ النَّوَافِلِ مَا كَانَتْ حَاوِيَةً لِلْفَرَائِضِ مُشْتَمِلَةً عَلَيْهَا وَمُكَمِّلَةً لَهَا . وَقَالَ ابْن هُبَيْرَة : يُؤْخَذ مِنْ قَوْله " مَا تَقْرَب إِلَخْ " أَنَّ النَّافِلَة لَا تُقَدَّم عَلَى الْفَرِيضَة ، لِأَنَّ النَّافِلَة إِنَّمَا سُمِّيَتْ نَافِلَةً لِأَنَّهَا تَأْتِي زَائِدَةً عَلَى الْفَرِيضَةِ ، فَمَا لَمْ تُؤَدَّ الْفَرِيضَةُ لَا تَحْصُلُ النَّافِلَةُ ، وَمَنْ أَدَّى الْفَرْضَ ثُمَّ زَادَ عَلَيْهِ النَّفْل وَأَدَامَ ذَلِكَ تَحَقَّقَتْ مِنْهُ إِرَادَةُ التَّقَرُّبِ اِنْتَهَى . وَأَيْضًا فَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ التَّقَرُّبَ يَكُون غَالِبًا بِغَيْرِ مَا وَجَبَ عَلَى الْمُتَقَرِّب كَالْهَدِيَّةِ وَالتُّحْفَة بِخِلَافِ مَنْ يُؤَدِّي مَا عَلَيْهِ مِنْ خَرَاجٍ أَوْ يَقْضِي مَا عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ . وَأَيْضًا فَإِنَّ مِنْ جُمْلَة مَا شُرِعَتْ لَهُ النَّوَافِل جَبْر الْفَرَائِض كَمَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ " انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ قَالَ أَتِمُّوا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ " قال الألباني في صحيح أبي داود / 864 : (صحيح) فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ التَّقَرُّبِ بِالنَّوَافِلِ أَنْ تَقَعَ مِمَّنْ أَدَّى الْفَرَائِضَ لَا مَنْ أَخَلَّ بِهَا .

(4) كُنْتُ سَمْعَهُ : وَقَدْ اُسْتُشْكِلَ كَيْفَ يَكُونُ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا سَمْعَ الْعَبْدِ وَبَصَرَهُ إِلَخْ ؟ وَالْجَوَابُ مِنْ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ وَرَدَ عَلَى سَبِيل التَّمْثِيل ، وَالْمَعْنَى كُنْت سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ فِي إِيثَارِهِ أَمْرِي فَهُوَ يُحِبُّ طَاعَتِي وَيُؤْثِرُ خِدْمَتِي كَمَا يُحِبّ هَذِهِ الْجَوَارِح . ثَانِيهَا : أَنَّ الْمَعْنَى كُلِّيَّته مَشْغُولَةٌ بِي فَلَا يُصْغِي بِسَمْعِهِ إِلَّا إِلَى مَا يُرْضِينِي ، وَلَا يَرَى بِبَصَرِهِ إِلَّا مَا أَمَرْتُهُ بِهِ . ثَالِثهَا : الْمَعْنَى أُحَصِّلُ لَهُ مَقَاصِدَهُ كَأَنَّهُ يَنَالُهَا بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ إِلَخْ . رَابِعهَا : كُنْت لَهُ فِي النُّصْرَة كَسَمْعِهِ وَبَصَره وَيَده وَرِجْلِهِ فِي الْمُعَاوَنَة عَلَى عَدُوّه . خَامِسهَا : قَالَ الْفَاكِهَانِيُّ وَسَبَقَهُ إِلَى مَعْنَاهُ ابْن هُبَيْرَة : هُوَ فِيمَا يَظْهَرُ لِي أَنَّهُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ ، وَالتَّقْدِيرُ كُنْت حَافِظ سَمْعِهِ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ فَلَا يَسْمَعُ إِلَّا مَا يَحِلُّ اِسْتِمَاعُهُ ، وَحَافِظ بَصَرِهِ كَذَلِكَ إِلَخْ . سَادِسُهَا : قَالَ الْفَاكِهَانِيُّ : يَحْتَمِل مَعْنًى آخَرَ أَدَقَّ مِنْ الَّذِي قَبْلَهُ ، وَهُوَ أَنْ يَكُون مَعْنَى سَمْعِهِ مَسْمُوعَهُ ، لِأَنَّ الْمَصْدَر قَدْ جَاءَ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ مِثْل فُلَانٌ أَمَلِي بِمَعْنَى مَأْمُولِي ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ إِلَّا ذِكْرِي وَلَا يَلْتَذُّ إِلَّا بِتِلَاوَةِ كِتَابِي وَلَا يَأْنَسُ إِلَّا بِمُنَاجَاتِي وَلَا يَنْظُرُ إِلَّا فِي عَجَائِبِ مَلَكُوتِي وَلَا يَمُدُّ يَدَهُ إِلَّا فِيمَا فِيهِ رِضَايَ وَرِجْله كَذَلِكَ ، وَبِمَعْنَاهُ قَالَ ابْن هُبَيْرَة أَيْضًا ، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : هَذِهِ أَمْثَالٌ وَالْمَعْنَى تَوْفِيقُ اللَّهِ لِعَبْدِهِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يُبَاشِرُهَا بِهَذِهِ الْأَعْضَاءِ ، وَتَيْسِير الْمَحَبَّة لَهُ فِيهَا بِأَنْ يَحْفَظ جَوَارِحه عَلَيْهِ وَيَعْصِمَهُ عَنْ مُوَاقَعَة مَا يَكْرَه اللَّهُ مِنْ الْإِصْغَاء إِلَى اللَّهْو بِسَمْعِهِ ، وَمِنْ النَّظَر إِلَى مَا نَهَى اللَّه عَنْهُ بِبَصَرِهِ ، وَمِنْ الْبَطْش فِيمَا لَا يَحِلّ لَهُ بِيَدِهِ ، وَمَنْ السَّعْي إِلَى الْبَاطِلِ بِرِجْلِهِ . وَإِلَى هَذَا نَحَا الدَّاوُدِيُّ ، وَمِثْله الْكَلَابَاذِيّ ، وَعَبَّرَ بِقَوْلِهِ أَحْفَظُهُ فَلَا يَتَصَرَّفُ إِلَّا فِي مَحَابِّي ، لِأَنَّهُ إِذَا أَحَبَّهُ كَرِهَ لَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيمَا يَكْرَهُهُ مِنْهُ . سَابِعُهَا : قَالَ الْخَطَّابِيُّ أَيْضًا : وَقَدْ يَكُون عَبَّرَ بِذَلِكَ عَنْ سُرْعَة إِجَابَة الدُّعَاء وَالنُّجْح فِي الطَّلَب ، وَذَلِكَ أَنَّ مَسَاعِيَ الْإِنْسَان كُلَّهَا إِنَّمَا تَكُون بِهَذِهِ الْجَوَارِح الْمَذْكُورَة . وَقَالَ بَعْضهمْ : وَهُوَ مُنْتَزَع مِمَّا تَقَدَّمَ لَا يَتَحَرَّك لَهُ جَارِحَةٌ إِلَّا فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ ، فَهِيَ كُلُّهَا تَعْمَلُ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ . قال الشيخ العثيمين في شرح السفارينية (1 / 91) : لو قال قائل : ظاهر الحديث أن الله يكون سمع الإنسان وبصره ويده ورجله ، فلماذا تؤولون هذا الحديث وتقولون : إن المراد أن الله يسدد هذا الرجل في سمعه وبصره ومشيه وبطشه ؟

فالجواب : نقول : لأن عندنا دليلًا يدل على ذلك ، يقول الله عز وجل في الحديث القدسي : " مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا ، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ " ، فهنا فيه عابد ومعبود ، لقوله : (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي) فيه متقرِّب ومتقرَّب إليه (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي) ، فيه فارض ومفروض عليه (مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ) ، فيه أيضًا سائل ومسئول ، ومعطٍ ومعطى ، ومستعيذ ومستعاذ به (وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ) ، وكل هذا يدل على التباين بين هذا وبين هذا ، فإذا كان هذا دال على التباين ، فكيف يكون هذا الشيء المباين بعضًا من الشيء المباين ؟ كيف يكون سمعه وبصره ويده ورجله ؟ هذا مستحيل ، أيضًا السمع والبصر واليد والرجل بعضٌ من مخلوق ولا يمكن أن يكون بعضَ المخلوق هو الخالق هذا شيء مستحيل ، فعندنا دليل على هذا التأويل ، وإذا قام الدليل على التأويل ، فإننا نقول : ليس ظاهر الحديث مقصودًا ، بل لنا أن نقول : إن هذا الظاهر الذي ادّعي ليس هو ظاهر الحديث ، لأن ظاهر الحديث يناقض سياقه لأن ظاهر الحديث المزعوم يناقض سياقه ، ومعلوم أن ظاهر الكلام ما يقتضيه سياقه والألفاظ ليس كل لفظ له معنىً منفرد بل الألفاظ يكون معناها بضم بعضها إلى بعض فنحن لم نخرج عن ظاهر الحديث ولم نؤول ، وإذا تنزلنا جدلًا وقلنا : إن هذا تأويل ، فإننا نقول : إن هذا التأويل قد دل عليه الدليل ، وإذا دل عليه الدليل من كلام من تأولنا كلامه لم نكن خرجنا بكلامه عن ظاهره ، لأن المتكلم أعلم بالمراد ، ومثل ذلك أيضًا : ما جاء في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : " يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي . قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ ، يَا ابْنَ

آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي ، قَالَ : يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ، يَا ابْنَ آدَمَ : اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي ، قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي " (خ / 6721) ، فإننا لو أخذنا بظاهر هذا اللفظ لقلنا : إن الله يمرض وإن الله يجوع وهذا شيء مستحيل على الله ، لكن هذا قد فُسِّر في نفس الحديث حيث قال : " أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي " ، فهذا يدل على أن هذا اللفظ الذي يُدَّعى أنه ظاهر غير مراد ، لأن الله تعالى بينه بنفسه ، فالحاصل : أن المؤلف رحمه الله أعطانا قاعدة : (أن جميع من أوّل في الصفات من غير إثبات ودليل يدل على تأويله فإنه متعدي) .

(5) وَمَا تَرَدَّدْتُ : سئل شيخ الإسلام ابن تيمية مَا مَعْنَى تَرَدُّدِ اللَّهِ ؟ فَأَجَابَ : هَذَا حَدِيثٌ شَرِيفٌ قَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَهُوَ أَشْرَفُ حَدِيثٍ رُوِيَ فِي صِفَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَقَدْ رَدَّ هَذَا الْكَلَامَ طَائِفَةٌ وَقَالُوا : إنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ بِالتَّرَدُّدِ وَإِنَّمَا يَتَرَدَّدُ مَنْ لَا يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعَوَاقِبِ . وَرُبَّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّ اللَّهَ يُعَامِلُ مُعَامَلَةَ الْمُتَرَدِّدِ .

وَالتَّحْقِيقُ : أَنَّ كَلَامَ رَسُولِهِ حَقٌّ وَلَيْسَ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِاَللَّهِ مِنْ رَسُولِهِ وَلَا أَنْصَحَ لِلْأُمَّةِ مِنْهُ وَلَا أَفْصَحَ وَلَا أَحْسَنَ بَيَانًا مِنْهُ فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ الْمُتَحَذْلِقُ وَالْمُنْكِرُ عَلَيْهِ مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ ؛ وَأَجْهَلِهِمْ وَأَسْوَئِهِمْ أَدَبًا بَلْ يَجِبُ تَأْدِيبُهُ وَتَعْزِيرُهُ وَيَجِبُ أَنْ يُصَانَ كَلَامُ رَسُولِ الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْ الظُّنُونِ الْبَاطِلَةِ ؛ وَالِاعْتِقَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَلَكِنَّ الْمُتَرَدِّدَ مِنَّا وَإِنْ كَانَ تَرَدُّدُهُ فِي الْأَمْرِ لِأَجْلِ كَوْنِهِ مَا يَعْلَمُ عَاقِبَةَ الْأُمُورِ لَا يَكُونُ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ بِمَنْزِلَةِ مَا يُوصَفُ بِهِ الْوَاحِدُ مِنَّا فَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ ثُمَّ هَذَا بَاطِلٌ ؛ فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنَّا يَتَرَدَّدُ تَارَةً لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِالْعَوَاقِبِ وَتَارَةً لِمَا فِي الْفِعْلَيْنِ مِنْ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ فَيُرِيدُ الْفِعْلَ لِمَا فِيهِ مِنْ الْمَصْلَحَةِ وَيَكْرَهُهُ لِمَا فِيهِ مِنْ الْمَفْسَدَةِ لَا لِجَهْلِهِ مِنْهُ بِالشَّيْءِ الْوَاحِدِ الَّذِي يُحِبُّ مِنْ وَجْهٍ وَيَكْرَهُ مِنْ وَجْهٍ كَمَا قِيلَ : (الشَّيْبُ كُرْهٌ وَكُرْهٌ أَنْ أُفَارِقَهُ فَاعْجَبْ لِشَيْءٍ عَلَى الْبَغْضَاءِ مَحْبُوبُ) وَهَذَا مِثْلُ إرَادَةِ الْمَرِيضِ لِدَوَائِهِ الْكَرِيهِ بَلْ جَمِيعُ مَا يُرِيدُهُ الْعَبْدُ مِنْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَكْرَهُهَا النَّفْسُ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَفِي الصَّحِيحِ " حُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ " وَقَالَ تَعَالَى : (كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ) (البقرة / 216) الْآيَةَ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَظْهَرُ مَعْنَى التَّرَدُّدِ الْمَذْكُورِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ فَإِنَّهُ قَالَ : " لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ " . فَإِنَّ الْعَبْدَ الَّذِي هَذَا حَالُهُ صَارَ مَحْبُوبًا لِلْحَقِّ مُحِبًّا لَهُ يَتَقَرَّبُ إلَيْهِ أَوَّلًا بِالْفَرَائِضِ وَهُوَ يُحِبُّهَا ثُمَّ اجْتَهَدَ فِي النَّوَافِلِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيُحِبُّ فَاعِلَهَا فَأَتَى بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ مَحْبُوبِ الْحَقِّ ؛ فَأَحَبَّهُ الْحَقُّ لِفِعْلِ مَحْبُوبِهِ مِنْ الْجَانِبَيْنِ بِقَصْدِ اتِّفَاقِ الْإِرَادَةِ بِحَيْثُ يُحِبُّ مَا يُحِبُّهُ مَحْبُوبُهُ وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُهُ مَحْبُوبُهُ وَالرَّبُّ يَكْرَهُ أَنْ يَسُوءَ عَبْدَهُ وَمَحْبُوبَهُ فَلَزِمَ مِنْ هَذَا أَنْ يَكْرَهَ الْمَوْتَ لِيَزْدَادَ مِنْ محاب مَحْبُوبِهِ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ قَضَى بِالْمَوْتِ فَكُلُّ مَا قَضَى بِهِ فَهُوَ يُرِيدُهُ وَلَا بُدَّ مِنْهُ فَالرَّبُّ مُرِيدٌ لِمَوْتِهِ لِمَا سَبَقَ بِهِ قَضَاؤُهُ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَارِهٌ لِمُسَاءَةِ عَبْدِهِ ؛ وَهِيَ الْمُسَاءَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بِالْمَوْتِ فَصَارَ الْمَوْتُ مُرَادًا لِلْحَقِّ مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا لَهُ مِنْ وَجْهٍ وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّرَدُّدِ وَهُوَ : أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ مُرَادًا مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا مِنْ وَجْهٍ وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَرَجُّحِ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ كَمَا تَرَجَّحَ إرَادَةُ الْمَوْتِ ؛ لَكِنْ مَعَ وُجُودِ كَرَاهَةِ مُسَاءَةِ عَبْدِهِ وَلَيْسَ إرَادَتُهُ لِمَوْتِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ كَإِرَادَتِهِ لِمَوْتِ الْكَافِرِ الَّذِي يُبْغِضُهُ وَيُرِيدُ مُسَاءَتَهُ . ثُمَّ قَالَ بَعْدَ كَلَامٍ سَبَقَ ذِكْرُهُ : وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْغَضُ ذَلِكَ وَيَسْخَطُهُ وَيَكْرَهُهُ وَيَنْهَى عَنْهُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ وَشَاءَهُ بِإِرَادَتِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَإِنْ لَمْ يُرِدْهُ بِإِرَادَةٍ دِينِيَّةٍ هَذَا هُوَ فَصْلُ الْخِطَابِ فِيمَا تَنَازَعَ فِيهِ النَّاسُ : مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هَلْ يَأْمُرُ بِمَا لَا يُرِيدُهُ . فَالْمَشْهُورُ عِنْدَ مُتَكَلِّمَةِ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ يَأْمُرُ بِمَا لَا يُرِيدُهُ وَقَالَتْ الْقَدَرِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَغَيْرُهُمْ : إنَّهُ لَا يَأْمُرُ إلَّا بِمَا يُرِيدُهُ . وَالتَّحْقِيقُ : أَنَّ الْإِرَادَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ نَوْعَانِ : إرَادَةٌ دِينِيَّةٌ شَرْعِيَّةٌ وَإِرَادَةٌ كَوْنِيَّةٌ قَدَرِيَّةٌ : فَالْأَوَّلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) (البقرة / 185) وقَوْله تَعَالَى : (وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ) (المائدة / 6) وقَوْله تَعَالَى (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ) (النساء / 26) إلَى قَوْلِهِ : (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) (النساء / 27) فَإِنَّ الْإِرَادَةَ هُنَا بِمَعْنَى الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَى وَهِيَ الْإِرَادَةُ الدِّينِيَّةُ . وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات / 56) . وَأَمَّا الْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ الْقَدَرِيَّةُ فَمِثْلُ قَوْله تَعَالَى : (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء) (الأنعام / 125) وَمِثْلُ قَوْلِ الْمُسْلِمِينَ : مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ . فَجَمِيعُ الْكَائِنَاتِ دَاخِلَةٌ فِي هَذِهِ الْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ لَا يَخْرُجُ عَنْهَا خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ وَلَا عُرْفٌ وَلَا نُكْرٌ وَهَذِهِ الْإِرَادَةُ وَالْمَشِيئَةُ تَتَنَاوَلُ مَا لَا يَتَنَاوَلُهُ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ وَأَمَّا الْإِرَادَةُ الدِّينِيَّةُ فَهِيَ مُطَابِقَةٌ لِلْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ لَا يَخْتَلِفَانِ وَهَذَا التَّقْسِيمُ الْوَارِدُ فِي اسْمِ الْإِرَادَةِ يُرَدُّ مِثْلُهُ فِي اسْمِ الْأَمْرِ وَالْكَلِمَاتِ ؛ وَالْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ وَالْكِتَابِ وَالْبَعْثِ وَالْإِرْسَالِ وَنَحْوِهِ ؛ فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ يَنْقَسِمُ إلَى كَوْنِيٍّ قَدَرِيٍّ وَإِلَى دِينِيٍّ شَرْعِيٍّ . وَالْكَلِمَاتُ الْكَوْنِيَّةُ هِيَ : الَّتِي لَا يَخْرُجُ عَنْهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (إنَّمَا أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يس / □□) . وَأَمَّا الدِّينِيَّةُ فَهِيَ : الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " (خ / 123) وَقَالَ تَعَالَى : (وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ) (التحريم / 12) . وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ الدِّينِيُّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) (النساء / 58) وَالْكَوْنِيَّةُ : (إنَّمَا أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئًا) (يس / 82) . وَالْبَعْثُ الدِّينِيُّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ) (الجمعة / 2) وَالْبَعْثُ الْكَوْنِيُّ : (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا)

(الإسراء / 5) وَالْإِرْسَالُ الدِّينِيُّ كَقَوْلِهِ : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ) (التوبة / 33) . وَالْكَوْنِيُّ : (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) (مريم / 83) . وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . فَمَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ مِنْ الْمُنْكَرَاتِ هِيَ مُرَادَةٌ لِلَّهِ إرَادَةً كَوْنِيَّةً دَاخِلَةً فِي كَلِمَاتِهِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يُرِدْهَا إرَادَةً دِينِيَّةً وَلَا هِيَ مُوَافِقَةٌ لِكَلِمَاتِهِ الدِّينِيَّةِ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ فَصَارَتْ لَهُ مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهَةً . وَلَكِنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ بِمَنْزِلَةِ قَبْضِ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَكْرَهُهُ ؛ وَالْكَرَاهَةُ مُسَاءَةُ الْمُؤْمِنِ وَهُوَ يُرِيدُهُ لِمَا سَبَقَ فِي قَضَائِهِ لَهُ بِالْمَوْتِ فَلَا بُدَّ مِنْهُ وَإِرَادَتُهُ لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ لَهُ وَرَحْمَةٌ بِهِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : " أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْضِي لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ " . وَأَمَّا الْمُنْكَرَاتُ فَإِنَّهُ يُبْغِضُهَا وَيَكْرَهُهَا ؛ فَلَيْسَ لَهَا عَاقِبَةٌ مَحْمُودَةٌ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ إلَّا أَنْ يَتُوبُوا مِنْهَا فَيُرْحَمُوا بِالتَّوْبَةِ وَإِنْ كَانَتْ التَّوْبَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَسْبُوقَةً بِمَعْصِيَةٍ ؛ وَلِهَذَا يُجَابُ عَنْ قَضَاءِ الْمَعَاصِي عَلَى الْمُؤْمِنِ بِجَوَابَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَمْ يَتَنَاوَلْهَا وَإِنَّمَا تَنَاوَلَ الْمَصَائِبَ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ إذَا تَابَ مِنْهَا كَانَ مَا تَعْقُبُهُ التَّوْبَةُ (خَيْرًا) فَإِنَّ التَّوْبَةَ حَسَنَةٌ وَهِيَ مِنْ أَحَبِّ الْحَسَنَاتِ إلَى اللَّهِ وَاَللَّهُ يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ إذَا تَابَ إلَيْهِ أَشَدُّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ الْفَرَحِ وَأَمَّا الْمَعَاصِي الَّتِي لَا يُتَابَا مِنْهَا فَهِيَ شَرٌّ . عَلَى صَاحِبِهَا وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ وَقَضَاهُ ؛ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ الْحِكْمَةِ كَمَا قَالَ : (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) (النمل / 88) وَقَالَ تَعَالَى : (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) (السجدة / 7) فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ إلَّا وَلِلَّهِ فِيهِ حِكْمَةٌ . وَلَكِنَّ هَذَا بَحْرٌ وَاسِعٌ قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي مَوَاضِعَ وَالْمَقْصُودُ هُنَا : التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الشَّيْءَ . الْمُعَيَّنَ يَكُونُ مَحْبُوبًا مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا مِنْ وَجْهٍ وَأَنَّ هَذَا حَقِيقَةُ التَّرَدُّدِ وَكَمَا أَنَّ هَذَا فِي الْأَفْعَالِ فَهُوَ فِي الْأَشْخَاصِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . مجموع فتاوى ابن تيمية (4 / 95) .

(6) وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ : أَسْنَدَ الْبَيْهَقِيُّ فِي " الزُّهْد " عَنْ الْجُنَيْد قَالَ : الْكَرَاهَة هُنَا لِمَا يَلْقَى الْمُؤْمِن مِنْ الْمَوْت وَصُعُوبَتِهِ وَكَرْبِهِ ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنِّي أَكْرَهُ لَهُ الْمَوْت لِأَنَّ الْمَوْت يُورِدُهُ إلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ انْتَهَى . وَعَبَّرَ بَعْضهمْ عَنْ هَذَا بِأَنَّ الْمَوْت حَتْم مَقْضِيّ ، وَهُوَ مُفَارَقَة الرُّوح لِلْجَسَدِ ، وَلَا تَحْصُل غَالِبًا إلَّا بِأَلَمٍ عَظِيم جِدًّا كَمَا جَاءَ عَنْ عَمْرو بْن الْعَاص أَنَّهُ سُئِلَ وَهُوَ يَمُوت فَقَالَ : " كَأَنِّي أَتَنَفَّس مِنْ خُرْم إبْرَة ، وَكَأَنَّ غُصْن شَوْك يَجُرُّ بِهِ مِنْ قَامَتِي إلَى هَامَتِي =

.....

= " وَعَنْ كَعْب أَنَّ عُمَر سَأَلَهُ عَنْ الْمَوْت فَوَصَفَهُ بِنَحْوِ هَذَا ، فَلَمَّا كَانَ الْمَوْت بِهَذَا الْوَصْف ، وَاَللَّهُ يَكْرَه أَذَى الْمُؤْمِن ، أَطْلَقَ عَلَى ذَلِكَ الْكَرَاهَة . وَيَحْتَمِل أَنْ تَكُون الْمُسَاءَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى طُول الْحَيَاة لِأَنَّهَا تُؤَدِّي إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ، وَتَنَكُّس الْخَلْق وَالرَّدّ إِلَى أَسْفَل سَافِلِينَ . وَجَوَّزَ الْكَرْمَانِيُّ أَنْ يَكُون الْمُرَاد أَكْرَه مُكْرَهَهُ الْمَوْت فَلَا أُسْرِع بِقَبْضِ رُوحِهِ فَأَكُون كَالْمُتَرَدِّدِ .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ

2 – عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – زَوْجَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَتْ : دَخَلَ رَهْطٌ [1] مِنْ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالُوا : السَّامُ [2] عَلَيْكُمْ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ : وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ ، قَالَتْ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" مَهْلًا يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ " . (خ /5565) ، (م /4027) .

---

(1) الرَّهْط : عَدَد مِنْ الرِّجَال مِنْ ثَلَاثَة إِلَى عَشَرَة ، قَالَ الْقَزَّاز : وَرُبَّمَا جَاوَزُوا ذَلِكَ قَلِيلًا ، وَلَا وَاحِد لَهُ مِنْ لَفْظه ، وَرَهْط الرَّجُل بَنُو أَبِيهِ الْأَدْنَى ، وَقِيلَ قَبِيلَته .

(2) السَّامُ عَلَيْكُمْ : أَيْ بِالْأَلِفِ وَمَعْنَاهُ الْمَوْتُ الْعَاجِلُ .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ

3 – عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي إِبِلِهِ فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ فَقَالَ : اسْكُتْ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ :

" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ [1] الْغَنِيَّ [2] الْخَفِيَّ [3] " . (م / 5266) .

---

(1) (التقي) : بمثناة فوقية ، من يترك المعاصي امتثالاً للمأمور به واجتنابًا للمنهي عنه وهو فعيل من الوقاية تاؤه مقلوبة عن واو ، وقيل : هو المبالغ في تجنب الذنوب .

(2) (الغني) : الْمُرَاد بِالْغِنَى غِنَى النَّفْس ، هَذَا هُوَ الْغِنَى الْمَحْبُوب لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْس " وَأَشَارَ الْقَاضِي إِلَى أَنَّ الْمُرَاد الْغِنَى بِالْمَالِ ، والمال غير محذور لعينه بل لكونه يعوق عن الله فكم من غني لم يشغله غناه عن الله وكم من فقير شغله فقره عن الله فالتحقيق أنه لا يطلق القول بتفضيل الغني على الفقير.

(3) (الْخَفِيّ) : بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَة ، ومَعْنَاهُ : الْخَامِل الذكر المعتزل عن الناس الذي يخفي عليهم مكانه ليتفرغ للتعبد ، الْمُنْقَطِع إِلَى الْعِبَادَة وَالِاشْتِغَال بِأُمُورِ نَفْسه .

قال ابن حجر : وذكر للتعميم إشارة إلى ترك الرياء ، وروى بمهملة ومعناه : الوَصول للرحم ، اللطيف بهم وبغيرهم من الضعفاء ، قال الطيبي : والصفات الثلاثة الجارية على العبد واردة على التفضيل والتمييز فالتقي مخرج للعاصي والغني للفقير والخفي على الروايتين لما يضادها فإذا قلنا إن المراد بالغنى غنى القلب اشتمل على الفقير الصابر والغني الشاكر منهم وفيه على الأول حجة لمن فضَّل الاعتزال وآثر الخمول على الاشتهار .قال بعض العارفين : طريق القوم لا تصلح إلا لمن كنست بأرواحهم المزابل ، وقيل :

ليس الخمول بعار ** على امرئ ذي كمال

فليلة القدر تخفى ** وتلك خير الليالي

وعن ابن مسعود قال : كان من دعاء النبي – صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى " صحيح (صحيح الترمذي /3489) . قيل : فيه تفضيل الغنى على الفقر وليس كذلك لأن الغنى المذكور ليس الغنى بالمال ولا يجوز ظنه بالنبي – صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فقد صح عنه أنه قال : " يا أبا ذر ! ما أحب أن لي أحدا ذهبا أمسى ثالثة و عندي منه دينار إلا دينارًا أرصده لدين إلا أن أقول به في عباد الله هكذا و هكذا و هكذا يا أبا ذر ! الأكثرون هم الأقلون إلا من قال هكذا و هكذا " .

بل المراد غنى النفس القاطع عن المال الذي يقطع عن الطاعات ويشغل القلب به عن الله تعالى فالغنى المحمود هو الغنى الذي يتفرغ به القلوب عن الدنيا وعن الاهتمام بها وعن أبي هريرة مرفوعا : " ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس " والذي ظن بالمذكور غنى المال فهو ضد المنزلة التي اختارها الله تعالى له من الأحوال التي كان عليها .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الذي يُحِبُّ لقاء الله

4 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " قَالَ اللَّهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدِي لِقَائِي أَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ وَإِذَا كَرِهَ لِقَائِي كَرِهْتُ لِقَاءَهُ " . (خ /6950) .

5 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ " . قَالَ فَأَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَذْكُرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حَدِيثًا إِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَقَدْ هَلَكْنَا . فَقَالَتْ : إِنَّ الْهَالِكَ مَنْ هَلَكَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ " . وَلَيْسَ مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ وَهُوَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ . فَقَالَتْ قَدْ قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلَيْسَ بِالَّذِى تَذْهَبُ إِلَيْهِ وَلَكِنْ إِذَا شَخَصَ [1] الْبَصَرُ وَحَشْرَجَ [2] الصَّدْرُ وَاقْشَعَرَّ [3] الْجِلْدُ وَتَشَنَّجَتِ [4] الأَصَابِعُ فَعِنْدَ ذَلِكَ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ [5] أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ " . (م/7002) .

---

(1) شَخَصَ : قال الحافظ : ولكن إذا شخص البصر بفتح الشين والخاء المعجمتين وآخره مهملة أي فتح المحتضر عينيه إلى فوق فلم يطرف .

(2) حَشْرَجَ الصَّدْر : قَالَ فِي النِّهَايَة : الْحَشْرَجَة : الْغَرْغَرَة عِنْد الْمَوْت وَتَرَدُّد النَّفَس في الصدر .

(3) وَاقْشَعَرَّ الْجِلْدُ : أَيْ قَامَ شَعْرُهُ أي انتقص وأخذته رعدة لهول ما هو فيه .

(4) تشنجت : بالشين المعجمة والنون الثقيلة والجيم : أي تقبضت وهذه الأمور هي حالة المحتضر .

(5) لِقَاءَ اللَّهِ : سُئِلَ ابن تيمية – يرحمهُ اللَّهُ تَعَالَى – في مجموع الفتاوى (461/6) : – و لأهمية هذه المسألة و أنها فارقة بين أهل السنة و الجماعة و غيرهم فسأنقلها بنصها – مَا هُوَ " لِقَاءُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ؟ " الَّذِي وَصَفَ بِظَنِّهِ الْخَاشِعِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (البقرة / 46) وَأَمَرَ بِعِلْمِهِ الْمُتَّقِينَ فِي قَوْله تَعَالَى (وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُلاَقُوهُ) (البقرة / 223) وَبَشَّرَ بِالْإِقْرَارِ بِهِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ الصَّابِرِينَ وَأَشَارَ إلَى إتْيَانِ أَجَلِهِ لِلرَّاجِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ (العنكبوت /5) وَاشْتَهَرَ ذِكْرُهُ فِي غَيْرِ حَدِيثٍ مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ كَقَوْلِهِ فِي دُعَائِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " ولِقَاؤُك حَقٌّ " (خ / 1120) وَقَوْلُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ " (خ / 6507) . وَهَلْ يَصِحُّ قَوْلُ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ أَنَّهُ مُتَعَلِّقٍ بِمَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ جَزَاءُ رَبِّهِمْ أَوْ نَحْوُهُ بِكَوْنِهِ مِمَّا لَا يَصِحُّ أَنْ يُضَافَ إلَى اللَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةً فَيَسْتَحِيلُ ظَاهِرُهُ وَيَكُونُ الْمُرَادُ مِنْهُ غَيْرَ ظَاهِرِهِ وَيُصَارُ فِيهِ إلَى تَأْوِيلٍ مُعَيَّنٍ ؟ أَمْ هُوَ مُسْتَغْنٍ عَنْ ذَلِكَ لِجَوَازِهِ فِي نَفْسِهِ ؟ وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ مِنَّا مَحَبَّةُ مَنْ لَا نَعْرِفُهُ وَلَا نَطَّلِعُ عَلَيْهِ ؟ أَمْ كَيْفَ يَتَأَتَّى شَوْقُهُ وَحَنِينُ الْقُلُوبِ إلَيْهِ وَإِيثَارُهُ عَلَى مَا سِوَاهُ مِمَّا هُوَ عِنْدَنَا مَعْرُوفٌ وَلِقُلُوبِنَا مَأْلُوفٌ ؟ وَلَنَا بِهِ مَنْفَعَةٌ عَاجِلَةٌ وَلَذَّةٌ حَاصِلَةٌ وَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – كَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ وَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ . فَرَدَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَوْلَهَا بِمَا تَضَمَّنَهُ الْحَدِيثُ " مِنْ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِ مَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ النَّعِيمِ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ " الْحَدِيثَ . وَقَدْ يَعْتَرِضُ عَلَى هَذَا سُؤَالٌ وَهُوَ أَنَّهُ إذَا كَانَ حُبُّهُ اللِّقَاءَ لِمَا رَآهُ مِنْ النَّعِيمِ فَالْمَحَبَّةُ حِينَئِذٍ لِلنَّعِيمِ الْعَائِدِ إلَيْهِ لَا لِمُجَرَّدِ لِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى فَكَيْفَ يُجَازَى عَلَيْهِ بِحُبِّ اللَّهِ تَعَالَى لِقَاءَهُ وَمَحَبَّتُهُ غَيْرُ خَالِصَةٍ وَإِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْأَعْمَالِ مَا كَانَ خَالِصًا . بَيِّنُوا لَنَا هَذِهِ الْأُمُورَ الْبَيَانَ الشَّافِيَ بِالْجَوَابِ الصَّحِيحِ الْكَافِي طَلَبًا لِلْأَجْرِ الْوَافِي إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ؟ .

فَأَجَابَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ – :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، " أَمَّا اللِّقَاءُ " فَقَدْ فَسَّرَهُ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ بِمَا يَتَضَمَّنُ الْمُعَايَنَةَ وَالْمُشَاهَدَةَ بَعْدَ السُّلُوكِ وَالْمَسِيرِ ؛ وَقَالُوا : إنَّ لِقَاءَ اللَّهِ يَتَضَمَّنُ رُؤْيَتَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَاحْتَجُّوا بِآيَاتِ " اللِّقَاءِ " عَلَى مَنْ أَنْكَرَ رُؤْيَةَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْجَهْمِيَّة كَالْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ . وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّهُ قَالَ . فِي قَوْلِهِ : (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (الكهف / 110) وَلَا يُرَائِي أَوْ قَالَ : وَلَا يُخْبِرُ بِهِ أَحَدًا وَجَعَلُوا اللِّقَاءَ يَتَضَمَّنُ مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : السَّيْرُ إلَى الْمَلِكِ وَالثَّانِي مُعَايَنَتُهُ . كَمَا قَالَ : (يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ) (الانشقاق / 6) فَذَكَرَ أَنَّهُ يَكْدَحُ إلَى اللَّهِ فَيُلَاقِيهِ وَالْكَدْحُ إلَيْهِ يَتَضَمَّنُ السُّلُوكَ وَالسَّيْرَ إلَيْهِ وَاللِّقَاءُ يَعْقُبُهُمَا . وَأَمَّا الْمُعَايَنَةُ مِنْ غَيْرِ مَسِيرٍ إلَيْهِ – كَمُعَايَنَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ – فَلَا يُسَمَّى لِقَاءً . وَقَدْ يُرَادُ بِاللِّقَاءِ الْوُصُولُ إلَى الشَّيْءِ وَالْوُصُولُ إلَى الشَّيْءِ بِحَسَبِهِ . وَمِنْ دَلِيلِ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَالَ : (إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ) (الأنفال / 45) (إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ) (الأنفال / 15) وَقَالَ : (وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ) (البقرة / 14) . وَقَالَ : (وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) (البقرة / 76) وَقَالَ : (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ) (الأنفال / 44) . =

= وَقَالَ تَعَالَى : (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ) (آل عمران / 13) . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ قَالَ : " لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا " (خ / 2966) وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَقِيَهُ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ جُنُبٌ فَانْخَنَسْتُ مِنْهُ فَذَهَبَ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ : " أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ قَالَ : كُنْتُ جُنُبًا فَكَرِهْتُ أَنْ أُجَالِسَكَ وَأَنَا عَلَى غَيْرِ طَهَارَةٍ ، فَقَالَ : " سُبْحَانَ اللهِ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لاَ يَنْجُسُ " . (خ / 283) وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ بريدة أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ : " اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَ لاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ " (م / 4619) . وَفِي حَدِيثِ عتبة بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " الْقَتْلَى ثَلاَثَةٌ : رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ وَقَاتَلَهم حَتَّى يُقْتَلَ فَذَلِكَ الشَّهِيدُ الْمُمْتَحَنُ فِي جَنَّةِ اللهِ تَحْتَ عَرْشِهِ لاَ يَفْضُلُهُ النَّبِيُّونَ إِلَّا بفضل دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ ، وَرَجُلٌ فَرَقَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا ، جَاهَدَ بنَفْسِهِ وَ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَ ، قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ فَتِلْكَ ممصمصة مَحَتْ ذُنُوبُهُ وَخَطَايَاهُ ، إِنَّ السَّيْفَ مَحَّاءُ الْخَطَايَا ، وَأُدْخِلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ ، فَإِنَّ لَهَا ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ ، وَلِجَهَنَّمَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ، وَبَعْضُهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ ، وَرَجُلٌ مُنَافِقٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يُقْتَلَ ، فَذَلِكَ فِي النَّارِ إِنَّ السَّيْفَ لَا يَمْحُو النِّفَاقَ " رَوَاهُ أَحْمَد وَأَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ (قال الألباني في صحيح الترغيب 2 /66 : حسن) ، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَيُسْتَعْمَلُ " اللِّقَاءُ " فِي لِقَاءِ الْعَدُوِّ وَلِقَاءِ الْوَلِيِّ وَلِقَاءِ الْمَحْبُوبِ وَلِقَاءِ الْمَكْرُوهِ وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِيمَا يَتَضَمَّنُ مُبَاشَرَةَ الْمُلَاقِي وَمُمَاسَّتَهُ مَعَ اللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ كَمَا قَالَ : " إذَا الْتَقَى الْخِتَانَانِ " قال الألباني في صحيح ابن ماجة 611 : (صحيح) ، وَمِنْ نَحْوِ هَذَا قَوْلُهُ : (إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ) (الجمعة / 8) وَقَوْلُهُ : (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) (الإنسان / 11) وَقَوْلُهُ : (أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا) (الفرقان / 75) وَيُقَالُ : فُلَانٌ لَقِيَ خَيْرًا وَلَقِيَ شَرًّا وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ " (خ / 3792) . وَقَدْ يُقَالُ : إنَّ " اللِّقَاءَ " فِي مِثْلِ هَذَا يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الْمُشَاهَدَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) (آل عمران / 143) لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُشَاهِدُ بِنَفْسِهِ هَذِهِ الْأُمُورَ . وَقَدْ قِيلَ : إنَّ الْمَوْتَ نَفْسَهُ يُشْهَدُ وَيُرَى ظَاهِرًا . وَقِيلَ : الْمَرْئِيُّ أَسْبَابُهُ . وَقَدْ جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَلْفَاظٌ مِنْ نَحْوِ " لِقَاءِ اللَّهِ " كَقَوْلِهِ : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) (الأنعام / 94) وَقَوْلُهُ : (وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا) (الأنعام / 30) وَقَوْلُهُ : (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) (الكهف / 48) وَقَوْلُهُ : (إنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) (الفجر / 14) وَقَوْلُهُ : (إذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ) (النور / 39) وَقَوْلُهُ : (كَلاَّ لا وَزَرَ (11) إلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) (القيامة / 11 ، 12) وَقَوْلُهُ : (إنَّ إلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى) (العلق / 8) وَقَوْلُهُ : (إنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إلَيْهِ رَاجِعونَ) (البقرة / 156) وَقَوْلُهُ : (إلَيْهِ الْمَصِيرُ) (غافر / 3) وَقَوْلُهُ : (إنَّ إلَيْنَا إيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)) (الغاشية / 25 ، 26) . لَكِنْ يَلْزَمُ هَؤُلَاءِ " مَسْأَلَةٌ " تَكَلَّمَ النَّاسُ فِيهَا وَهِيَ أَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَلْقَاهُ الْكُفَّارُ وَيَلْقَاهُ الْمُؤْمِنُونَ كَمَا قَالَ : (يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنقَلِبُ إلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا (12) (الانشقاق / 6 – 12) وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الْكُفَّارِ هَلْ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ مَرَّةً ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنْهُمْ أَمْ لَا يَرَوْنَهُ بِحَالِ تَمَسُّكًا بِظَاهِرِ قَوْلِهِ : (كَلاَّ إنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) (المطففين / 15) وَلِأَنَّ الرُّؤْيَةَ أَعْظَمُ الْكَرَامَةِ وَالنَّعِيمِ وَالْكُفَّارُ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي ذَلِكَ . وَقَالَتْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالتَّصَوُّفِ : بَلْ يَرَوْنَهُ ثُمَّ يَحْتَجِبُ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي فِي الصَّحِيحِ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِمَا مَعَ مُوَافَقَةِ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ قَالُوا وَقَوْلُهُ : (لَّمَحْجُوبُونَ) يُشْعِرُ بِأَنَّهُمْ عَايَنُوا ثُمَّ حُجِبُوا وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ : (كَلاَّ إنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) (المطففين / 15) فَعُلِمَ أَنَّ الْحَجْبَ كَانَ يَوْمِئِذٍ . فَيُشْعِرُ بِأَنَّهُ يَحْتَصُّ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَذَلِكَ إنَّمَا هُوَ فِي الْحَجْبِ بَعْدَ الرُّؤْيَةِ . فَأَمَّا الْمَنْعُ الدَّائِمُ مِنْ الرُّؤْيَةِ فَلَا يَزَالُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . قَالُوا : وَرُؤْيَةُ الْكُفَّارِ لَيْسَتْ كَرَامَةً وَلَا نَعِيمًا ؛ إذْ " اللِّقَاءُ " يَنْقَسِمُ إلَى لِقَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْإِكْرَامِ وَلِقَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْعَذَابِ فَهَكَذَا الرُّؤْيَةُ الَّتِي يَتَضَمَّنُهَا اللِّقَاءُ . وَمِمَّا احْتَجُّوا بِهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ حَدِيثُ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَة حَدَّثَنَا سُهَيْلُ بْنُ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : " هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟ " (م / 469) وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُد وَأَحْمَد فِي الْمُسْنَدِ وَابْنُ خُزَيْمَة فِي التَّوْحِيدِ وَغَيْرِهِ قَالَ : (قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : " هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ ؟ " قَالُوا : لَا . قَالَ : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا " . قَالَ : فَيَلْقَى الْعَبْدُ فَيَقُولُ : " أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْك وَأُسَوِّدْك وَأُزَوِّجْك وَأُسَخِّرْ لَك الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْك تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى قَالَ : فَيَقُولُ : " فَظَنَنْت أَنَّك مُلَاقِيَّ " . فَيَقُولُ : لَا . فَيَقُولُ : " فَإِنِّي أَنْسَاك كَمَا نَسِيتنِي " . ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ : أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى أَيْ رَبِّ. فَيَقُولُ أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ فَيَقُولُ لاَ. فَيَقُولُ فَإِنِّى أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِى. ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ آمَنْت بِك وَبِكِتَابِك وَبِرُسُلِك وَصَلَّيْت وَصُمْت وَتَصَدَّقْت وَيُثْنِي بِخَيْرِ مَا اسْتَطَاعَ . فَيَقُولُ : " هَاهُنَا إذًا " . قَالَ : ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : " الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ . وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ انْطِقِي فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ . " وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ " (م / 7628) . وَأَمَّا الْجَهْمِيَّة مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ فَيَمْتَنِعُ عَلَى أَصْلِهِمْ لِقَاءُ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ يَمْتَنِعُ عِنْدَهُمْ رُؤْيَةُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَخَالَفُوا بِذَلِكَ مَا تَوَاتَرَتْ بِهِ السُّنَنُ عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – . وَمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ وَأَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ مِنْ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَاحْتَجُّوا بِحُجَجِ كَثِيرَةٍ عَقْلِيَّةٍ وَنَقْلِيَّةٍ قَدْ بَيَّنَّا فَسَادَهَا مَبْسُوطًا وَذَكَرْنَا دَلَالَةَ الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ عَلَى جَوَازِ الرُّؤْيَةِ . وَهَذِهِ " الْمَسْأَلَةُ " مِنْ الْأُصُولِ الَّتِي كَانَ يَشْتَدُّ نَكِيرُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ عَلَى مَنْ خَالَفَ فِيهَا وَصَنَّفُوا فِيهَا مُصَنَّفَاتٍ مَشْهُورَةً . وَالثَّانِي : أَنَّ عِنْدَهُمْ لَا يُتَصَوَّرُ الْكَدْحُ إلَيْهِ وَلَا الْعَرْضُ عَلَيْهِ وَلَا الْوُقُوفُ عَلَيْهِ وَلَا أَنْ يُحِبَّهُ الْعَبْدُ وَلَا أَنْ يَجِدَهُ وَلَا أَنْ يُشَارَ إلَيْهِ وَلَا أَنْ يَرْجِعَ إلَيْهِ وَلَا يَئُوبَ إلَيْهِ ؛ إذْ هَذِهِ الْحُرُوفُ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ حَالُ الْعَبْدِ بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ – وَبَيْنَهُمَا فَضْلٌ – يَقْتَضِي تَقَرُّبًا إلَيْهِ وَدُنُوًّا مِنْهُ وَأَنْ يَكُونَ حَالُ الْعَبْدِ بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِ مُخَالِفٌ لِحَالِهِ فِي الدُّنْيَا وَهَذَا كُلُّهُ مُحَالٌ عِنْدَهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يُقِرُّونَ بِأَنَّ الْخَالِقَ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقِ – كَمَا اتَّفَقَ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ وَصَرَّحُوا بِأَنَّهُ مُبَايِنٌ لِلْخَلْقِ ؛ لَيْسَ دَاخِلًا فِي الْمَخْلُوقَاتِ وَلَا الْمَخْلُوقَاتُ دَاخِلَةٌ فِيهِ – بَلْ تَارَةً يَجْعَلُونَهُ حَالًّا بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ؛ وَتَارَةً يَجْعَلُونَ وُجُودَهُ عَيْنَ وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ وَتَارَةً يَصِفُونَهُ بِالْأُمُورِ السَّلْبِيَّةِ الْمَحْضَةِ ؛ مِثْلَ كَوْنِهِ غَيْرَ مُبَايِنٍ لِلْعَالَمِ وَلَا حَالٍّ فِيهِ فَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يَصِفُوهُ بِمَا يَقْتَضِي عَدَمَهُ وَتَعْطِيلَهُ فَيُنْكِرُونَهُ وَإِنْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِهِ فَيَجْمَعُونَ – فِي قَوْلِهِمْ – بَيْنَ الْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ وَالنَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ . وَقَدْ يُصَرِّحُ بَعْضُهُمْ بِصِحَّةِ الْجَمْعِ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ وَيَقُولُ : إنَّ هَذَا غَايَةُ التَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ . وَإِمَّا أَنْ يَصِفُوهُ بِمَا يَقْتَضِي أَنَّهُ عَيْنُ الْمَخْلُوقَاتِ أَوْ جُزْءٌ مِنْهَا أَوْ صِفَةٌ لَهَا وَذَلِكَ أَيْضًا يَقْتَضِي قَوْلَهُمْ بِعَدَمِ الْخَالِقِ وَتَعْطِيلِ الصَّانِعِ ؛ وَإِنْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِوُجُودِ مَوْجُودٍ غَيْرِهِ وَإِنْ جَعَلُوهُ إيَّاهُ ثُمَّ يَجِدُونَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مُبَايِنًا فِي رُبُوبِيَّةِ الْمَخْلُوقِ فَيَقُولُونَ بِالْجَمْعِ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ – كَمَا تَقَدَّمَ – .=

= وَقَدْ يَقُولُونَ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَإِنَّ عُبَّادَ الْأَصْنَامِ عَلَى حَقٍّ وَعُبَّادَ الْعِجْلِ عَلَى حَقٍّ وَإِنَّهُ مَا عُبِدَ غَيْرُ اللَّهِ قَطُّ ؛ إذْ لَا غَيْرَ عِنْدَهُمْ ؛ بَلْ الْوُجُودُ وَاحِدٌ وَيَقُولُونَ بِامْتِنَاعِ الدَّعْوَةِ إلَيْهِ وَأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُتَقَرَّبَ إلَيْهِ وَيَصِلَ إلَيْهِ وَهُمْ يَقُولُونَ : مَا عُدِمَ فِي الْبِدَايَةِ فَيُدْعَى إلَى الْغَايَةِ ؛ بَلْ هُوَ عَيْنُ الْمَدْعُوِّ فَكَيْفَ يَدْعُو إلَى نَفْسِهِ ؟ . وَكَلَامُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ فِي ذَمِّ الْجَهْمِيَّة وَتَكْفِيرِهِمْ كَثِيرٌ جِدًّا . وَهَؤُلَاءِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ عَلَى بَعْضِ أَقْوَالِهِمْ الَّتِي تَنْفِي حَقِيقَةَ اللِّقَاءِ يَتَأَوَّلُونَ " اللِّقَاءَ " عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ لِقَاءُ جَزَاءِ رَبِّهِمْ وَيَقُولُونَ إنَّ الْجَزَاءَ قَدْ يُرَى كَمَا فِي قَوْلِهِ : (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ) (الملك / 25 – 27) فَإِنَّ ضَمِيرَ الْمَفْعُولِ فِي رَأَوْهُ عَائِدٌ إلَى الْوَعْدِ وَالْمُرَادُ بِهِ الْمَوْعُودُ أَيْ فَلَمَّا رَأَوْا مَا وُعِدُوا سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا . وَمَنْ قَالَ إنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ هُنَا إلَى اللَّهِ فَقَوْلُهُ ضَعِيفٌ وَفَسَادُ قَوْلِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْمُرَادَ " لِقَاءَ الْجَزَاءِ " دُونَ لِقَاءِ اللَّهِ مَعْلُومٌ بِالِاضْطِرَارِ بَعْدَ تَدَبُّرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَظْهَرُ فَسَادُهُ مِنْ وُجُوهٍ : – (أَحَدُهَا : أَنَّهُ خِلَافُ التَّفَاسِيرِ الْمَأْثُورَةِ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ . (الثَّانِي : أَنَّ حَذْفَ الْمُضَافِ إلَيْهِ يُقَارِنُهُ قَرَائِنُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْكَلَامِ قَرِينَةٌ تُبَيِّنُ ذَلِكَ كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ : (وسئل الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) (يوسف / 82) وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ : رَأَيْت زَيْدًا أَوْ لَقِيته مُطْلَقًا وَأَرَادَ بِذَلِكَ لِقَاءَ أَبِيهِ أَوْ غُلَامِهِ لَمْ يَجُزْ ذَلِكَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ بِلَا نِزَاعٍ وَلِقَاءُ اللَّهِ قَدْ ذُكِرَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مُطْلَقًا غَيْرَ مُقْتَرِنٍ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أُرِيدَ بِلِقَاءِ اللَّهِ لِقَاءُ بَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ مِنْ جَزَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ . (الثَّالِثُ : أَنَّ اللَّفْظَ إذَا تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ فِي الْكِتَابِ وَدَارَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ عَلَى وَجْهٍ وَاحِدٍ وَكَانَ الْمُرَادُ بِهِ غَيْرَ مَفْهُومِهِ وَمُقْتَضَاهُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ وَلَمْ يُبَيِّنْ ذَلِكَ كَانَ تَدْلِيسًا وَتَلْبِيسًا يَجِبُ أَنْ يُصَانَ كَلَامُ اللَّهِ عَنْهُ الَّذِي أَخْبَرَ أَنَّهُ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّهُ بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَأَخْبَرَ أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ بَلَّغَهُ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ وَأَنَّهُ بَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إلَيْهِمْ وَأَخْبَرَ أَنَّ عَلَيْهِ بَيَانَهُ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : مَا فِي الْعَقْلِ دَلَالَةٌ عَلَى امْتِنَاعِ إرَادَةِ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْقَرِينَةُ الَّتِي دَلَّ الْمُخَاطِبِينَ عَلَى الْفَهْمِ بِهَا ؛ لِوَجْهَيْنِ . أَحَدُهُمَا : أَنْ يُقَالَ : لَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يُنَافِي ذَلِكَ ؛ بَلْ الضَّرُورَةُ الْعَقْلِيَّةُ وَالْبَرَاهِينُ الْعَقْلِيَّةُ تُوَافِقُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ كَمَا قَالَ : (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ) (سبأ / 6) وَمَا يُذْكَرُ مِنْ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُخَالِفَةِ لِمَدْلُولِ الْقُرْآنِ فَهُوَ شُبُهَاتٌ فَاسِدَةٌ عِنْدَ مَنْ لَهُ خِبْرَةٌ جَيِّدَةٌ بِالْمَعْقُولَاتِ دُونَ مَنْ يُقَلِّدُ فِيهَا بِغَيْرِ نَظَرٍ تَامٍّ . الثَّانِي : أَنَّهُ لَوْ فُرِضَ أَنَّ هُنَاكَ دَلِيلًا عَقْلِيًّا يُنَافِي مَدْلُولَ الْقُرْآنِ لَكَانَ خَفِيًّا دَقِيقًا ذَا مُقَدِّمَاتٍ طَوِيلَةٍ مُشْكِلَةٍ مُتَنَازَعٍ فِيهَا لَيْسَ فِيهَا مُقَدِّمَةٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهَا بَيْنَ الْعُقَلَاءِ ؛ إذْ مَا يُذْكَرُ مِنْ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُخَالِفَةِ لِمَدْلُولِ الْقُرْآنِ هِيَ شُبُهَاتٌ فَاسِدَةٌ كُلُّهَا لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْبَابِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُخَاطَبَ – الَّذِي أَخْبَرَ أَنَّهُ بَيَّنَ لِلنَّاسِ وَأَنَّ كَلَامَهُ بَلَاغٌ مُبِينٌ وَهُدًى لِلنَّاسِ – إذَا أَرَادَ بِكَلَامِهِ مَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَلَا يُفْهَمُ مِنْهُ إلَّا بِمِثْلِ هَذِهِ الْقَرِينَةِ لَمْ يَكُنْ قَدْ بَيَّنَ وَهَدَى ؛ بَلْ قَدْ كَانَ لَبَّسَ وَأَضَلَّ وَهَذَا مِمَّا اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى وُجُوبِ تَنْزِيهِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بَلْ وَعَامَّةُ الصَّحَابَةِ وَالْأَئِمَّةِ مِنْ ذَلِكَ . الرَّابِعُ : أَنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ : " اللَّهُمَّ لَك الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَك الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَك الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُك حَقٌّ وَقَوْلُك حَقٌّ وَلِقَاؤُك حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ اللَّهُمَّ لَك أَسْلَمْتُ وَعَلَيْك تَوَكَّلْتُ وَبِك آمَنْتُ وَإِلَيْك أَنَبْتُ وَبِك خَاصَمْتُ وَإِلَيْك حَاكَمْتُ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ ، أَوْ – لَا إلَهَ غَيْرُك " (خ / 6317) . فَفِي الْحَدِيثِ فَرْقٌ بَيْنَ لِقَائِهِ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ . وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ تَتَضَمَّنُ جَزَاءَ الْمُطِيعِينَ وَالْعُصَاةِ فَعُلِمَ أَنَّ لِقَاءَهُ لَيْسَ هُوَ لِقَاءَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ . الْخَامِسُ : أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذَكَرَ فِي غَيْرِ حَدِيثٍ مَا يُبَيِّنُ لِقَاءَ الْعَبْدِ رَبَّهُ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ قَالَ : " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إلَّا مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إلَّا مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ أَمَامَهُ فَلَا يَرَى إلَّا مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ " (م / 2395) إلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ الْأَحَادِيثِ . السَّادِسُ : أَنَّهُ لَوْ أُرِيدَ " بِلِقَاءِ اللَّهِ " بَعْضُ الْمَخْلُوقَاتِ – إمَّا جَزَاءً وَإِمَّا غَيْرَ جَزَاءٍ – لَكَانَ ذَلِكَ وَاقِعًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَكَانَ الْعَبْدُ لَا يَزَالُ مُلَاقِيًا لِرَبِّهِ وَلَمَّا عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّ لِقَاءَ اللَّهِ لَا يَكُونُ إلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ : عُلِمَ بُطْلَانُ أَنَّ " اللِّقَاءَ " لِقَاءُ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ قَدْ جَازَى خَلْقًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِخَيْرٍ وَشَرٍّ كَمَا جَازَى قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَفِرْعَوْنَ ؛ وَكَمَا جَازَى الْأَنْبِيَاءَ وَأَتْبَاعَهُمْ وَلَمْ يَقُلْ مُسْلِمٌ إنَّ لِقَاءَ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي الدُّنْيَا لِقَاءُ اللَّهِ وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ إنَّ لِقَاءَ اللَّهِ جَزَاءٌ مَخْصُوصٌ وَهُوَ الْجَنَّةُ مَثَلًا أَوْ النَّارُ لَقِيلَ لَهُ لَيْسَ فِي لَفْظِ هَذَا لِقَاءٌ مَخْصُوصٌ وَلَا دَلِيلٌ عَلَيْهِ وَلَيْسَ هُوَ بِأَوْلَى مِنْ أَنْ يُقَالَ لِقَاءُ اللَّهِ تَعَالَى لِقَاءُ بَعْضِ مَلَائِكَتِهِ أَوْ بَعْضِ الشَّيَاطِينِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ التَّحَكُّمَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ إذْ لَيْسَ دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى تَعْيِينِ هَذَا بِأَوْلَى مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى تَعْيِينِ هَذَا فَبَطَلَ ذَلِكَ . الْوَجْهُ السَّابِعُ : أَنَّ " لِقَاءَ اللَّهِ " لَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي لِقَاءِ غَيْرِهِ لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا وَلَا اسْتَعْمَلَ لِقَاءَ زَيْدٍ فِي لِقَاءِ غَيْرِهِ أَصْلًا ؛ بَلْ حَيْثُ ذُكِرَ هَذَا اللَّفْظُ فَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ لِقَاءُ الْمَذْكُورِ ؛ إذْ مَا سِوَاهُ لَا يُشْعِرُ اللَّفْظُ بِهِ فَلَا يَدُلُّ عَلَيْهِ . الْوَجْهُ الثَّامِنُ : أَنَّ قَوْلَهُ : (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا) (الأحزاب / 43 ، 44) فَلَوْ كَانَ " اللِّقَاءُ " هُوَ لِقَاءُ جَزَائِهِ لَكَانَ هُوَ لِقَاءَ الْأَجْرِ الْكَرِيمِ الَّذِي أُعِدَّ لَهُمْ وَإِذَا أَخْبَرَ بِأَنَّهُمْ يَلْقَوْنَ ذَلِكَ لَمْ يَحْسُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْإِخْبَارُ بِإِعْدَادِهِ ؛ إذْ الْإِعْدَادُ مَقْصُودُهُ الْوُصُولُ فَكَيْفَ يُخْبِرُ بِالْوَسِيلَةِ بَعْدَ حُصُولِ الْمَقْصُودِ ؟ هَذَا نِزَاعٌ بَيْنَ الْعَيِّ الَّذِي يُصَانُ عَنْهُ كَلَامُ أَوْسَطِ النَّاسِ فَضْلًا عَنْ كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ لَا سِيَّمَا وَقَدْ قُرِنَ اللِّقَاءُ بِالتَّحِيَّةِ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا فِي اللِّقَاءِ الْمَعْرُوفِ ؛ لَا فِي حُصُولِ شَيْءٍ مِنْ النَّعِيمِ الْمَخْلُوقِ . الْوَجْهُ التَّاسِعُ : أَنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : " مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ " (خ / 6507) أَخْبَرَ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ لِقَاءَ عَبْدٍ وَيَكْرَهُ لِقَاءَ عَبْدٍ وَهَذَا يَمْتَنِعُ حَمْلُهُ عَلَى الْجَزَاءِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَكْرَهُ جَزَاءَ أَحَدٍ وَلِأَنَّ الْجَزَاءَ لَا يَلْقَاهُ اللَّهُ ؛ وَلِأَنَّهُ إنْ جَازَ أَنْ يَلْقَى بَعْضَ الْمَخْلُوقِ كَالْجَزَاءِ أَوْ غَيْرِهِ جَازَ أَنْ يَلْقَى الْعَبْدُ فَالْمَحْذُورُ الَّذِي يُذْكَرُ فِي لِقَاءِ الْعَبْدِ مَوْجُودٌ فِي لِقَائِهِ سَائِرَ الْمَخْلُوقَاتِ فَهَذَا تَعْطِيلُ النَّصِّ . وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ : بَلْ هُوَ لَاقٍ لِبَعْضِهَا فَيَتَنَاقَضُ قَوْلُ الجهمي وَيَبْطُلُ . وَدَلَائِلُ بُطْلَانِ هَذَا الْقَوْلِ لَا تَكَادُ تُحْصَى يَضِيقُ هَذَا الِاسْتِفْتَاءُ عَنْ ذِكْرِ كَثِيرٍ مِنْهَا فَضْلًا عَنْ أَكْثَرِهَا فَضْلٌ : وَأَمَّا قَوْلُ السَّائِلِ : كَيْفَ يُتَصَوَّرُ مِنَّا مَحَبَّةُ مَا لَا نَعْرِفُهُ وَلَا نَطَّلِعُ عَلَيْهِ إلَى آخِرِهِ فَيُقَالُ لَهُ : هَذِهِ مَسْأَلَةٌ أُخْرَى كَبِيرَةٌ وَهِيَ " مَسْأَلَةُ مَحَبَّةِ الْمُؤْمِنِ رَبَّهُ " فَإِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ تَنْطِقُ بِذَلِكَ كَقَوْلِهِ (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) (البقرة / 165) وَقَوْلُهُ : (قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) (آل عمران / 31) وَقَوْلُهُ : (قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) (التوبة / 24) وقوله تعالى : (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (المائدة /54) الْآيَةَ . وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ قَالَ : " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ " (خ / 16) . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ النُّصُوصِ وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ عَلَى حَقِيقَتِهَا عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَمَشَايِخِهَا وَأَوَّلُ مَنْ أَنْكَرَ حَقِيقَتَهَا شَيْخُ الْجَهْمِيَّةِ الْجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ فَقَتَلَهُ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ بِوَاسِطٍ يَوْمَ النَّحْرِ وَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَحُّوا تَقَبَّلَ اللَّهُ ضَحَايَاكُمْ فَإِنِّي مُضَحٍّ بِالْجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ إنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَّخِذْ إبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الْجَعْدُ عُلُوًّا كَبِيرًا ثُمَّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ . فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَنْكَرُوا حَقِيقَةَ " الْخِلَّةِ " لِأَنَّ الْخِلَّةَ كَالْمَحَبَّةِ وَأَنْكَرُوا حَقِيقَةَ " التَّكْلِيمِ " وَجَعَلُوا التَّكْلِيمَ مَا يَخْلُقُهُ فِي بَعْضِ الْأَجْسَامِ أَوْ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْإِلْهَامِ حَتَّى ادَّعَى طَوَائِفُ مِنْهُمْ أَنَّ أَحَدَنَا قَدْ يَحْصُلُ لَهُ التَّكْلِيمُ كَمَا حَصَلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ =

= بَلْ سَمِعَ عَيْنَ مَا سَمِعَهُ مُوسَى وَاَللَّهُ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَ اخْتِصَاصَ مُوسَى بِذَلِكَ عَنْ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ فَكَيْفَ عَنْ سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَوْلِيَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) (النساء / 163) إلَى قَوْلِهِ : (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) (النساء / 164) فَفَرَّقَ بَيْنَ الْإِيحَاءِ وَالتَّكْلِيمِ كَمَا فَرَّقَ بَيْنَ الْإِيحَاءِ وَالتَّكْلِيمِ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ فِي قَوْلِهِ : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ) (الشورى / 51) وَكَمَا بَيَّنَ هَذِهِ الْخَاصِّيَّةَ فِي قَوْلِهِ : (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) (البقرة / 253). ثُمَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا حَقِيقَةَ الْمَحَبَّةِ لَمْ يُمْكِنْهُمْ إنْكَارُ لَفْظِهَا ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَفَسَّرُوا مَحَبَّتَهُ بِعِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ أَوْ مَحَبَّةِ أَوْلِيَائِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُضَافُ إلَيْهِ ؛ وَلَوْ عَلِمُوا أَنَّ مَحْبُوبَ الْغَيْرِ لَا يَكُونُ مَحْبُوبًا إلَّا إذَا كَانَ ذَلِكَ الْغَيْرُ مَحْبُوبًا فَيَكُونُ هُوَ الْمَحْبُوبَ بِالذَّاتِ وَالْوَسَائِلِ يُحِبُّونَ بِالْعَرَضِ . وَلَوْ تَدَبَّرُوا قَوْلَهُمْ لَعَلِمُوا أَنَّهُ مُسْتَحِيلٌ أَنْ تُحَبَّ عِبَادَتُهُ أَوْ أَوْلِيَاؤُهُ إذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ مَحْبُوبًا فَإِذَا قَدَّرُوا أَنَّهُ هُوَ شَيْءٌ لَيْسَ مَحْبُوبًا لِذَاتِهِ : كَانَتْ مَحَبَّةُ الْعَمَلِ الَّذِي يَحْصُلُ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ إنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مَحَبَّةُ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالنِّكَاحِ وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ جِنْسِ مَحَبَّةِ سَائِرِ الْمُشْتَهَيَاتِ ؛ فَإِذَا تَكُونُ مَحَبَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مَحَبَّةُ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ إذَا كَانَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ عَلَى رَأْيِ هَؤُلَاءِ . وَهَذِهِ " الْمَسْأَلَةُ " أَصْلُ عِبَادَةِ اللَّهِ كَمَا أَنَّ " الْمَسْأَلَةَ الْأُولَى " أَصْلُ الْإِقْرَارِ بِاَللَّهِ ؛ فَتِلْكَ فِيهَا ذَهَابُ النَّفْسِ وَالْمَالِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ) (التوبة / 111) الْآيَةَ . وَلِهَذَا نَعَتَ الْمُحِبِّينَ الْمَحْبُوبِينَ بِقَوْلِهِ : (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ) (المائدة /54) بَلْ أَصْلُ " الْوِلَايَةِ " الْحُبُّ وَأَصْلُ " الْعَدَاوَةِ " الْبُغْضُ وَإِنْكَارُ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ يَتَضَمَّنُ إنْكَارَ وِلَايَةِ اللَّهِ وَعَدَاوَتِهِ كَمَا أَنْكَرَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ قَوْلَهُ : " إنَّهُ لَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْت " وَقَوْلُهُ : (لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء) (الممتحنة / 1) وَهَذَا بَابٌ طَوِيلٌ وَقَدْ كَتَبْت فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ عَدَدًا يَبْلُغُ أَكْثَرَ مِنْ الْأَسْفَارِ وَكَلَامُ الْأَوَّلِينَ والآخرين مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ مَوْجُودٌ فِي هَذَا . فَقَوْلُ الْقَائِلِ : كَيْفَ نَتَصَوَّرُ عِبَادَةَ مَنْ لَا نَعْرِفُهُ ؛ إذْ الْإِيمَانُ بِمَا لَا نَعْرِفُهُ أَوْ الطَّاعَةُ لِمَا لَا نَعْرِفُهُ أَوْ التَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ بِمَا لَا نَعْرِفُهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَاتِ ؛ فَهَذِهِ الْأُمُورُ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَجْهُولٍ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ؛ إذْ ذَلِكَ مُمْتَنِعٌ لَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَعْرِفَتُهُ لِلْمَعْبُودِ الْمَحْبُوبِ كَمَعْرِفَتِهِ بِنَفْسِهِ ؛ بَلْ لَيْسَ لَنَا فِي الْوُجُودِ مَنْ نُحِبُّهُ أَوْ نُبْغِضُهُ ؛ وَنَحْنُ نَعْرِفُهُ كَمَعْرِفَةِ اللَّهِ بِهِ وَالْمَعْرِفَةُ قَدْ تَكُونُ مِنْ جِهَةِ الِاسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ . وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَعْرِفُونَ رَبَّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَيَتَفَاوَتُونَ فِي دَرَجَاتِ الْعِرْفَانِ وَالنَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَعْلَمُنَا بِاَللَّهِ . وَقَدْ قَالَ : " لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْك أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْت عَلَى نَفْسِك " (م / 1118) وَهَذَا يَتَعَلَّقُ بِمَعْرِفَةِ زِيَادَةِ الْمَعْرِفَةِ وَنَقْصِهَا الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَسْأَلَةِ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنَقْصِهِ وَهِيَ مَسْأَلَةٌ كَبِيرَةٌ . وَالَّذِي مَضَى عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا : أَنَّ نَفْسَ الْإِيمَانِ الَّذِي فِي الْقُلُوبِ يَتَفَاضَلُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ ذَرَّةٌ أَوْ شَعِيرَةٌ مِنْ إيمَانٍ " قال الألباني في صحيح الترغيب 3 / 340 : (صحيح) وَأَمَّا زِيَادَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي عَلَى الْجَوَارِحِ وَنُقْصَانِهِ فَمُتَّفَقٌ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فِي دُخُولِهِ فِي مُطْلَقِ الْإِيمَانِ نِزَاعٌ وَبَعْضُهُ لَفْظِيٌّ مَعَ أَنَّ الَّذِي عَلَيْهِ أَئِمَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ – وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِمْ – أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ . وَأَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ أَهْلُ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ – مَعَ جَمِيعِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ – مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَكْفُرُ بِمُجَرَّدِ الذَّنْبِ كَمَا تَقُولُهُ الْخَوَارِجُ ؛ وَلَا يُسْلَبُ جَمِيعَ الْإِيمَانِ كَمَا تَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ ؛ لَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَالَ : إنَّ إيمَانَ الْخَلْقِ مُسْتَوٍ فَلَا يَتَفَاضَلُ إيمَانُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَإِيمَانُ الْفُسَّاقِ ؛ بِنَاءً عَلَى أَنَّ التَّصْدِيقَ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ أَوْ بِالْقَلْبِ وَذَلِكَ لَا يَتَفَاضَلُ . وَأَمَّا عَامَّةُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ فَعِنْدَهُمْ أَنَّ إيمَانَ الْعِبَادِ لَا يَتَسَاوَى بَلْ يَتَفَاضَلُ وَإِيمَانُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ أَكْمَلُ مِنْ إيمَانِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ الْمُجْرِمِينَ . ثُمَّ النِّزَاعُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْأَصْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : الْعَمَلُ ، هَلْ يَدْخُلُ فِي مُطْلَقِ الْإِيمَانِ ؟ فَإِنَّ الْعَمَلَ يَتَفَاضَلُ بِلَا نِزَاعٍ . فَمَنْ أَدْخَلَهُ فِي مُطْلَقِ الْإِيمَانِ قَالَ : يَتَفَاضَلُ . وَمَنْ لَمْ يُدْخِلْهُ فِي مُطْلَقِ الْإِيمَانِ احْتَاجَ إلَى الْأَصْلِ الثَّانِي وَهُوَ أَنَّ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ الْإِيمَانِ هَلْ يَتَفَاضَلُ ؟ فَظَنَّ مَنْ نَفَى التَّفَاضُلَ أَنْ لَيْسَ فِي الْقَلْبِ – مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ يُخْرِجُهُ هَؤُلَاءِ عَنْ مَحْضِ التَّصْدِيقِ – مَا هُوَ مُتَفَاضِلٌ بِلَا رَيْبٍ ثُمَّ نَفْسُ التَّصْدِيقِ أَيْضًا مُتَفَاضِلٌ مِنْ جِهَاتٍ : مِنْهَا أَنَّ التَّصْدِيقَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ يَكُونُ مُجْمَلًا وَقَدْ يَكُونُ مُفَصَّلًا ؛ وَالْمُفَصَّلُ مِنْ الْمُجْمَلِ ؛ فَلَيْسَ تَصْدِيقُ مَنْ عَرَفَ الْقُرْآنَ وَمَعَانِيَهُ وَالْحَدِيثَ وَمَعَانِيَهُ وَصَدَّقَ بِذَلِكَ مُفَصَّلًا كَمَنْ صَدَّقَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَكْثَرَ مَا جَاءَ بِهِ لَا يَعْرِفُهُ أَوْ لَا يَفْهَمُهُ . وَمِنْهَا : أَنَّ التَّصْدِيقَ الْمُسْتَقِرَّ الْمَذْكُورَ أَتَمُّ مِنْ الْعِلْمِ الَّذِي يُطْلَبُ حُصُولُهُ مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْهُ .

وَمِنْهَا : أَنَّ التَّصْدِيقَ نَفْسَهُ يَتَفَاضَلُ كُنْهُهُ ؛ فَلَيْسَ مَا أَثْنَى عَلَيْهِ الْبُرْهَانُ بَلْ تَشْهَدُ لَهُ الْأَعْيَانُ وَأُمِيطَ عَنْهُ كُلُّ أَذًى وَحُسْبَانٍ حَتَّى بَلَغَ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ ؛ دَرَجَاتِ الْإِيقَانِ كَتَصْدِيقِ زَعْزَعَتِهِ الشُّبُهَاتِ وَصَدَفَتْهُ الشَّهَوَاتُ وَلَعِبَ بِهِ التَّقْلِيدُ وَيَضْعُفُ لِشُبَهِ الْمُعَانِدِ الْعَنِيدِ وَهَذَا أَمْرٌ يَجِدُهُ مِنْ نَفْسِهِ كُلُّ مُنْصِفٍ رَشِيدٍ . وَلِهَذَا كَانَ الْمَشَايِخُ – أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ السَّالِكُونَ إلَى اللَّهِ أَقْصَدَ طَرِيقٍ – مُتَّفِقِينَ عَلَى الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ وَهَذِهِ مَسَائِلُ كِبَارٌ لَا يُمْكِنُ فِيهَا إلَّا الْإِطْنَابُ بِمِثْلِ هَذَا الْجَوَابِ .

فَصْلٌ : وَأَمَّا قَوْلُ السَّائِلِ : قَدْ يُعْتَرَضُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ وَهُوَ إذَا كَانَ حُبُّ اللِّقَاءِ ؛ لِمَا رَآهُ مِنْ النَّعِيمِ فَالْمَحَبَّةُ حِينَئِذٍ لِلنَّعِيمِ الْعَائِدِ عَلَيْهِ لَا لِمُجَرَّدِ لِقَاءِ اللَّهِ . فَيُقَالُ لَهُ : لَيْسَ كَذَلِكَ ؛ وَلَكِنَّ لِقَاءَ اللَّهِ عَلَى نَوْعَيْنِ : " لِقَاءِ مَحْبُوبٍ " وَ " لِقَاءِ مَكْرُوهٍ " كَمَا قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لِأَبِي حَازِمٍ سَلَمَةَ بْنِ دِينَارٍ الْأَعْرَجِ : كَيْفَ الْقُدُومُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ؟ فَقَالَ : الْمُحْسِنُ كَالْغَائِبِ يَقْدَمُ عَلَى مَوْلَاهُ وَأَمَّا الْمُسِيءُ كَالْآبِقِ يُقْدَمُ بِهِ عَلَى مَوْلَاهُ . فَلَمَّا كَانَ اللِّقَاءُ نَوْعَيْنِ – وَإِنَّمَا يُمَيِّزُ أَحَدُهُمَا عَنْ الْآخَرِ فِي الْإِخْبَارِ بِمَا يُوصَفُ بِهِ هَذَا اللِّقَاءُ وَهَذَا اللِّقَاءُ – وَصَفَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " اللِّقَاءَ الْمَحْبُوبَ " بِمَا تَتَقَدَّمُهُ الْبُشْرَى بِالْخَيْرِ وَمَا يَقْتَرِنُ بِهِ مِنْ الْإِكْرَامِ وَ " اللِّقَاءَ الْمَكْرُوهَ " بِمَا يَتَقَدَّمُهُ مِنْ الْبُشْرَى بِالسُّوءِ وَمَا يَقْتَرِنُ بِهِ مِنْ الْإِهَانَةِ ؛ فَصَارَ الْمُؤْمِنُ مُخْبِرًا بِأَنَّ لِقَاءَهُ لِلَّهِ لِقَاءُ مَحْبُوبٍ وَالْكَافِرُ مُخْبِرًا بِأَنَّ لِقَاءَهُ لِلَّهِ مَكْرُوهٌ : فَصَارَ الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ وَصَارَ الْكَافِرُ يَكْرَهُ لِقَاءَ اللَّهِ ؛ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَ هَذَا وَكَرِهَ لِقَاءَ هَذَا (جَزَاء وِفَاقًا) (النبأ / 26) . فَإِنَّ الْجَزَاءَ بِذَلِكَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ كَمَا قَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ " قال الألباني في صحيح أبي داود 4941 : (صحيح) وَكَمَا قَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ " (م / 7028) وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْإِلَهِيِّ : " مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْته فِي نَفْسِي وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْته فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ وَمَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْت مِنْهُ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْت مِنْهُ بَاعًا وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْته هَرْوَلَةً " (خ / 7405) وَقَالَ تَعَالَى : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) (النور / 22) وَقَالَ تَعَالَى : (إن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا) (النساء / 149) وَمِثْلُ هَذَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرٌ يُبَيِّنُ فِيهِمَا أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْوِتْرَ

6 – عن عَلِيٍّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" إِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ فَأَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ " .

تحقيق الألباني : صحيح ، ابن ماجة (1169) (صحيح الترمذي / 453) .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ سَمْحَ الْبَيْعِ سَمْحَ الشِّرَاءِ سَمْحَ الْقَضَاءِ

7 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ سَمْحَ [1] الْبَيْعِ سَمْحَ الشِّرَاءِ سَمْحَ الْقَضَاءِ [2] " .

(صحيح الترمذي / 1319) . تحقيق الألباني : صحيح ، الصحيحة (8909) .

---

(1) سَمْحَ الْبَيْعِ : بِفَتْحِ السِّينِ وَسُكُونِ الْمِيمِ أَيْ سَهْلًا فِي الْبَيْعِ وَجَوَادًا يَتَجَاوَزُ عَنْ بَعْضِ حَقِّهِ إِذَا بَاعَ . قَالَ الْحَافِظُ : السَّمْحُ الْجَوَادُ يُقَالُ سَمَحَ بِكَذَا إِذَا جَادَ وَالْمُرَادُ هُنَا الْمُسَاهَلَةُ . أي سهل إذا باع أحدًا شيئًا سهل إذا اشترى من غيره شيئًا ، وسهل إذا قضى ما عليه .

(2) سمح الشراء سمح القضاء : أي : التقاضي لشرف نفسه وحسن خلقه بما ظهر من قطع علاقة قلبه بالمال أي سهله . وفي الحديث الحض على المسامحة وحسن المعاملة واستعمال محاسن الأخلاق ومكارمها وترك المشاحة في البيع وذلك سبب لوجود البركة لأنه لا يحض أمته إلا على ما فيه النفع لهم دينا ودنيا وأما فضله في الآخرة فقد دعا بالرحمة والغفران لفاعله فمن أحب أن تناله هذه الدعوة فليقتد به وليعمل به وفيه ترك التضييق على الناس في المطالبة وأخذ العفو منهم وقال ابن حبيب تستحب السهولة في البيع والشراء وليس هي تلك المطالبة فيه إنما هي ترك المضاجرة ونحوها .

الذي يُؤَدي الأمانة و يَصدُق الحديث و يُحسن الجِوَارَ

8 – عَنْ أَبِي قُرَادٍ السُّلَمِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : قال النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ يُحِبَّكُمُ اللَّهُ تعالى وَرَسُولهُ ، فَأَدُّوا إِذَا ائْتُمِنْتُمْ ، وَاصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ ، وَأَحْسِنُوا جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكُمْ " .

(طب) .

قال الشيخ الألباني : (حسن) انظر حديث رقم : 1409 في صحيح الجامع .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْجَمَالَ

9 – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ [1] قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ [2] وَغَمْطُ النَّاسِ [3] " . (م / 131) .

---

(1) مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ : قال أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي في (كشف المشكل من حديث الصحيحين 214/1) : المثقال : مفعال من الثقل ، ومثقال الشيء : زنة الشيء ، يقال : هذا على مثقال هذا أي على وزنه . وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي فقال : يظن الناس أن المثقال وزن دينار لا غير وليس كما يظنون مثقال كل شيء وزنه وإن كان وزن ألف وقال أبو حاتم سألت الأصمعي عن صنجة الميزان فقال : فارسي معرب ولا أدري كيف أقول ولكنني أقول مثقال . واختلف العلماء في المراد بالذرة على خمسة أقوال : أحدها : أنها رأس نملة حمراء ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، والثاني : ذرة يسيرة من التراب ، رواه يزيد بن الأصم عن ابن عباس ، والثالث : أصغر النمل ، قاله ابن قتيبة ، والرابع : الخردلة . والخامس : الواحدة من الهباء الظاهر في ضوء الشمس إذا طلعت من ثقب ، ذكرهما أبو إسحق الثعلبي .

فأما الكبر : فهو العظمة ، يقال : تكبر فلان عن كذا إذا تعظم عنه . قال سفيان بن عيينة : من رأى أنه خير من غيره فقد استكبر ، فإن قيل : فالكبر لا يوجب الكفر فكيف يمنع دخول الجنة ؟ فالجواب من ستة أوجه : أحدها : أن يراد بالجنة بعض الجنان لأنها جنان في جنة فيكون المعنى لا يدخل الجنة التي هي أشرف الجنان وأنبلها ويشهد لهذا ما روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال لا يدخل حظيرة القدس سكير ولا عاق ولا منان ، والثاني : أن تكون مشيئة الله تعالى مضمرة في هذا الوعيد فيكون المعنى إلا أن يشاء الله ، ذكر القولين ابن خزيمة ، والثالث : أن يكون المراد كبر الكفر كما قال تعالى : (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ) (الصافات / 35) أي يتعظمون عن قولها فعلى هذا كبر الكافر منعه من الإيمان فلا يدخل الجنة يدل على صحة هذا الوجه أنه قابل الكبر بالإيمان فقال ولا يدخل النار أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، والرابع : أن يكون المعنى حكم هذا ألا يدخل الجنة وحكم هذا ألا يدخل النار كقوله تعالى في قاتل المؤمن : (فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا) (النساء / 93) أي إن جازاه فهذا قدر استحقاقه ومثل هذا في الكلام أن ترى دارًا صغيرة فتقول هذه الدار لا ينزلها أمير أي حكمها هذا وقد ينزلها ، والخامس : أن الناس إذا وقفوا في العرض ميز من يدخل الجنة ممن يدخل النار فالعصاة يدخلون النار لا الجنة فأما خروجهم بعد احتراقهم فذاك حكم آخر فكأن المراد لا يدخل الجنة ابتداء وإنما يدخل النار وعلى هذا تفسير قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لا يدخل الجنة قتات " (خ / 6056) والسادس : أنه إذا أذن لأهل الجنة في الدخول نزع كبر المتكبر وغل الحقود كما قال تعالى : (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ) (الأعراف / 43) وهذا اختيار أبي بكر الأثرم ، قال ابن عباس أول ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان فيشربون من إحدى العينين فيذهب الله ما في قلوبهم من غل وغيره مما كان في الدنيا ثم يدخلون إلى العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم وتجري عليهم نضرة النعيم . و قال النووي على صحيح مسلم (2/ 91) : فقد اختلف فى تأويله فذكر الخطابى فيه وجهين أحدهما : أن المراد التكبر عن الايمان فصاحبه لا يدخل الجنة أصلا اذا مات عليه ، والثانى : أنه لا يكون فى قلبه كبر حال دخوله الجنة كما قال الله تعالى : (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ) (الأعراف / 43) وهذان التأويلان فيهما بُعد فإن هذا الحديث ورد فى سياق النهى عن الكبر المعروف وهو الارتفاع على الناس واحتقارهم ودفع الحق فلا ينبغى أن يحمل على هذين التأويلين المخرجين له عن المطلوب بل الظاهر ما اختاره القاضي عياض وغيره من المحققين أنه لا يدخل الجنة دون مجازاة إن جازاه ، وقيل : هذا جزاؤه لو جازاه وقد يتكرم بأنه لا يجازيه بل لا بد أن يدخل كل الموحدين الجنة إما أولًا وإما ثانيًا بعد تعذيب بعض أصحاب الكبائر الذين ماتوا مصرِّين عليها ، وقيل : لا يدخلها مع المتقين أول وهلة ، و قال العثيمين في (شرح رياض الصالحين 646/1) : هذا الحديث من أحاديث الوعيد التي يطلقها الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – تنفيرًا عن الشي وإن كانت تحتاج إلى تفصيل حسب الأدلة الشرعية . فالذي في قلبه كبر ، إما أن يكون كبرًا عن الحق وكراهة له ، فهذا كافر مخلد في النار ولا يدخل الجنة ، لقول الله تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) (محمد / 9) ولا يحبط العمل إلا بالكفر لقوله تعالى: (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة / 217) وأما إذا كان كبرًا على الخلق وتعاظمًا على الخلق ، لكنه لم يستكبر عن عبادة الله فهذا لا يدخل الجنة دخولًا كاملًا مطلقًا لم يسبق بعذاب بل لابد من عذاب على ما حصل من كبره وعلوائه على الخلق ثم إذا طُهِّر دخل الجنة ولما حدّث النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بهذا الحديث قال رجل يا رسول الله : الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة يعني فهل هذا من الكبر ؟ فقال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ " جميل في ذاته جميل في أفعاله جميل في صفاته كل ما يصدر عن الله عز وجل فإنه جميل وليس بقبيح بل حسن تستحسنه العقول السليمة ، وتستسيغه النفوس .

(2) بَطَرُ الْحَقِّ : رَدُّهُ عَلَى قَائِلِهِ و دفعه وانكاره ترفعًا وتجبرًا وعدم الانقياد إليه . وبطر الحق أبطله وتكبر عن الإقرار به وطغى في دفعه والبطر في النعمة قلة شكرها والتصرف معها في ما لا ينبغي التصرف فيه وفي النهاية بطر الحق هو أن يجعل ما يجعله الله حقا من توحيده وعبادته باطلا وقيل هو أن يتجبر عند الحق فلا يراه حقا وقيل هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله ورأى الحق سفهًا أو هو أن يجْعل ما جعله اللّه حقًّا من تَوْحِيده وعبادته باطلا . وقيل هو أن يتَجبَّر عند الحقّ فلا يراه حَقًّا . وقيل هو أن يتكبَّر عن الحق فلا يقبلُه . وأصل البطر شدة الفرح والنشاط والمراد هنا قيل سوء احتمال الغنى وقيل الطغيان عند النعمة والمعنيان متقاربان .

(3) غَمْطُ النَّاسِ : أَيْ احْتِقَارُهُمْ يقال فى الفعل منه غمطه بفتح الميم يغمطه بكسرها وغمطه بكسر الميم يغمطه بفتحها قال في المجمع الغمط الاستهانة والاستحقار .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبَّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ

10 – عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" إِنَّ اللَّهَ يُحِبَّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ " .

تحقيق الألباني : حسن صحيح غاية المرام (75) (صحيح الترمذي / 2819) .

11 – عن زهير بن أبي علقمة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

" إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالا فَلْيُرَ عَلَيْكَ فإِنَّ اللَّهَ يُحِبَّ أَنْ يَرَى أَثَرَه عَلَى عَبْدِهِ حسنًا و لا يحب البؤس[1] و لا التباؤس[2] " . (تخ طب الضياء) عن زهير بن أبي علقمة .

تحقيق الألباني : (حسن) انظر حديث رقم : 255 في صحيح الجامع .

---

(1) لا يحب البؤس : أي الخضوع للناس .

(2) التباؤس : بالمد وقد يقصر أي إظهار التمسكن والتخلقن والشكاية لأن ذلك يؤدي لاحتقار الناس له وإزدرائهم إياه وشماتة أعدائه فأما إظهار العجز فيما بينه وبين ربه بلا كراهة لقضائه ولا تضجر فمطلوب .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلاَقِ

12 – عن سهل بن سعد – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلاَقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا [1] " .

تخريج السيوطي (ك) . تحقيق الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : 1889 في صحيح الجامع .

---

(1) سفسافها : أي رَدِيئَها وخَسِيسَهَا وحقيرها ، و سفسف هو فى الأصل ما تَهَبَّى من غُبار الدقيق إذا نُخِل . ودُقاق التراب . ويقال : سَفْسَفْتُ الدَّقيق ثم شبه به كلّ وسخ ردىء ، و السفْساف : الأمرُ الحقيرُ والردىء من كل شيء وهو ضدّ المعالِى والمكارِم . وأصله ما يطير من غُبار الدقيق إذا نُخِل والترابِ إذا أثير .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الذي يتقن عمله

13 – عن عائشة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْها – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ " .

تخريج السيوطي (هب) .

تحقيق الألباني (حسن) انظر حديث رقم : 1880 في صحيح الجامع .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أن يُحلَفَ به

14 – عن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" احلفُوا بالله وَ بَروا [1] و اصدُقوا فإن الله يُحبُ أن يُحلَفَ به " .

تخريج السيوطي (حل) . تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم : 211 في صحيح الجامع .

---

(1) وبروا : بفتح الموحدة أي (واصدقوا) في حلفكم .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ

15 – عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قال قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ [1] ، كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ [2] " .

رواه البزار بإسناد حسن والطبراني وابن حبان في صحيحه

قال الشيخ الألباني : (صحيح) (صحيح الترغيب/1060) .

---

(1) تؤتى رخصه : جمع رخصة ، وهي : تسهيل الحكم على المكلف لعذر حصل ، وقيل غير ذلك لما فيه من دفع التكبر والترفع من استباحة ما أباحته الشريعة ، ومن أنف ما أباحه الشرع وترفع عنه فسد دينه فأمر بفعل الرخصة ليدفع عن نفسه تكبرها ، ويقتل بذلك كبرها ويقهر النفس الأمارة بالسوء على قبول ما جاء به الشرع ومفهوم محبته لإتيان الرخص أنه يكره تركه .

(2) تؤتى عزائمه : أي مطلوباته الواجبة فإن أمر الله في الرخص والعزائم واحد .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ رَجُلًا غزَا فِي سَبِيلِ اللهِ صابرًا مُحْتَسِبًا فَقَاتَلَ حتى قُتل و رجلًا كان له كان لَهُ جَارُ سَوْءٍ يؤذيه فَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ حتى يَكْفِيه اللَّهُ إِيَّاهُ

16 – عن مُطَرِّف يعني ابن عَبْدِ اللهِ قال : كَانَ يُبَلِّغُنِي عَنْ أَبِي ذَرٍّ ، حَدِيثًا كُنْتُ أَشْتَهِي لِقَاءَهُ ، فَلَقِيتُهُ ، فَقُلْتُ : يا أبا ذر كان يبلغني عنك حديث وكُنْتُ أَشْتَهِي لِقَاءَكَ ، قَالَ : لِلَّهِ أَبُوكَ ، فَلَقَدْ لَقِيتَ فَهَاتِ ، قُلْتُ : حديث بلغني أن رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حدثك قال :

" إن الله عز وجل يُحِبُّ ثَلاَثَةً وَيَبْغَضُ ثَلاَثَةً "

قال : فما أَخَالُنِي أَكْذِبُ عَلَى رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – . قَالَ : قُلْتُ : فَمَنْ هَؤُلاَءِ الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ عز وجل ؟ قَالَ : رَجُلٌ غزَا [1] فِي سَبِيلِ اللهِ صابرًا مُحْتَسِبًا فَقَاتَلَ حتى قُتل " وَأَنْتُمْ تَجِدُونَهُ عندكم فِي كِتَابِ اللهِ عز وجل ثم تلا (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ) (الصف / 4) قُلْتُ : وَمَنْ ؟ قَالَ : " رَجُلٌ كان لَهُ جَارُ سَوْءٍ يؤذيه فَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ حتى يَكْفِيه اللَّهُ إِيَّاهُ بِحَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ " .

قال الشيخ الألباني : (صحيح) (صحيح الترغيب/2569) .

---

(1) غزا : أي خرج للغزو وأصل الغزو القصد ومغزى الكلام مقصده ، و في القاموس : غزا العدو سار إلى قتالهم وغزا في سبيل الله أي أراد الجهاد .

الذي يُحِبُّ أخاه المسلم فِى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

17- عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِى قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ [1] اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ [2] مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَخًا لِى فِى هَذِهِ الْقَرْيَةِ . قَالَ : هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا [3] ؟ قَالَ : لاَ غَيْرَ أَنِّى أَحْبَبْتُهُ فِى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . قَالَ : فَإِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ " . (م /6714) .

18- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَجُلاً كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّى لأُحِبُّ هَذَا . فَقَالَ لَهُ النَّبِىُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" أَعْلَمْتَهُ ؟ " . قَالَ : لاَ ، قَالَ : " أَعْلِمْهُ " . قَالَ : فَلَحِقَهُ فَقَالَ إِنِّى أُحِبُّكَ فِى اللَّهِ . فَقَالَ أَحَبَّكَ الَّذِى أَحْبَبْتَنِى لَهُ .

(صحيح أبي داود / 5125) تحقيق الألباني : حسن ، المشكاة (5017) ، الصحيحة (3253) .

19- عن أنس بن مالك – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" مَا تَحَابَّ رَجُلاَنِ فِي اللهِ إِلاَّ كَانَ أحبهما إلى الله عز وجل أشدهما حبًا لصاحبه " .

رواه الطبراني وأبو يعلى ورواته رواة الصحيح إلا مبارك بن فضالة ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم إلا أنهما قالا : " كان أَفْضَلُهُمَا أَشَدَّهما حُبًّا لِصَاحِبِهِ " .

وقال الحاكم صحيح الإسناد .

قال الشيخ الألباني :: (صحيح الترغيب/3014 – حسن صحيح) .

---

(1) فَأَرْصَدَ : أي قعد ، و أرصد : أقام رصدًا أي منتظرًا له ، فأرصد الله له على مدرجته : أي أعد وهيأ أو أقعد في طريقه ملكًا وفي النهاية أي وكله بحفظ مدرجته يقال : رصدته إذا قعدت له على طريقه تترقبه .اهـ .

(2) مَدْرَجَتِهِ : بفتح الميم والراء والجيم أي محل دروجه : أي في طريقه و المدرجة : هي الطريق سميت بذلك لأن الناس يدرجون عليها أي يمضون ويمشون وجمعها مدارج .

(3) تَرُبُّهَا : بفتح المثناة الفوقية وضم الراء وشدة الموحدة أي تملكها وتستوفيها أو معناه أي تَحْفَظُها وتُراعيها وتُرَبِّيها كما يُرَبِّي الرجل ولده أو تراعيها لتدوم لك أي : تقوم بها، وتسعى في صلاحها ، أي هل هو مملوكك أو ولدك أو غيرهما ممن هو في نفقتك وشفقتك لتحسن إليه من رب فلان الضيعة أي أصلحها وأتمها أي تقوم بشكرها أو هل لك نعمة داعية على زيارته تربها أي تحفظها أو تستزيدها بالقيام على شكرها ، وقال الطيبي : أي هل أوجبت عليه شيئًا من النعم الدنيوية تذهب إليها فتربها أي تملكها منه وتستوفيها .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الغني الحليم المتعفف

20 – عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ [1] و مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الغني الحليم المتعفف [2] ويبغض البذيء [3] الفاجر[4] السائل المُلِحّ [5] " .

رواه البزار .

قال الشيخ الألباني : (صحيح لغيره) (صحيح الترغيب/819) .

(1) بوائقه : أي غَوائِلَهُ وشُرُورَه وَاحِدها بائِقَة وهي الدَّاهِيَة أو الامر المهلك وهي الغائلة والفتك والمراد الشرور كالظلم والغش والايذاء .

قال العثيمين في شرح رياض الصالحين (1/ 364) :

لا يأمن جاره بوائقه يعني غدره وخيانته وظلمه وعدوانه فالذي لا يأمن جاره من ذلك ليس بمؤمن وإذا كان يفعل ذلك ويوقعه فعلا فهو أشد وفي هذا دليل على تحريم العدوان على الجار سواء كان ذلك بالقول أو بالفعل أما بالقول فأن يسمع منه ما يزعجه ويقلقه كالذين يفتحون الراديو أو التليفزيون أو غيرهما مما يسمع فيزعج الجيران فإن هذا لا يحل له حتى لو فتحه على كتاب الله وهو مما يزعج الجيران بصوته فإنه معتد عليهم ولا يحل له أن يفعل ذلك وأما بالفعل فيكون بإلقاء الكناسة حول بابه والتضييق عليه عند مداخل بابه أو بالدق أو ما أشبه ذلك مما يضره ومن هذا أيضا إذا كان له نخلة أو شجرة حول جدار جاره فكان يسقيها حتى يؤذي جاره بهذا السقي فإن ذلك من بوائق الجار فلا يحل له إذن يحرم على الجار أن يؤذي جاره بأي شيء فإن فعل فإنه ليس بمؤمن والمعنى أنه ليس متصفا بصفات المؤمنين في هذه المسألة التي خالف بها الحق .

(2) المتعفف : المتكلف العفة وهي كف ما ينبسط للشهوة من الآدمي إلا بحقه أي المبالغ في العفة مع وجود الحاجة لطموح بصيرته عن الخلق إلى الخالق .

(3) البذيء : بالذال المعجمة ممدودا هو المتكلم بالفحش أي الخارج عن الاعتدال من القول (ورديء الكلام) وقال العاقولي: البذي هو السيء الخلق ، وهو ملازم لما قبله لأن الفحش إنما يصدر عنه .

(4) الفاجر : من الفجور قال الجوهري فجر فجورًا أي فسق وفجر أي كذب وأصله الميل والفاجر المائل إلى الباطل المعلن بفسقه الغير مبال بما ارتكبه من القبائح المائل عن الحق ويقال للكاذب فاجر لأنه مال عن الصدق و قيل أي الفاسق .

(5) السائل المُلِحّ : أَلَحَّ الرَّجُلُ عَلَى شَيْءٍ إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ مُوَاظِبًا أَلَحَّ بالشْيءِ إذا لزِمَه واَصَرَّ عليه . و المقصود : الشحاذ أو المتسول .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعُطَاسَ

21 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعُطَاسَ وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ فَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يُشَمِّتَهُ [1] وَأَمَّا التَّثَاؤُبُ [2] فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ الشَّيْطَانِ [3] فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ [4] فَإِذَا قَالَ هَا [5] ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ [6] " .

(خ /5755) .

---

(1) يُشَمِّتَهُ : والتشميت : جواب العاطس بيرحمك الله . قال أبو السعادات المبارك بن الجزري في النهاية في غريب الحديث والأثر (2 /1213) : التشْمِيتُ بالشين والسِّين : الدُّعاءُ بالخَيْر والبَرَكةِ والمُعْجَمَةُ أعْلاهُما . يقال شمَّت فلاناً وشمَّت عليه تَشْميتا فهو مُشَمِّت واشتقاقُه من الشَّوامِت وهي القوَائِم كأنه دَعاَ للعاطِس بالثَّبات على طاعةِ اللّهِ تعالى . وقيل معناه : أبْعَدَك اللّهُ عن الشَّماتة وجَنَّبك ما يُشْمَت به عليك .

(2) التثاؤب : بالهمز وقيل بالواو وهو تنفس ينفتح معه الفم بلا قصد وذلك لأنه يكون عن كثرة الغذاء المذمومة وثقل البدن وهو مَصْدر تثَاءب والاسم الثُّؤَبَاء .

(3) من الشيطان : أي : من تكسله وتسببه وقيل : أضيف إليه ، لانه يرضيه. أضافه إليه لكراهته .قال أبو السعادات المبارك بن الجزري في النهاية في غريب الحديث والأثر (1 /571) : وإنَّما جعله من الشيطان كَراهَةً لَه لأنه يكون مع ثِقَل البَدن وامْتِلائه واسْتِرخائه ومَيْلِه إلى الكَسل والنَّوم فأضافه إلى الشيطان لأنه الذي يدعُو إلى إعطاء النَّفْس شَهْوَتَها وأراد به التَّحْذيرَ من السَّبب الذي يتَولَّد منه وهو التَّوسُّع في المطْعَم والشِّبَع فَيَثْقُل عن الطاعات ويكْسَل عن الخيرات .

(4) فليرده ما استطاع : أي فليكظم فمه وليمسك بيده عليه أَيْ يَأْخُذ فِي أَسْبَاب رَدّه ، وَلَيْسَ الْمُرَاد بِهِ أَنَّهُ يَمْلِك دَفْعه لِأَنَّ الَّذِي وَقَعَ لَا يُرَدّ حَقِيقَة وفي معنى وضع اليد على الفم وضع الثوب ونحوه ما يحصل ذلك المقصود ، ويستثنى ذلك من النهي عن وضع المصلي يده على فمه. ومما يؤمر به المتثاءب في الصلاة أن يمسك عن القراءة حتى يذهب عنه ، لئلا يتغير نظم قراءته .

(5) فَإِذَا قَالَ هَا : حكاية لصوت المتثائب ، أي : وفتح فمه و أصدر صوتًا .

(6) ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ : فرحًا بذلك ومحبة له و فرحًا بموافقة غرضه المذموم فأضافه إليه كأنه يحبه ويرتضيه ويتوسل به إلى ما يبتغيه من الكسل عن الصلاة والفتور عن العبادة ولأنه إنما يغلب غالبًا من الشره وشدة الشبع الذي هو من عمل الشيطان والشيطان هو الداعي إلى إعطاء النفس حظها من الشهوة .

الذي يُحِبُّ الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

22 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي طَائِفَةٍ مِنْ النَّهَارِ لَا يُكَلِّمُنِي وَلَا أُكَلِّمُهُ حَتَّى جَاءَ سُوقَ بَنِي قَيْنُقَاعَ ثُمَّ انْصَرَفَ حَتَّى أَتَى خِبَاءَ [1] فَاطِمَةَ فَقَالَ :
" أَثَمَّ لُكَعُ [1] أَثَمَّ لُكَعُ يَعْنِي حَسَنًا فَظَنَنَّا أَنَّهُ إِنَّمَا تَحْبِسُهُ أُمُّهُ لِأَنْ تُغَسِّلَهُ وَتُلْبِسَهُ سِخَابًا [1] فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ يَسْعَى حَتَّى اعْتَنَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ وَأَحْبِبْ مَنْ يُحِبُّهُ " . (م /4446) .

23 – عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ كَانَ يَأْخُذُهُ وَالْحَسَنَ وَيَقُولُ : " اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا " أَوْ كَمَا قَالَ . (خ /3747) .

---

(1) خِبَاءَ : بِكَسْرِ الخاء المعجمة وتخفيف الباء الموحدة وَمَدّ وهي خيمة أو هو أحدُ بُيوت العرب ، فِي الصِّحَاح : هُوَ وَاحِد الْأَخْبِيَة وَهُوَ مِنْ وَبَر أَوْ صُوف وَلَا يَكُون مِنْ شَعْر وَهُوَ عَلَى عَمُودَيْنِ أَوْ ثَلَاثَة وَمَا فَوْق ذَلِكَ فَهُوَ بَيْت. والجمع أخْبِيه وعن ابن دريد : الخباء مشتق من خبأت خبيئًا ، ويقال : تخبأت ، وعن الفارسي : أصل هذه الكلمة التغطية ، وقال ابن دريد : الأخبية بيوت الأعراب وإذا ضخم الخباء فهو بيت ، وقال الكلبي : بيوت العرب ستة : 1– مظلة من شعر 2– خباء من صوف 3– بجاد من وبر 4– خيمة من شجر 5– أفنة من حجر 6– قبة من أدم .

(2) لُكَعُ : بضم اللام وفتح الكاف أي لئيم أي رديء النسب دنيء الحسب وقيل : أراد به من لا يعرف له أصل ولا يحمد له خلق قاله القارىء وقال في النهاية : اللكع عند العرب العبد ثم استعمل في الحمق والذم يقال للرجل : لكع وللمرأة : لكاع ، وقد لكع الرجل يلكع لكعًا فهو ألكع وأكثر ما يقع في النداء وهو اللئيم وقيل : الوسخ ، وقد يطلق على الصغير ، وقال أبو عبيد اللكع عند العرب العبد قال الليث هو وصف بالحمق يقال رجل لكيع ولكع الرجل يلكع لكعًا فهو ألكع ولكع وملكعان وامرأة لكاع وملكعانة وسئل بلال بن جرير عن لكع فقال : هو في لغتنا الصغير وإلى هذا ذهب الحسن وفي الحديث أثم لكع أراد الصغير في السن فإذا قيل للكبير أريد الصغير في العلم والمعرفة وقال الأصمعي الأصل في لكع من الملاكيع وهي التي تخرج من السلا على الولد وكذلك قال قوم اشتقاقها من اللكع وهو الوسخ قال ابن الجوزي في غريب الحديث (2م/330) : " في الحديث لَكَعٌ بن لَكَعٍ وفي معناه ثلاثةُ أقوالٍ : أحدها : أنه العبدُ أو اللئيم قاله أبو عبيد ، قال الليث : يقال لَكِعَ الرجلُ يَلْكَعُ لَكَعاً فهو ألْكَعُ ولُكَع ومِلْكَعَان وامرأةٌ لَكَاع ومَلْكَعَانة ورجلٌ لكيع كل ذلك يُوصَفُ به الحُمْق . والثاني : أنه الغبي بِأَمْرِهِ الذي لا يتجه ولا عِبْرة ، قال الأصمعي : واختاره الأزهريُّ قال : ومنه أن رسول الله جاء إلى بيتٍ فقال : أين لُكَع فأراد أنه لِصغره لا يَتَّجهُ لما يُصْلِحُهُ ولا يريد به أنه عبدٌ ولا لئيم . والثالث : أنه الصغيرُ . وكان الحَسَنَ إذا قال لإنسانٍ يا لُكَع يريدُ يا صغيرًا في العِلْم حكاه الأزهريُّ .

(3) السِّخَاب : بِكَسْرِ السِّين الْمُهْمَلَة وَبِالْخَاءِ الْمُعْجَمَة ، جَمْعُهُ سُخُب وَهُوَ قِلَادَةٌ مِنْ الْقُرُنْفُل وَالْمِسْك وَالْعُود وَنَحْوهَا مِنْ أَخْلَاط الطِّيب ، يُعْمَلُ عَلَى هَيْئَةِ السُّبْحَة ، وَيُجْعَلُ قِلَادَة لِلصِّبْيَانِ وَالْجَوَارِي ، وَقِيلَ : هُوَ خَيْط فِيهِ خَرَز سُمِّيَ سِخَابًا لِصَوْتِ خَرَزه عِنْد حَرَكَته مِنْ السَّخَب بِفَتْحِ السِّين وَالْخَاء ، يُقَالُ : الصَّخَب بِالصَّادِ . وَهُوَ اِخْتِلَاط الْأَصْوَات . وَفِي هَذَا الْحَدِيث جَوَاز إِلْبَاس الصِّبْيَان الْقَلَائِد وَالسَّخَب وَنَحْوهَا مِنْ الزِّينَة ، وَاسْتِحْبَاب تَنْظِيفهمْ لَا سِيَّمَا عِنْد لِقَائِهِمْ أَهْل الْفَضْل ، وَاسْتِحْبَاب النَّظَافَة مُطْلَقًا .

اللهُ يُحبُ الْحِلْمَ وَ الْأَنَاةَ

24 – وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِلْأَشَجِّ – أَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ – :

" إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ (1) يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ (2) وَالْأَنَاةُ (3) " . (م /24) .

25 – عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ :

" إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ " .

قال الشيخ الألباني : صحيح ، ابن ماجة (4188) (صحيح الترمذي /2011) .

---

(1) خَصْلَتَيْنِ : تثنية خصلة بالفتح وهي كما في الصحاح : الخلة ، وفي الأساس : الخصلة : المرة من الخصل وهي الغلبة في الفضائل يقال : فضلهم خصلة وخصالًا وأصل الخصل : القطع ، قال : ومن المجاز فيه خصلة حسنة ، وخصال وخصالات كرام ، و في العين : الخَصْلة : الفَضِيلة والرَّذيلة تكون في الإنسان وقد غلب على الفضيلة وجمعها خِصَال ، والخَصْلة : الخَلَّة : قال الليث : الخَصْلة : حالات الأُمور ، تقول : في فلان خَصْلة حَسَنة ، وخَصْلة قبيحة ، وخِصال وخَصَلات كريمة .

(2) الْحِلْمُ : بكسر المهملة وسكون اللام : وهو الصفح ، وفي «المصباح» : حلم بالضم حلماً بالكسر : صفح وستر فهو حليم وحلمته نسبته إلى الحلم

أما الحلم: أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب إذا حصل غضب وهو قادر فإنه يحلم ولا يعاقب ولا يعجل بالعقوبة ، قال النووي : الحلم هو العقل والأناة هي التثبت وترك العجلة .

(3) الْأَنَاةُ : : بفتح أوليه والألف مقصورة بوزن حصاة اسم مصدر من تأنى في الأمر تمكث ولم يعجل ، والأناة بفتح الهمزة مقصورة قال الجوهري الأناة على وزن قناة يقال تأنى في الأمر أن توقف وانتظر ورجل آن على وزن فاعل أي كثير الأناة وقال القاضي آنيت ممدودا وأنيت وتأنيت وزاد غيره استأنيت واصل الحلم بالكسر العقل ، قال النووي : وأما الأناة : فهو التأني في الأمور وعدم العجلة ، وألا يأخذ الإنسان الأمور بظاهرها فيتعجل ويحكم على الشيء قبل أن يتأنى فيه وينظر .

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُحبُ عمرَ بنَ الخطاب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –

26 – عَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – : أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ " قَالَ : وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ .

قال الشيخ الألباني : صحيح (صحيح الترمذي /3681) .

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُحبُ الْمُتَحَابِّينَ فيه و الْمُتَوَاصِلِينَ فيه و الْمُتَنَاصِحِينَ فيه و الْمُتَزَاوِرِينَ فيه و الْمُتَبَاذِلِينَ فيه وَ الْمُتَجَالِسِينَ فيه و الَّذِينَ يَتَصَادَقُونَ مِنْ أَجْلِه

27 – عن عبادة بن الصامت – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : قال الله تعالى : " حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَنَاصِحِينَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ ؛ المتحابون فِيَّ على منابر من نور يغبطهم بمكانهم النبيون و الصديقون و الشهداء " .

(حم طب ك).

قال الشيخ الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : 4321 في صحيح الجامع

28– عن معاذ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : قال الله تعالى : " وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ والْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ والْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ " .

(حم طب ك هب) .

قال الشيخ الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : 4331 في صحيح الجامع .

29 – عن شرحبيل بن السمط أنه قال لعمرو بن عبسة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – هل أنت محدثي حديثًا سمعته من رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ليس فيه نسيان ولا كذب قال نعم سمعت رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يقول : قال الله عز وجل :

" قَدْ حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ مِنْ أَجْلِي ، وَقَدْ حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَزَاوَرُونَ مِنْ أَجْلِي ، وَقَدْ حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَبَاذَلُونَ مِنْ أَجْلِي ، وَقَدْ حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَصَادَقُونَ مِنْ أَجْلِي " .

رواه أحمد ورواته ثقات والطبراني في الثلاثة واللفظ له والحاكم وقال صحيح الإسناد

قال الشيخ الألباني : في (صحيح الترغيب و الترهيب) : (حسن صحيح) .

الذين لا يحبهم الله أو يبغضهم الله أو يكرههم الله في القرآن و السنة

أولًا : الذين لا يحبهم الله من القرآن

قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة / 90) قَالَ الله تَعَالَى : (فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) (آل عمران /32) قَالَ الله تَعَالَى : (وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) (البقرة / 276) قَالَ الله تَعَالَى : (وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (آل عمران / 57) قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا) (النساء / 36) قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) (النساء / 107) قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ) (الأنفال / 58) قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) (الحج / 38) قَالَ الله تَعَالَى : (لاَّ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ) (النساء / 148) قَالَ الله تَعَالَى : (وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (المائدة / 64) قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (الأعراف / 31) قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) (النحل /23) قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) (القصص / 76) .

الذين يكرههم الله من القرآن

(وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ) (التوبة / 46) ، وقال جل وعلا : (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) (الإسراء / 38) .

قال ابن عبد البر : (هذا خبر عن حال الطائفتين عند لقاء ربهم ، فمن أحب لقاء الله ، فهو الذي يحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء ربه عند الموت ، فذاك الذي يكره الله لقاءه) .

وفي هذا وصف الله – تعالى – بأنه يكره بعض عباده ، وبعض الأعمال ، كما قال تعالى : (وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ) ، وقال جل وعلا : (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) .

1 – المعتدون 2 – الكافرون 3 – الكَفَّار الأثيم 4 – الظالمون 5– المختال الفخور 6 – الخوان الأثيم (الخائنون) 7 – الذي يجهر بالسوء 8 – المفسدون 9 – المسرفون 10– المستكبرون 11 – الفرحون .

1 – المعتدون

قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة / 90)

العدوان لغة :

مصدر قولنا عدا عليه ، وهو مأخوذ من مادّة (ع د و) الّتي تدلّ على تجاوز في الشّيء وتقدّم لما ينبغي أن يقتصر عليه ، والعدوان : الظّلم الصّراح ، يقال : عدا عليه (عدوانًا) واعتدى عليه (اعتداء) ، وتعدّى عليه (تعدّيًا) كلّه بمعنى واحد . وفي اللّسان : عدا عليه عدوًا ، وعداء ، وعدوّا ، وعدوانا ، وعدوانا ، وعدوى ، وتعدّى واعتدى كلّه : ظلمه .

وقد أوضح الرّاغب ارتباط فروع هذه المادّة فقال : العدو : التّجاوز ومنافاة الالتئام ، فتارة يعتبر (التّجاوز) بالقلب فيقال له : العداوة والمعاداة ، وتارة بالمشي فيقال له : العدو ، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له : العدوان والعدو قال تعالى : (فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ) (الأنعام / 108) أي عدوانًا ، ومن العدوان المحظور ابتداء قوله تعالى : (وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ) (المائدة / 2) . العدوان : هنا هو ظلم النّاس كما يقول القرطبيّ ، أو هو تجاوز ما حدّ اللّه لكم في دينكم وفرض عليكم في أنفسكم ، ومن العدوان الّذي هو على سبيل المجازاة ويصحّ أن يتعاطى مع من ابتدأ به ، قول اللّه تعالى : (فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) (البقرة / 193) أي لا سبيل إلّا عليهم ، والظّالمون هم المشركون باللّه ، وذلك على وجه المجازاة لما كان من المشركين من الاعتداء ، والمعنى حينئذ : افعلوا بهم مثل الّذي فعلوا بكم ، كما يقال : إن تعاطيت منّي ظلمًا تعاطيته منك ، والثّاني : ليس بظلم ، والعادي : الظّالم ، يقال : لا أشمت اللّه بك عاديك ، أي عدوّك الظّالم لك ، وقولهم : فلان عدوّ فلان معناه : فلان يعدو على فلان بالمكروه ويظلمه ، يقال : عدا عدوا : ظلم وجار ، وفي حديث قتادة " أنّه عدي عليه " أي ظلم وسرق ماله ، يقال : عدا بنو فلان على بني فلان أي ظلموهم ، وعدا الأمر وتعدّاه : تجاوزه ، وعداه عن الأمر عدوا وعدوانا ، وعدّاه :كلاهما صرفه وشغله ، والعداء والعدواء والعادية كلّه : الشّغل يعدوك عن الشّيء ، وتعادى ما بينهم : تباعد ، وتعادى القوم عادى بعضهم بعضًا من العداوة ، والعادي : المعتدي ، والمعادي أي المتجاوز الطّور ، والعدوّ : ضدّ الصّديق ، وقيل : ضدّ الوليّ ، يكون للواحد والجمع ، والذّكر والأنثى بلفظ واحد وجمعه أعداء واسم الجمع عدى وعدى ، وجمع الجمع أعاد ، قال الفيروز آباديّ : وقد يثنّى ويجمع ويؤنّث في بعض اللّغات .

العدوان اصطلاحًا :

قال المناويّ : العدوان : أسوأ الاعتداء في قول أو فعل أو حال .

وقال الكفويّ : تجاوز المقدار المأمور بالانتهاء إليه والوقوف عنده .

التعاون على الإثم والعدوان اصطلاحًا :

أن يعين بعض النّاس بعضًا على ترك ما أمر اللّه بفعله وتجاوز ما حدّ في الدّين وفرض على النّاس في أنفسهم وفي التّعامل مع غيرهم .

الفرق بين الإثم والعدوان :

قال ابن القيّم – يرحمه اللّه تعالى – : معنى قول اللّه تعالى ذكره : (وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ) (المائدة / 2) . أنّ كلّا منهما (الإثم والعدوان) إذا أفرد تضمّن الآخر ، فكلّ إثم عدوان إذ هو فعل ما نهى اللّه عنه أو ترك ما أمر اللّه به . فهو عدوان على أمره ونهيه وكذلك كلّ عدوان إثم فإنّه يأثم به صاحبه . هذا ولكن عند اقترافهما يكونان شيئين بحسب متعلّقهما . فالإثم ما كان محرّم الجنس كالكذب والزّنا وشرب الخمر ونحو ذلك .

والعدوان : ما كان محرّم القدر والزّيادة . فالعدوان تعدّي ما أبيح منه إلى القدر المحرّم كالاعتداء في آخذ الحقّ ممّن هو عليه . إمّا بأن يتعدّى على ماله أو بدنه أو عرضه ، فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلّا داره وإذا أتلف عليه شيئًا أتلف عليه أضعافه ، وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها فهذا كلّه عدوان وتعدّ للعدل .

وقال القرطبيّ : العدوان تجاوز الحدّ، والظّلم وضع الشّيء في غير موضعه ، وقيّد الوعيد بذكر العدوان والظّلم ليخرج منه فعل السّهو والغلط .

2 – الكافرون

قَالَ الله تَعَالَى : (فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) (آل عمران /32)

الكفر لغة :

مصدر قولهم : كفر يكفر كفرًا وهو مأخوذ من مادّة (ك ف ر) الّتي تدلّ على السّتر والتّغطية .

يقول ابن فارس : يقال لمن غطّى درعه بثوب قد كفر درعه ، والمكفّر : الرّجل المتغطّي بسلاحه ، فأمّا قوله :

حتّى إذا ألقت يدًا في كافر ... وأجنّ عورات الثّغور ظلامها

فيقال : إنّ الكافر مغيب الشّمس ، وقيل البحر ، ويشبّه النّهر بالبحر فيقال كافر ، والزّارع كافر لأنّه يغطّي الحبّ بتراب الأرض قال تعالى : (أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ) (الحديد / 20) قال القرطبيّ : الكفّار هنا الزّرّاع لأنّهم يغطّون البذر .

والكفر ضدّ الإيمان ، سمّي بذلك لأنّه تغطية الحقّ ، وكذا كفران النّعمة : جحودها وسترها .

وقال الرّاغب : الكفر في اللّغة : ستر الشّيء ، ووصف اللّيل بالكافر لستره الأشخاص ، والزّرّاع لسترهم البذر في الأرض ، وليس ذلك باسم لهما كما قال بعض أهل اللّغة ، وكفر النّعمة وكفرانها سترها بترك أداء شكرها ، وأعظم الكفر جحود الوحدانيّة أو الشّريعة أو النّبوّة ، ولمّا كان الكفران يقتضي جحود النّعمة صار يستعمل في الجحود – قال تعالى – : (وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ) (البقرة / 41) أي جاحد له وساتر ، وقد يقال كفر لمن أخلّ بالشّريعة وترك ما لزمه من شكر اللّه تعالى ، قال سبحانه : (ومَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) (الروم / 44) يدلّ على ذلك مقابلته بقوله : (وَمَنْ عَمِلَ صالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) (الروم / 44) .

والكفر نقيض الإيمان في قولهم : آمنّا باللّه وكفرنا بالطّاغوت يقال : كفر باللّه يكفر كفرًا . وكفورًا وكفرانًا ، ويقال لأهل دار الحرب : قد كفروا أي عصوا وامتنعوا .

والكفر : كفر النّعمة وهو نقيض الشّكر ، وكفر نعمة اللّه يكفرها كفورًا وكفرانًا ، وكفر بها : جحدها وسترها .

ورجل مكفّر : مجحود النّعمة مع إحسانه ، ورجل كافر : جاحد لأنعم اللّه مشتقّ من السّتر ، وقيل : لأنّه مغطّى على قلبه ، وجمع الكافر كفّار ، وكفرة ، وكفار ، مثل جائع وجياع ، ونائم ونيام ، قال القطاميّ :

وشقّ البحر عن أصحاب موسى ... وغرّقت الفراعنة الكفار

وجمع الكافرة : الكوافر .

ويقال إنّما سمّي الكافر كافرًا ؛ لأنّ الكفر غطّى قلبه كلّه . وكلّ من ستر شيئًا فقد كفره ، وكفّره ، وقولهم أكفرت الرّجل : دعوته كافرًا ، وكفّر الرّجل : نسبه إلى الكفر ، والكفور : المبالغ في كفران النّعمة ، قال تعالى : (إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ) (الزخرف / 15) ، والكفّار أبلغ من الكافر ، قال تعالى : (كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ) (ق / 24) . ويقال : كفر فلان : إذا اعتقد الكفر ، ويقال : كفر إذا أظهر الكفر وإن لم يعتقد . والتّكفير : الذّلّ والخضوع .

قال ابن الأثير: التّكفير : هو أن ينحني الإنسان ويطأطيء رأسه قريبًا من الرّكوع كما يفعل من يريد تعظيم صاحبه

الكفر اصطلاحًا :

هو ستر نعمة المنعم بالجحود أو بعمل هو كالجحود في مخالفة المنعم .

وقيل هو : الإنكار المتعمّد لما جاء به محمّد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أو بعض ما جاء به محمّد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ممّا علم من دينه بالضّرورة ، وهذا هو الحقّ الّذي عليه أهل السّنّة والجماعة و ما عداه فهو باطل . وقال المناويّ : الكفر : تغطية ما حقّه الإظهار ، والكفران : ستر نعمة المنعم بترك شكرها ، وأعظم الكفر : جحود الوحدانيّة أو النّبوّة أو الشّريعة ، ولفظ الكفران في جحود النّعمة أكثر استعمالًا والكفر في الدّين أكثر ، والكفور فيهما جميعًا .

وقال التّهانويّ ما خلاصته : الكفر شرعًا : خلاف الإيمان عند كلّ طائفة .

فعند الأشاعرة عدم تصديق الرّسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في (كلّ أو بعض) ما علم مجيئه من الدّين بالضّرورة ، ومن قال : إنّ الإيمان هو المعرفة باللّه قال : الكفر هو الجهل باللّه ، ومن قال : إنّ الإيمان هو الطّاعة قال : إنّ الكفر هو المعصية ، وقد اختلف في المعصية الّتي تكفّر صاحبها فقالت الخوارج : كلّ معصية كفر ، وقسّمت المعتزلة المعاصي إلى ثلاثة أقسام ، يكفّر منها ما دلّ على الجهل باللّه ووحدته وما لا يجوز عليه .

أنواع الكفر :

قال بعض أهل العلم : الكفر على أربعة أنحاء : كفر إنكار ، وكفر جحود ، وكفر معاندة ، وكفر نفاق ، ومن لقي ربّه بشيء من ذلك لم يغفر له ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، فأمّا كفر الإنكار فهو أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يذكر له من التّوحيد وكذلك روي في تفسير قوله عزّ وجلّ : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) (البقرة / 6) أي الّذين كفروا بتوحيد اللّه . وأمّا كفر الجحود فأن يعرف بقلبه ولا يقرّ بلسانه ، فهذا كافر جاحد ككفر إبليس ، وكفر أميّة بن أبي الصّلت ، ومنه قوله تعالى : (فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) (البقرة / 89) يعني كفر الجحود ، وأمّا كفر المعاندة فهو أن يعرف بقلبه ويقرّ بلسانه ، ويأبى أن يقبل ككفر أبي طالب حيث يقول :

ولقد علمت بأنّ دين محمّد ... من خير أديان البريّة دينا

لولا الملامة أو حذار مسبّة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

وأمّا كفر النّفاق فأن يكفر بقلبه ويقرّ بلسانه .

وقال ابن القيّم – يرحمه اللّه – : الكفر نوعان :

كفر أكبر ، وكفر أصغر .

فالكفر الأكبر : هو الموجب للخلود في النّار . والأصغر : موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود ، ومنه قوله : – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " اثْنَتَانِ فِى النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ الطَّعْنُ فِى النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ "(م / 236).

وقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ " (خ / 121) ، (م / 232) .

الكفر الأكبر : وأمّا الكفر الأكبر فخمسة أنواع : كفر تكذيب ، وكفر استكبار وإباء مع التّصديق ، وكفر إعراض ، وكفر شكّ ، وكفر نفاق .

فأمّا كفر التّكذيب : فهو اعتقاد كذب الرّسل .

وهذا القسم قليل في الكفّار . فإنّ اللّه تعالى أيّد رسله ، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجّة . وأزال به المعذرة . قال اللّه تعالى عن فرعون وقومه : (وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (النّمل / 14) ، وقال لرسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) (الأنعام / 33) . وإن سمّي هذا كفر تكذيب أيضا فصحيح . إذ هو تكذيب باللّسان .

وأمّا كفر الإباء والاستكبار : فنحو كفر إبليس .

فإنّه لم يجحد أمر اللّه ولا قابله بالإنكار . وإنّما تلقّاه بالإباء والاستكبار . ومن هذا كفر من عرف صدق الرّسول وأنّه جاء بالحقّ من عند اللّه . ولم ينقد له إباء واستكبارًا ، وهو الغالب على كفر أعداء الرّسل . كما حكى اللّه تعالى عن فرعون وقومه : (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ) ؟ (المؤمنون / 47) .

وأمّا كفر الإعراض : فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرّسول لا يصدّقه ولا يكذّبه ، ولا يواليه ولا يعاديه ، ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتّة .

وأمّا كفر الشّكّ : فإنّه لا يجزم بصدقه ولا يكذّبه . بل يشكّ في أمره . وهذا لا يستمرّ شكّه إلّا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النّظر في آيات صدق الرّسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – جملة فلا يسمعها ولا يلتفت إليها . وأمّا مع التفاته إليها ، ونظره فيها : فإنّه لا يبقى معه شكّ .

وأمّا كفر النّفاق : فهو أن يظهر بلسانه الإيمان .

وينطوي بقلبه على التّكذيب . فهذا هو النّفاق الأكبر .

كفر الجحود :

وأمّا كفر الجحود فهو نوعان : كفر مطلق عامّ ، وكفر مقيّد خاصّ : فالمطلق : أن يجحد جملة ما أنزله اللّه ، وإرساله الرّسول . والخاصّ المقيّد : أن يجحد فرضًا من فروض الإسلام ، أو تحريم محرّم من محرّماته ، أو صفة وصف اللّه بها نفسه ، أو خبرًا أخبر اللّه به ، عمدًا أو تقديمًا لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض .

كفر العمل وكفر الاعتقاد :

قال الشّيخ محمّد بن إبراهيم – يرحمه اللّه – : من الممتنع أن يسمّي اللّه سبحانه الحاكم بغير ما أنزل اللّه كافرًا ولا يكون كافرًا ، بل هو كافر مطلقًا . إمّا كفر عمل ، وإمّا كفر اعتقاد ، وما جاء عن ابن عبّاس – رضي اللّه عنهما – في تفسير قوله تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ) (المائدة / 44) ، من رواية طاوس وغيره يدلّ على أنّ الحاكم بغير ما أنزل اللّه كافر ، إمّا كفر اعتقاد ناقل عن الملّة . وإمّا كفر عمل لا ينقل عن الملّة .

أمّا القسم الأوّل ، وهو كفر الاعتقاد فهو أنواع :

أحدها : أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل اللّه أحقّيّة حكم اللّه ورسوله . وهو معنى ما روي عن ابن عبّاس ، واختاره ابن جرير أنّ ذلك هو جحود ما أنزل اللّه من الحكم الشّرعيّ وهذا ما لا نزاع فيه بين أهل العلم .

الثّاني : أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل اللّه كون حكم اللّه ورسوله حقًّا ، لكن اعتقد أنّ حكم غير الرّسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أحسن من حكمه ، وأتمّ وأشمل لما يحتاجه النّاس من الحكم بينهم عند التّنازع ، إمّا مطلقًا أو بالنّسبة إلى ما استجدّ من الحوادث . الّتي نشأت عن تطوّر الزّمان وتغيّر الأحوال ، وهذا أيضًا لا ريب أنّه كفر ، لتفضيله أحكام المخلوقين الّتي هي محض زبالة الأذهان وصرف حثالة الأفكار على حكم الحكيم الحميد .

الثّالث : أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم اللّه ورسوله ، لكن اعتقد أنّه مثله ، فهذا كالنّوعين اللّذين قبله ، في كونه كافرًا الكفر النّاقل عن الملّة ، لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق ، والمناقضة والمعاندة لقوله عزّ وجلّ : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى / 11) .

الرّابع : أن لا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل اللّه مماثلًا لحكم اللّه ورسوله . فضلا عن أن يعتقد كونه أحسن منه . لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم اللّه ورسوله . فهذا كالّذي قبله يصدق عليه ما يصدق عليه . لاعتقاده جواز ما علم بالنّصوص الصّحيحة الصّريحة القاطعة تحريمه .

الخامس : وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشّرع . ومكابرة لأحكامه ، ومشاقّة للّه ولرسوله ، وتشكيلًا وتنويعًا وحكمًا وإلزامًا ، ومراجع ومستندات ، فكما أنّ للمحاكم الشّرعيّة مراجع ومستندات ، مرجعها كلّها إلى كتاب اللّه وسنّة رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فلهذه المحاكم مراجع هي : القانون الملفّق من شرائع شتّى وقوانين كثيرة .

السّادس : ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر ، والقبائل من البوادي ونحوهم ، من حكايات آبائهم وأجدادهم ، وعاداتهم الّتي يسمّونها (سلومهم) يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به ويحملون على التّحاكم إليه عند النّزاع . بقاء على أحكام الجاهليّة وإعراضًا ورغبة عن حكم اللّه ورسوله ، فلا حول ولا قوّة إلّا باللّه .

وأمّا القسم الثّاني من قسمي الحاكم بغير ما أنزل اللّه : فهو مرويّ عن ابن عبّاس وذلك في قوله – رضي اللّه عنهما – في الآية : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ) (المائدة / 44) كفر دون كفر ،

وقوله أيضًا : (ليس بالكفر الّذي تذهبون) وذلك أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضيّة بغيرها ومجانبة الهدى . وهذا وإن لم يخرجه كفره عن الملّة ، فإنّه معصية عظمى أكبر من الكبائر كالزّنا ، وشرب الخمر ، والسّرقة ، واليمين الغموس ، وغيرها ، فإنّ معصية سمّاها اللّه في كتابه : كفرًا . أعظم من معصية لم يسمّها كفرًا ، نسأل اللّه أن يجمع المسلمين على التّحاكم إلى كتابه ، انقيادًا ورضاء إنّه وليّ ذلك والقادر عليه .

حكم الكفر :

ذكر ابن حجر : أنّ كفران نعمة الخلق المستلزم لكفران نعمة الحقّ من الكبائر وقال : عدّ هذا كبيرة هو ظاهر ما جاء في حديث التّرمذيّ : " من أعطي عطاء فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليثن ؛ فإنّ من أثنى فقد شكر ، ومن كتم فقد كفر " ومعنى الكفر هنا أنّه يجرّ إلى كفر نعم اللّه تعالى .

أمّا الكفر الّذي هو نقيض الإيمان فقد أشارت إلى حكمه الآية الكريمة : (وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيرًا) (الإسراء / 8) .

هذا في الآخرة ، فأمّا في الدّنيا فمنهم : أهل الكتاب ، ومنهم المعاهدون ومنهم الملحدون ، ومنهم المرتدّون ، ولكلّ حكمه الّذي فصّلته كتب الفقه .

معاني كلمة الكفر في القرآن :

قال ابن الجوزيّ – يرحمه اللّه – : ذكر أهل التّفسير أنّ الكفر في القرآن على خمسة أوجه :

أحدها : الكفر بالتّوحيد . ومنه قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) (البقرة / 6) .

والثّاني : كفران النّعمة . ومنه قوله تعالى : (وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ) (البقرة / 152) .

والثّالث : التّبرّي . ومنه قوله تعالى : (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ) (العنكبوت / 25) أي يتبرّأ بعضكم من بعض .

والرّابع : الجحود . ومنه قوله تعالى : (فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) (البقرة / 89) .

والخامس : التّغطية . ومنه قوله تعالى : (أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ) (الحديد / 20) يريد الزّرّاع الّذين يغطّون الحبّ .

خطورة و عاقبة الكافرين :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) (البقرة / 39) .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (162) (البقرة) .

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ) (آل عمران / 12) .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْ ءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (91) (آل عمران) .

أحاديث في الكفر :

" لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ " (خ / 6878 ، م / 4468) .

" لا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ ، وَلاَ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ " (خ / 6764) .

" مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْها – أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ : إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ " (خ / 6507) .

من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في ذمّ (الكفر) :

1– عن عمر– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : فيم الرّملان اليوم والكشف عن المناكب ؟ وقد أطّأ اللّه الإسلام ونفى الكفر وأهله مع ذلك لا ندع شيئًا كنّا نفعله على عهد رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

2– عن أنس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : خطب أبو طلحة ، أمّ سليم فقالت : واللّه ما مثلك يا أبا طلحة يردّ ، ولكنّك رجل كافر ، وأنا امرأة مسلمة ، ولا يحلّ لي أن أتزوّجك فإن تسلم فذاك مهري ، وما أسألك غيره . فأسلم فكان ذلك مهرها .

3– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : لَمَّا قَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قُلْتُ فِي الطَّرِيقِ : يَا لَيْلَةً مِنْ طُولِهَا وَعَنَائِهَا *** عَلَى أَنَّهَا مِنْ دَارَةِ الْكُفْرِ نَجَّتِ .

قَالَ : وَأَبَقَ مِنِّي غُلاَمٌ لِي فِي الطَّرِيقِ . قَالَ : فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَايَعْتُهُ فَبَيْنَا أَنَا عِنْدَهُ إِذْ طَلَعَ الْغُلاَمُ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " يَا أَبَا هُرَيْرَةَ هَذَا غُلاَمُكَ " فَقُلْتُ : هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ فَأَعْتَقْتُهُ . (خ / 2531) .

4– عن خبّاب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : كنت قينا في الجاهليّة ، وكان لي على العاص بن وائل دَين ، فأتيته أتقاضاه . قال : لا أعطيك حتّى تكفر بمحمّد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فقلت : لا أكفر حتّى يميتك اللّه ثمّ تبعث . قال : دعني حتّى أموت وأبعث ، فسأوتى مالا وولدًا فأقضيك . فنزلت : (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالًا وَوَلَداً* أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً) (مريم / 77– 78) .

5– عن مصعب بن سعد – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : سألت أبي (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا) (الكهف / 103) هم الحروريّة ؟ قال : لا . هم اليهود والنّصارى ، أمّا اليهود ، فكذّبوا محمّدًا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –

، وأمّا النّصارى ، كفروا بالجنّة وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحروريّة ، الّذين ينقضون عهد اللّه من بعد ميثاقه ، وكان سعد يسمّيهم الفاسقين .

6– عن عديّ بن حاتم – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : أتينا عمر في وفد فجعل يدعو رجلا رجلا ويسمّيهم . فقلت : أما تعرفني يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلى ، أسلمت إذ كفروا ، وأقبلت إذ أدبروا ، ووفّيت إذ غدروا ، وعرفت إذ أنكروا ، فقال عديّ : فلا أبالي إذا .

7– عن عكرمة قال : أتي عليّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – بزنادقة فأحرقهم ، فبلغ ذلك ابن عبّاس فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لا تعذّبوا بعذاب اللّه ، ولقتلتهم لقول رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " من بدّل دينه فاقتلوه " .

3017– عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ عَلِيًّا– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – حَرَّقَ قَوْمًا فَبَلَغَ ابْنَ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – فَقَالَ : لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ لأَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " لا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللهِ " وَلَقَتَلْتُهُمْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ " .

8– قال ابن القيّم – يرحمه اللّه تعالى – : " من شبّه اللّه بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف اللّه به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف اللّه به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيها . فالمشبّه يعبد صنمًا ، والمعطّل يعبد عدمًا ، والموحّد يعبد إلهًا واحدًا صمدًا .

9– وقال أيضًا– يرحمه اللّه تعالى – : من قال : ليس للّه بيننا كلام فقد جحد .

من مضار (الكفر) :

(1) الكفر الأكبر يخلّد صاحبه فى النّار .

(2) يورث الذّلّ في الدّنيا والهوان على اللّه في الآخرة .

(3) الكافر خبيث النّيّة فاسد الطويّة .

(4) يورد صاحبه موارد الهلاك والرّدى .

(5) ليس بعد الكفر ذنب .

(6) اشمئزاز النّاس منه وتأذّيهم من شرّه .

(7) معول هدم في المجتمع الّذى يعيش فيه وإن زعم الكافر أنّه مصلح .

(8) نجاسة الكافر وهوانه على اللّه عزّ وجلّ .

3 – الكَفَّار الأثيم

قَالَ الله تَعَالَى : (وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) (البقرة / 276)

قال ابن عادل في (اللباب) :

(وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) اعلم أن الكفَّار فعَّالٌ من الكفر ، ومعناه : أن ذلك عادته ، والعرب تسمي المقيم على الشيء بهذا فتقول : فلان فعَّالٌ للخير أمَّارٌ به و " الأَثِيم " فعيل بمعنى فاعلٍ ، وهو الآثم ، وهو – أيضًا – مبالغةٌ في الاستمرار على اكتساب الإثم والتمادي فيه .

قال العثيمين في تفسيره :

(والله لا يحب كل كفار أثيم) ؛ إذا نفى الله تعالى المحبة فالمراد إثبات ضدها – وهي الكراهة ؛ و (الكَفّار) كثير الكفر ، أو عظيم الكفر ؛ و (الأثيم) بمعنى الآثم ، كالسميع بمعنى السامع ، والبصير بمعنى الباصر ، وما أشبه ذلك .

قال صاحب النكت و العيون :

(وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) في الكَفَّار وجهان :

أحدهما : الذي يستر نعم الله ويجحدها .

والثاني : هو الذي يكثر فعل ما يكفر به .

وفي الأثيم وجهان :

أحدهما : أنه من بَيِّت الإثم .

والثاني : الذي يكثر فعل ما يأثم به .

4 – الظالمون

قَالَ الله تَعَالَى : (وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (آل عمران / 57)

الظّلم لغة :

الظّلم اسم من ظلمه ظلمًا ، من باب ضرب ، ومظلمة بفتح الميم وكسر اللّام ، وتجعل المظلمة اسمًا لما تطلبه عند الظّالم ، كالظُّلامة بالضّمّ ، وظلّمته بالتّشديد ، نسبته إلى الظّلم ، وأصل الظّلم ، وضع الشّيء في غير موضعه ، وفي المثل (من استرعى الذّئب فقد ظلم) .

وأصل المادّة يدلّ على أصلين ، يقول ابن فارس : (الظّاء واللّام والميم) أصلان صحيحان ، أحدهما خلاف الضّياء والنّور ، والآخر : وضع الشّيء في غير موضعه تعدّيًا ، فالأوّل : الظّلمة ، والجمع ظلمات . والظّلام : اسم الظّلمة ، وقد أظلم المكان إظلامًا ، والأصل الآخر ، ظلمه يظلمه ظلمًا . والأصل فيه ، وضع الشّيء في غير موضعه ، ويقال : ظلّمت فلانًا ، نسبته إلى الظّلم ، وظلمت فلانًا فاظّلم ، وانظلم ، إذا احتمل الظّلم ، والأرض المظلومة ، الّتي لم تحفر قطّ ، ثمّ حفرت ، وذلك التّراب ظليم . والظّلامة : ما تطلبه من مظلمتك عند الظّالم ، وقد ظلم وطبه ، إذا سقى منه ، قبل أن يروب ويخرج زبده ، ويقال لذلك اللّبن ظلايم أيضًا .

ويقول الجوهريّ : ظلمه يظلمه ظلمًا ومظلمة ، وأصله ، وضع الشّيء في غير موضعه والظّلامة .

والظّليمة والمظلمة : ما تطلبه عند الظّالم ، وهو اسم ما أخذ منك وتظلّمني فلان ، أي ظلمني مالي ، وتظلّم منه ، أي اشتكى ظلمه .

وانظلم ، أي احتمل الظّلم ، والظّلّيم بالتّشديد : الكثير الظّلم .

وقيل : الظّلم التّصرّف فيما لا يملك التّصرّف فيه ، ويقال في مجاوزة الحقّ . ويقال في الكثير والقليل . ولهذا يستعمل في الذّنب الكبير والذّنب الصّغير . ومن أمثال العرب : من أشبه أباه فما ظلم ، قال الأصمعيّ : ما ظلم أي ما وضع الشّبه في غير موضعه . وفي المثل : من استرعى الذّئب فقد ظلم ، وأصل الظّلم : الجور ومجاوزة الحدّ ، ومنه في حديث الوضوء : " فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَسَاءَ وَظَلَمَ " (صحيح أبي داود / 135) أي أساء الأدب بتركه السّنّة والتأدّب بأدب الشّرع ، وظلم نفسه بما نقصها من الثّواب بترداد المرّات من الوضوء . والظّلم : النّقص .

قال تعالى : (وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا) (الكهف / 33) .

والظّلم : الشّرك ، وفي التّنزيل العزيز : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ) (الأنعام / 82) أي بشرك .

وقوله تعالى : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان / 13) يعني أنّ اللّه تعالى المحيي المميت الرّزّاق المنعم وحده لا شريك له ، فإذا أشرك به غيره فذلك أعظم الظّلم ؛ لأنّه جعل النّعمة لغير ربّها . والظّلم : الميل عن القصد ، والعرب تقول : الزم هذا الصّوب ولا تظلم عنه ، أي لا تجر عنه ، وتظلّم فلان إلى الحاكم من فلان فظلّمه تظليمًا : أي أنصفه من ظالمه فأعانه عليه . والظّلمة ، المانعون أهل الحقوق حقوقهم . واظّلم وانظلم :

احتمل الظّلم ، وظلّمه : أنبأه أنّه ظالم أو نسبه إلى الظّلم والظّلامة والظّليمة والمظلمة : ما تطلبه عند الظّالم ، وهو اسم من أخذ منك ، وظلم فلان فاظّلم : احتمل الظّلم بطيب نفسه وهو قادر على الامتناع منه .

والظّلّيم : الكثير الظّلم ، ومظلمة : ظالم وظلوم .

الظلم اصطلاحًا :

التّصرّف في حقّ الغير بغير حقّ ، أو مجاوزة الحقّ .

وقيل : الظّلم : وضع الشّيء في غير موضعه ، وفي الشّريعة عبارة عن التّعدّي عن الحقّ إلى الباطل وهو الجور ، وقيل : هو التّصرّف في ملك الغير ومجاوزة الحدّ .

وقيل : وضع الشّيء بغير محلّه بنقص أو زيادة أو عدول عن زمنه .

وقال الرّاغب في (المفردات) : والظّلم عند أهل اللّغة وكثير من العلماء وضع الشّيء في غير موضعه المختصّ به . إمّا بنقصان أو بزيادة ، وإمّا بعدول عن وقته ، أو مكانه . والظّلم يقال في مجاوزة الحقّ الّذي يجري مجرى نقطة الدّائرة ، ويقال فيما يكثر وفيما يقلّ من التّجاوز . ولهذا يستعمل في الذّنب الكبير ، وفي الذّنب الصّغير.

وقال الرّاغب : الظّلم هو الانحراف عن العدل ولذلك حدّ بأنّه وضع الشّيء في غير موضعه المخصوص به ، وقد يسمّى هذا الانحراف جورًا ، ولمّا كانت العدالة تجري مجرى النّقطة من الدّائرة فإنّ تجاوزها من جهة الإفراط عدوان وطغيان والانحراف عنها في بعض جوانبها جور وظلم ، والظّلم أعمّ هذه الألفاظ استعمالا .

وقال الجاحظ : الجور (الظّلم) هو الخروج عن الاعتدال في جميع الامور ، والسّرف والتّقصير وأخذ الأموال من غير وجهها ، والمطالبة بما لا يجب من الحقوق وفعل الأشياء في غير مواضعها ولا أوقاتها ، ولا على القدر الّذي يجب ولا على الوجه الّذي يحبّ .

وقال الكفويّ : الظّلم وضع الشّيء في غير موضعه ، والتّصرّف في حقّ الغير ، ومجاوزة حدّ الشّارع .

درجات الظّلم :

قال الرّاغب : لمّا كان الظّلم ترك الحقّ الجاري مجرى النّقطة من الدّائرة صار العدول عنها إمّا قريبًا وإمّا بعيدًا ، فمن كان عنه (عن الحقّ) أبعد كان الرّجوع إليه أصعب ، ولذلك قال تعالى : (وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً) (النساء / 60) تنبيها إلى أنّ الشّيطان متى أمعن بهم في البعد من الحقّ صعب عليهم حينئذ الاهتداء .

وعلى هذا فمن كان إليه (أي إلى الحقّ) أقرب كان الرّجوع إليه أسهل ، ومن ثمّ فليحذر الظّالم المبتدىء من التّمادي في ظلمه حتى يعطي لنفسه فرصة الرّجوع إلى الحقّ .

أنواع الظّلم :

قال بعض الحكماء : الظّلم ثلاثة :

الأوّل : ظلم بين الإنسان وبين اللّه تعالى ، وأعظمه الكفر والشّرك والنّفاق ، ولذلك قال : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان / 13) وإيّاه قصد بقوله : (أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) (هود / 18) .

والثّاني : ظلم بينه وبين النّاس ، وإيّاه قصد بقوله : (وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ إلى قوله إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (الشورى / 40) وبقوله : (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ) (الشورى / 42) .

والثّالث : ظلم بينه وبين نفسه ، وإيّاه قصد بقوله : (فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ) (فاطر / 32) وقوله : (ظَلَمْتُ نَفْسِي) (القصص / 16) .

وكلّ هذه الثّلاثة في الحقيقة ظلم للنّفس ، فإنّ الإنسان في أوّل ما يهمّ بالظّلم فقد ظلم نفسه .

أنواع الظّلمة :

أمّا أنواع الظّلمة فثلاثة :

1- الظّالم الأعظم ، وهو الّذي لا يدخل تحت شريعة اللّه تعالى وإيّاه عنى بقوله : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان / 13) .

2- الظّالم الأوسط ، وهو الّذي لا يلتزم حكم السّلطان أي فيما وضعه السّلطان من أنظمة لتيسير الحياة ولا يتعارض مع أحكام الشّرع .

3- الظّالم الأصغر ، وهو الّذي يتعطّل عن المكاسب والأعمال ، فيأخذ منافع النّاس ، ولا يعطيهم منفعة ، ومن خرج عن تعاطي العدل بالطّبع وبالخلق والتّخلّق والتّصنّع والرّياء والرّغبة والرّهبة . فقد انسلخ عن الإنسانيّة ، ومتى صار أهل كلّ صقع على ذلك فتهارشوا وتغالبوا وأكل قويّهم ضعيفهم ، ولم يبق فيهم أثر قبول لمن يمنعهم ويصدّهم عن الفساد فقد جرت عادة اللّه سبحانه في أمثالهم هلاكهم واستئصالهم عن آخرهم .

من يستعمل معهم الظّلم :

أمّا المستعمل معهم الظّلم فخمسة :

الأوّل : (ربّ العزّة وذلك حين يشرك به) إذ يقتضي العدل معرفة توحيده وأحكامه .

الثّاني : قوى النّفس ، ويكون ذلك بعدم إنصاف العقل من الهوى ، ويقتضي العدل أن يجعل الإنسان هواه مستسلما لعقله ، وقد قيل أعدل النّاس من أنصف عقله من هواه .

الثّالث : أسلاف الإنسان ويكون ذلك بترك وصاياهم وعدم الدّعاء لهم .

الرّابع : من يعاملهم الإنسان من الأحياء ، ويكون ذلك بالتّقصير في أداء الحقوق ، وعدم الإنصاف في المعاملات من بيع وشراء وجميع المعاوضات والإجارات .

الخامس : عامّة النّاس إذا تولّى الحكم بينهم ويكون ذلك بالجور وعدم النّصفة ، وذلك في شأن الولاة والقضاة ومن إليهم .

بين الظلم والجور :

يرى كثيرون أنّ الجور والظّلم سواء ، ولكنّ الكفويّ فرّق بينهما فقال :

الظلم : ضرر من حاكم أو غيره .

والجور : هو خلاف الاستقامة في الحكم .

هل يجوز الانظلام :

أطلق الرّاغب على قبول الظّلم مصطلح (الانظلام) وقسّمه من حيث الكمّيّة ومن حيث الكيفيّة فقال :

ترك العدل إلى الظّلم عمدًا مذموم في جميع الأحوال والخارج عنه إلى الظّلم مستوجب بقدر خروجه سخطا من اللّه – عزّ وجلّ – إلّا أن يتغمّده اللّه بعفوه – أمّا الخارج عنه (عن العدل) إلى الانظلام فقد يحمد .

والانظلام من حيث الكمّيّة ثلاثة أضرب :

1– انظلام في المال وهو الاستخذاء للظّالم في أخذ ماله .

2– انظلام في الكرامة وهو الاستخذاء في بخس منزلته من التّعظيم .

3– انظلام في النّفس وهو استخذاء لمن يؤلمه ، وكلّ واحد من هذه الثّلاثة يكون محمودًا ويكون مذمومًا .

أمّا من حيث الكيفيّة فهو ضربان :

الأوّل : محمود ، ويراد به التّغاضي عن حقّ له في المال أو الكرامة ، أو النّفس بقدر ما يحسن وفي وقت ما يحسن وهو المعبّر عنه بالانخداع والتّغافل ، وهو المعبّر عنه في قول معاوية – رضي اللّه عنه – : (من خدعك وانخدعت له فقد خدعته) وذلك إذا كان في مال فمسامحة وإن كان في النّفس فعفو ، وإن كان في الكرامة فتواضع .

والثّاني : مذموم ، وهو الّذي إن كان في المال فغبن وإن كان في النّفس والكرامة فهوان ومذلّة .

حكم الظّلم :

قال الإمام الذّهبيّ : الظّلم يكون بأكل أموال النّاس وأخذها ظلمًا ، وظلم النّاس بالضّرب والشّتم والتعدّي والاستطالة على الضّعفاء ، وقد عدّه الكبيرة السّادسة والعشرين . وبعد أن ذكر الآيات والأحاديث الّتي تتوعّد الظّالمين، نقل عن بعض السّلف قوله: لا تظلم الضّعفاء فتكون من شرار الأقوياء ثمّ عدّد صورًا من الظلم منها :

أخذ مال اليتيم .

المماطلة بحقّ على الإنسان مع القدرة على الوفاء .

ظلم المرأة حقّها من صداق ونفقة وكسوة .

ظلم الأجير بعدم إعطاء الأجرة .

الجور في القسمة أو تقويم الأشياء :

ومن الظّلم البيّن الجور في القسمة أو تقويم الأشياء ، وقد عدّها ابن حجر ضمن الكبائر ، فقال :

الكبيرة الخامسة والسّادسة والثّلاثون بعد الأربعمائة ، جور القاسم في قسمته والمقوّم (المثمّن للأشياء) في تقويمه . بدليل ما أخرجه الطّبرانيّ بسند صحيح عن أبي سعيد الخدريّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : قَامَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى بَيْتٍ فِيهِ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ ... وفيه : " إِنَّ هَذَا الأَمْرَ لا يَزَالُ فِي قُرَيْشٍ مَا إِذَا اسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا ، وَإِذَا حَكَمُوا عَدَلُوا ، وَإِذَا أَقْسَمُوا أَقْسَطُوا ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ " (صحيح الترغيب / 2258) . ثمّ قال عقب ذلك : عدّ هذين من الكبائر لم أره ، لكنّه صريح الحديث في الأولى (أي جور القاسم في قسمته) وقياسها في الثّاني (أي جور المقوّم في تقويمه) . بل هي ممّا يصدق عليه الحديث ، لا أنّ الجور في القسمة المتوعّد عليه بتلك اللّعنة العامّة يشمل الجور في الأنصباء وفي القيمة أيضًا .

آيات قي الظلم :

(وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) (الأنعام / 93) .

(إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ نارًا أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقًا) (الكهف / 29) .

(وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذابًا كَبِيرًا) (الفرقان / 19) .

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) (الفرقان / 27) .

وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذابًا أَلِيمًا) (الفرقان / 37) .

الأحاديث الواردة في ذمّ (الظلم) :

1– عن ابن عمر– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قال : قال رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ " (خ / 1496) .

2– عن جابر بن عبد اللّه – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قال : قال رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ " (م / 6741) .

عن أبي موسى الأشعريّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : قال رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ قَالَ ثُمَّ قَرَأَ (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهْيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (هود / 102) (خ / 4686) .

5 – المختال الفخور

قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا) (النساء / 36)

قال الطبري في تفسيره :

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا)

يَعْنِي بِقَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً) إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ ذَا خُيَلاَءَ وَلِلْمُخْتَالِ الْمُفْتَعِلِ مِنْ قَوْلِكَ : خَالَ الرَّجُلِ فَهُوَ يَخُولُ خَوَلاً وَخَالاً ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

فَإِنْ كُنْتَ سَيِّدَنَا سُدْتَنَا ... وَإِنْ كُنْتَ لِلْخَالِ فَاذْهَبْ فَخَلْ

وَمِنْهُ قَوْلُ الْعَجَّاجِ :

وَالْخَالِ ثَوْبٌ مِنْ ثِيَابِ الْجُهَّالْ

وَأَمَّا الْفَخُورُ : فَهُوَ الْمُفْتَخِرُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ آلاَئِهِ ، وَبَسَطَ لَهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَلاَ يَحْمَدُ عَلَى مَا آتَاهُ مِنْ طَوْلِهِ ، وَلَكِنَّهُ بِهِ مُخْتَالٌ مُسْتَكْبِرٍ ، وَعَلَى غَيْرِهِ بِهِ مُسْتَطِيلٌ مُفْتَخِرٌ .

قال القرطبي في تفسيره :

(مَنْ كانَ مُخْتالًا فَخُوراً) فنفى سبحانه محبته ورضاه عمن هذه صفته ، أي لا يظهر عليه آثار نعمه في الآخرة . وفي هذا ضرب من التوعد . و المختال ذو الخيلاء أي الكبر . و الفخور : الذي يعدد مناقبه كبرًا . و الفخر : البذخ والتطاول . وخص هاتين الصفتين بالذكر هنا لأنهما تحملان صاحبيهما على الأنفة من القريب الفقير والجار الفقير وغيرهم ممن ذكر في الآية فيضيع أمر الله بالإحسان إليهم .

و قال الآلوسي في روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني :

(إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ) تعليل للنهي أو موجبه والمختال من الخيلاء وهو التبختر في المشي كبرًا ، وقال الراغب : التكبر عن تخيل فضيلة تراءت للإنسان من نفسه ، ومنه تؤول لفظ الخيل لما قيل إنه لا يركب أحد فرسًا إلا وجد في نفسه نخوة ، والفخور من الفخر وهو المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه ويدخل في ذلك تعداد الشخص ما أعطاه لظهور أنه مباهاة بالمال ، وعن مجاهد تفسير الفخور بمن يعدد ما أعطى ولا يشكر اللّه عزّ وجلّ .

و قال السامرائي في لمسات بيانية :

في سورة النساء (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) (النساء / 36) وفي لقمان (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) (18) لماذا في النساء (مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) وفي لقمان (كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) ما الفرق بينهما ؟ (د . أحمد الكبيسى) طبعًا الخيلاء هي كلها من الكِبر والتكبّر هناك تكبر يعني من وهم في تكبر شخص سلطان هو فعلاً سلطان ملك متكبر قليلًا هذا لا يقال عنه خيلاء يقال متكبر هناك ملياردير متكبر على الناس يقال عنه متكبر ، وهناك واحد لا شيء لديه ولكنه يتصور نفسه شيء فيمشي بكبرياء خيال لا شيء فيه

يسمى هذا خيلاء " مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (خ / 3665) حينئذٍ الخيلاء أن ترى نفسك عظيمًا كالخيال كراكب الخيل (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) لقلة هذا النوع من البشر لأنهم قلة كم واحد كان مختال على قومه ؟ قلة من الناس يفتخرون يتكبرون على آبائهم وأمهاتهم وأخوانهم وأخواتهم وأعمامهم وأخوالهم هذا أحقر الخلق (مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) لكن الذي يتكبر على الناس جميعًا كثيرون موظف تدخل عليه لا يتكلم معك سفير ووزير مليونير الخ كثير من الناس عندهم حتى مشايخ وعلماء انشهروا وعرفوا تجدهم في أيام يعني كل شايف نفسه الخ " لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ " (م / 275) هذا لا يدخل الجنة مع أول الداخلين حتى لو كان صحابيًا حتى لو كان صدّيقًا . إذًا هذا الفرق بين (مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) و (كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) .

6 – الخوان الأثيم (الخيانة)

قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) (النساء / 107) قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ) (الأنفال / 58) قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) (الحج / 38)

(إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) أي : كثير الخيانة والإثم ، وإذا انتفى الحب ثبت ضده وهو البُغْض ، وهذا كالتعليل ، للنهي المتقدم .

(خَوَّانًا) أبلغ ، لأنه من أبنية المبالغة ، وإنما كان ذلك لعظم قدر تلك الخيانة . والله أعلم .

الخيانة لغة :

مصدر قولهم : خان يخون ، وهو مأخوذ من مادة (خ و ن) الّتي تدلّ على التّنقّص ، يقال : خانه يخونه خونا ، وذلك نقصان الوفاء ، وتخوّنني فلان أي تنقّصني ، ونقيض الخيانة الأمانة ، يقال خنت فلانا ، وخنت أمانة فلان ، وعلى ذلك قوله سبحانه : (لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ) (الأنفال / 28) فخيانتهم للّه ورسوله كانت بإظهار من أظهر منهم للرّسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والمؤمنين الإيمان في الظّاهر وهو يستسرّ الكفر والغشّ لهم في الباطن ويدلّون المشركين على عورتهم ويخبرونهم بما خفي عنهم من خبرهم ، قيل : نزلت في منافق كتب إلى أبي سفيان يطلعه على سرّ المسلمين ، وقوله : (وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ) هي ما يخفى عن أعين النّاس من فرائض اللّه ، وقيل : هي الدّين .

والاختيان : مراودة الخيانة ، أي تحرّك شهوة الإنسان لتحرّي الخيانة . قال تعالى: (عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ) (البقرة / 187) قيل في تفسير هذه الآية : معناه أن يستأمر بعضكم بعضًا في موافقة المحظور من الجماع ، والأكل بعد النّوم في ليالي الصّوم ، وقيل : إنّ المراد ، أنّ كلّ واحد منهم يريد خيانة نفسه ، وسمّي خائنًا لأنّ الضّرر عائد عليه .

ويقال : خانه في كذا . يخونه خونًا وخيانة وخانة ومخانة : ائتمن فلم ينصح . وخان العهد نقضه . ويقال : خان العهد والأمانة أي في العهد والأمانة . ويقال أيضًا : خان عهده وأمانته . وخان الرّجل خونًا كان به خون أي ضعف وفترة في نظره . وخوّنه تخوينا نسبه إلى الخيانة . وتخوّنه أيضا : تعهّده . واختانه اختيانا بمعنى خانه . والاختيان أبلغ من الخيانة . كما أنّ الاكتساب أبلغ من الكسب . واستخانه استخانة حاول خيانته .

والخائن اسم فاعل ، جمعه خانة وخونة وخوّان .

والخائنة : مؤنّث الخائن . وقد يستعمل للخائن أيضا بزيادة التّاء المربوطة للمبالغة كرواية للكثير الرّواية .

وخائنة الأعين ما يسارق من النّظر إلى مالا يحلّ .

وقيل : هي أن ينظر نظرة بريبة . ومنه الحديث : " إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِى لِنَبِىٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الأَعْيُنِ " (صحيح أبي داود / 2683) أي يضمر في نفسه غير ما يظهره فإذا كفّ لسانه وأومأ بعينه فقد خان .

الخيانة اصطلاحًا : قال الجاحظ : الخيانة هي الاستبداد بما يؤتمن الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم ، وتملّك ما يستودع ومجاحدة مودعه ، وفيها أيضا طيّ الأخبار إذا ندب لتأديتها ، وتحريف الرّسائل إذا تحمّلها

فصرفها عن وجوهها . وقال المناويّ : الخيانة : هي التّفريط في الأمانة ، وقيل : هي مخالفة الحقّ بنقض العهد في السّرّ .

وقال الكفويّ : إنّ الخيانة تقال اعتبارا بالعهد والأمانة ، وخيانة الأعين : ما تسارق من النّظر إلى ما لا يحلّ .

وقال ابن الجوزيّ : الخيانة : التّفريط فيما يؤتمن الإنسان عليه . ونقيضها : الأمانة .

وقال القرطبيّ : الخيانة : الغدر وإخفاء الشّيء، ومنه (يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ) (غافر / 19) .

الفرق بين النفاق والخيانة :

قال الرّاغب : الخيانة والنّفاق واحد ، إلّا أنّ الخيانة تقال : اعتبارا بالعهد والأمانة ، والنّفاق يقال : اعتبارا بالدّين ، ثمّ يتداخلان . فالخيانة : مخالفة الحقّ بنقض العهد في السّرّ . ونقيض الخيانة الأمانة . يقال : خنت فلانا وخنت أمانة فلان . قال تعالى: (لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ) (الأنفال / 28) .

من معاني كلمة الخيانة في القرآن الكريم :

أحدها : المعصية ، ومنه قوله تعالى : (عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ) (البقرة / 187) قال ابن قتيبة : تخونونها بالمعصية .

الثّاني : نقض العهد . ومنه قوله تعالى في الأنفال : (وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ) (الأنفال / 58) .

الثّالث : ترك الأمانة . ومنه قوله تعالى في النّساء : (وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيمًا) (النساء / 105) . (نزلت في طعمة بن أبيرق المنافق كان عنده درع فخانها) .

الرّابع : المخالفة في الدّين . ومنه قوله تعالى في التّحريم : (كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما) (التحريم / 10) .

وزاد ابن سلّام وجها خامسًا فقال : والخيانة تعني الزّنا في قوله تعالى : (وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ) (يوسف / 52) .

حكم الخيانة :

عدّ الإمام الذّهبيّ الخيانة من الكبائر بدليل قول النّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ " (خ / 33) ولقوله أيضًا : " أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ " (صحيح أبي داود / 3536) .

وقال : الخيانة قبيحة في كلّ شيء ، وبعضها شرّ من بعض ، وليس من خانك في فلس كمن خانك في أهلك ومالك وارتكب العظائم .

أمّا ابن حجر فقد ذكر : أنّ الخيانة في الأمانات والوديعة والعين المرهونة والمستأجرة أو غير ذلك من الكبائر ، وقال : عدّ ذلك كبيرة هو ما صرّح به غير واحد ، وظاهر ممّا ذكر في الآيات والأحاديث .

الآيات الواردة في الخيانة :

(إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) (الحج / 38) .

(وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ) (يوسف /52) .

الأحاديث الواردة في ذمّ (الخيانة) :

1– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أنّ رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ " (خ / 33) .

2– عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ " . (خ / 34) .

3 – " وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ الضَّعِيفُ الَّذِى لاَ زَبْرَ لَهُ الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لاَ يَتْبَعُونَ أَهْلاً وَلاَ مَالاً وَالْخَائِنُ الَّذِى لاَ يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلاَّ خَانَهُ وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِى إِلاَّ وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ ". وَذَكَرَ الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ " وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ " . وَلَمْ يَذْكُرْ أَبُو غَسَّانَ فِى حَدِيثِهِ " وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ " (م / 7386) .

من الآثار الواردة في ذمّ (الخيانة) :

1– عن عديّ بن حاتم – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : أتينا عمر في وفد ، فجعل يدعو رجلا رجلا ويسمّيهم . فقلت : أما تعرفني يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلى ، أسلمت إذ كفروا ، وأقبلت إذ أدبروا ، ووفيت إذ غدروا ، وعرفت إذ أنكروا . فقال عديّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : فلا أبالي إذًا) .

2– قال علي– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – :

أدّالأمانة والخيانة فاجتنب ... واعدل ولا تظلم يطيب المكسب

3– كان شريح يقضي في المضارب بقضائين : كان ربّما قال للمضارب : بيّنتك على مصيبة تعذر بها . وربّما قال لصاحب المال : بيّنتك أنّ أمينك خائن وإلّا فيمينه باللّه ما خانك .

من مضار (الخيانة) :

(1) تسخط اللّه – عزّ وجلّ – على العبد .

(2) داء وبيل إذا استشرى بالإنسان جرّده من إنسانيّته وجعله وحشايهيم وراء ملذّاته .

(3) من علامات النّفاق .

(4) طريق موصل إلى العار في الدّنيا والنّار في الآخرة .

(5) أسوأ ما يبطن الإنسان .

(6) خيانة المجاهد في أهله أعظم جرمًا من خيانة غير المجاهد .

(7) انتشار الخيانة في المجتمع من علامات اضمحلاله وهو علامة من علامات السّاعة .

(8) انتشار الغلول والرّشوة والمطل والغشّ لأنّها كلّها من الخيانة .

7 – الذي يجهر بالسوء

قَالَ الله تَعَالَى : (لاَّ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ) (النساء / 148)

قال ابن كثير في تفسير القرآن العظيم :

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – : (لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ) يقول : لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد ، إلا أن يكون مظلومًا ، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه ، وذلك قوله : (إِلا مَنْ ظُلِمَ) وإن صبر فهو خير له .

وقال الحسن البصري : لا يدع عليه ، وليقل : اللهم أعني عليه ، واستخرج حقي منه . وفي رواية عنه قال : قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه .

وقال عبد الكريم بن مالك الجَزَريّ في هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه ، ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه ؛ لقوله : (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ) (الشورى / 41) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أن رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالاَ فَعَلَى الْبَادِئِ مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ " (م / 6756) .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا المثنى بن الصباح ، عن مجاهد في قوله : (لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلا مَنْ ظُلِمَ) قال : ضاف رجل رجلا فلم يؤدّ إليه حقّ ضيافته ، فلما خرج أخبر الناس ، فقال : ضفت فلانًا فلم يؤدّ إليّ حق ضيافتي . فذلك الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ، حين لم يؤد الآخر إليه حق ضيافته .

وعن مجاهد : (لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلا مَنْ ظُلِمَ) قال : قال هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته ، فيخرج فيقول : أساء ضيافتي ، ولم يحسن . وفي رواية هو الضيف المحول رحلُه ، فإنه يجهر لصاحبه بالسوء من القول .

وقد روى الجماعة سوى النسائي والترمذي عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قُلْنَا لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِنَّكَ تَبْعَثُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ لاَ يَقْرُونَا فَمَا تَرَى فِيهِ فَقَالَ لَنَا إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأُمِرَ لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَاقْبَلُوا فَإِنْ لَم يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ " . (خ / 2461) .

عَنْ أَبِي كَرِيمَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لَيْلَةُ الضَّيْفِ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فَمَنْ أَصْبَحَ بِفِنَائِهِ فَهُوَ عَلَيْهِ دَيْنٌ إِنْ شَاءَ اقْتَضَى وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ " (صحيح أبي داود / 3750) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ لِي جَارًا يُؤْذِينِي ، فَقَالَ : " انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَتَاعَكَ إِلَى الطَّرِيقِ ، فَانْطَلَقَ فَأَخْرِجَ مَتَاعَهُ ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ ، فَقَالُوا : مَا شَأْنُكَ ؟ قَالَ : لِي جَارٌ يُؤْذِينِي ، فَذَكَرْتُ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَتَاعَكَ إِلَى الطَّرِيقِ ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ : اللَّهُمَّ الْعَنْهُ ، اللَّهُمَّ أَخْزِهِ . فَبَلَغَهُ ، فَأَتَاهُ فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى مَنْزِلِكَ ، فَوَاللَّهِ لاَ أُؤْذِيكَ . (صحيح الأدب المفرد 124 / 92) .

8– المفسدون

قَالَ الله تَعَالَى : (وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (المائدة / 64)

الفساد لغة :

الفساد : مصدر فسد يفسد فسادًا وهو ضدّ الصّلاح ، يقول ابن فارس : الفاء والسّين والدّال كلمة واحدة ، فسد الشّيء يفسد فسادًا ، وهو فاسد وفسيد ، قال اللّيث : الفساد : نقيض الصّلاح ، والفعل فسد يفسد فسادًا ، قلت ولغة أخرى : فسد فسودًا ، واستفسد السّلطان قائده إذا أساء إليه حتّى استعصى عليه ، وقيل الفساد (في الأرض) مأخوذ من فسد اللّحم . يقول ابن جرير الطّبريّ في معنى قوله تعالى: (وَإِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ) (البقرة / 205) اختلف أهل التّأويل في معنى الإفساد الّذي أضافه اللّه – عزّ وجلّ – إلي هذا المنافق : فقال : تأويله ما قلنا فيه من قطعه الطّريق ، وإخافته السّبيل كما حدث من الأخنس بن شريق . وقال بعضهم : بل معنى ذلك قطع الرّحم وسفك دماء المسلمين ... وقد يدخل في الإفساد جميع المعاصي ، وذلك أنّ العمل بالمعاصي إفساد في الأرض ، فلم يخصّص اللّه وصفه ببعض معاني الإفساد دون بعض .

وقال القرطبيّ في قوله تعالى : (وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ) قال العبّاس بن الفضيل : الفساد هو الخراب . وقال سعيد بن المسيّب : قطع الدّراهم من الفساد في الأرض . قلت : والآية بعمومها تضمّ كلّ فساد في أرض أو مال أو دين ، وهو الصّحيح إن شاء اللّه تعالى . قيل : معنى لا يحبّ الفساد : أي لا يحبّه من أهل الصّلاح ، أو لا يحبّه دينًا ، ويحتمل أن يكون المعنى لا يأمر به ، واللّه أعلم ، والفساد في قوله تعالى :

(لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً) (القصص / 83) فمعناه أخذ المال ظلما بغير حقّ . أمّا قوله تعالى : (ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) (الروم / 41) الفساد هنا الجدب في البرّ ، والقحط في البحر .

قال ابن منظور : وفسد يفسد ويفسد وفسد فسادًا وفسودًا فهو فاسد وفسيد فيهما . ولا يقال انفسد . وأفسدته أنا . وقوله تعالى : (وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسادًا) (المائدة / 33) نصب فسادًا لأنّه مفعول له ، أراد يسعون في الأرض للفساد .

وتفاسد القوم : تدابروا وقطعوا الأرحام .

والمفسدة : خلاف المصلحة .

والاستفساد : خلاف الاستصلاح . وقالوا :

هذا الأمر مفسدة لكذا : أي فيه فساد . قال الشّاعر :

إنّ الشّباب والفراغ والجده ... مفسدة للعقل أيّ مفسده

الفساد اصطلاحًا :

قال الرّاغب : الفساد خروج الشّيء عن الاعتدال قليلا كان الخروج عليه أو كثيرًا ، ويستعمل في النّفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة .

وقال المناويّ : الفساد : هو انتقاض صورة الشّيء ، وفساد (البيوع) عند الفقهاء ما كان مشروعًا بأصله غير مشروع بوصفه ، وهو يرادف البطلان عند الشّافعيّة ، وضدّه الصّحّة ، ويشكّل قسمًا قائمًا برأسه عند الأحناف : فالشّيء عندهم إمّا صحيح ، وإمّا باطل ، وإمّا فاسد .

وقال ابن الجوزيّ : والفساد : تغيّر الشّيء عمّا كان عليه من الصّلاح ، وقد يقال في الشّيء مع قيام ذاته ، ويقال فيه مع انتقاضها ، ويقال فيه إذا بطل وزال .

ويذكر الفساد في الدّين كما يذكر في الذّات .

فتارة يكون بالعصيان ، وتارة بالكفر ، ويقال في الأقوال إنّها فاسدة إذا كانت غير منتظمة ، وفي الأفعال إذا لم يعتدّ بها .

الفساد في الأرض :

من الفساد في الأرض ما أشارت إليه الآية الكريمة (وَإِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها) (البقرة / 205) ويكون هذا الفساد بقطع الطّريق وإخافتها ، وقيل بقطع الرّحم وسفك دماء المسلمين ، وقد يدخل في هذا ارتكاب جميع المعاصي .

الإفساد اصطلاحًا :

قال الكفويّ : الإفساد هو جعل الشّيء فاسدًا خارجا عمّا ينبغي أن يكون عليه وعن كونه منتفعا به ، وهو في الحقيقة : إخراج الشّيء عن حالة محمودة لا لغرض صحيح .

حكم الفساد (أو الإفساد في الأرض) :

يقول ابن حجر بعد أن ذكر الآية الكريمة (إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسادًا) (المائدة / 33) : كما ذكر اللّه تعالى تغليظ الإثم في قتل النّفس بغير حقّ ، والإفساد في الأرض أتبعه ببيان نوع من أنواع الفساد في الأرض وذكر أنّ عدّ هذا الفساد كبيرة هو ما صرّح به جمع ، وصرّح بعضهم أنّه بمجرّد قطع الطّريق وإخافة السّبيل ترتكب الكبيرة ، فكيف إذا أخذ المال ، أو جرح ، أو قتل ، أو فعل كبائر .

الفرق بين الفساد والظلم :

قال الكفويّ : الفساد أعمّ من الظّلم ؛ لأنّ الظّلم النّقص ، فإنّ من سرق مال الغير مثلا فقد نقص حقّ الغير ، أمّا الفساد فيقع على ذلك وعلى غيره كالابتداع واللّهو واللّعب .

الفرق بين الفاسد والباطل :

وقال يرحمه اللّه : الفاسد ما أمكن الانتفاع به رغمًا عن رداءته ، من قولهم فسد اللّحم إذا أنتن ، والباطل ما لا يمكن أن ينتفع به ، من قولهم بطل اللّحم إذا دوّد وسوّس بحيث لا يمكن الانتفاع به .

من معاني كلمة (الفساد) في القرآن الكريم :

أحدها : المعصية . ومنه قوله تعالى في (البقرة / 11) : (وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ)

والثّاني : الهلاك ، ومنه قوله تعالى في (الأنبياء / 22) : (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا) .

الثّالث : الخراب ، ومنه قوله تعالى في (النّمل / 34) : (إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها) .
الرّابع : المنكر ، ومنه قوله تعالى في (هود / 116) : (أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ) .
الخامس : السّحر ، ومنه قوله تعالى في (يونس / 81) : (إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) .
قال ابن القيّم – يرحمه اللّه – في قوله تعالى : (وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها) (الأعراف / 56) : قال أكثر المفسّرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي ، والدّعاء إلى غير طاعة اللّه ، بعد إصلاح اللّه لها ببعث الرّسل ، وبيان الشّريعة ، والدّعاء إلى طاعة اللّه ، فإنّ عبادة غير اللّه والدّعوة إلى غيره والشّرك به هو أعظم فساد في الأرض ، بل فساد الأرض في الحقيقة إنّما هو بالشّرك به ومخالفة أمره ، فالشّرك والدّعوة إلى غير اللّه وإقامة معبود غيره ، ومطاع متّبع غير رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، هو أعظم فساد في الأرض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلّا بأن يكون اللّه وحده هو المعبود المطاع ، والدّعوة له لا لغيره ، والطّاعة والاتّباع لرسوله ليس إلّا ، وغيره إنّما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرّسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – . فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة . ومن تدبّر أحوال العالم وجد كلّ صلاح في الأرض فسببه توحيد اللّه وعبادته وطاعة رسوله ، وكلّ شرّ في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدوّ وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله ، والدّعوة إلى غير اللّه ورسوله .

الآيات الواردة في الفساد :

(وَإِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ) (البقرة / 205) .
(إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ) (المائدة / 33) .
(كُلَّما أَوْقَدُوا نارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (المائدة / 64).
(وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) (الرعد / 25) .

الأحاديث الواردة في ذمّ (الفساد) :

1 – عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ " قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : " صَلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ " . (صحيح الترمذي / 2509) .

من الآثار وأقوال العلماء الواردة في ذمّ (الفساد) :

1– قال عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : وإنّا واللّه ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر ، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلا منهم بعدنا ، فإمّا بايعناهم على مالا نرضى وإمّا نخالفهم فيكون فسادًا ، فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الّذي بايعه تغرّة أن يقتلا .

2– عن عبد اللّه بن سبيع ؛ قال : سمعت عليًّا يقول : لتخضبنّ هذه من هذا ، فما ينتظر بي الأشقى ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، فأخبرنا به نبير عترته . قال : إذن تاللّه – تقتلون بي غير قاتلي . قالوا : فاستخلف علينا . قال : لا. ولكن أترككم إلى ما تركككم إليه رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – . قالوا : فما تقول لربّك إذا أتيته ، وقال وكيع مرّة : إذا لقيته ؟ قال : أقول : اللّهمّ تركتني فيهم ما بدا لك ، ثمّ قبضتني إليك وأنت فيهم ، فإن شئت أصلحتهم ، وإن شئت أفسدتهم .

3– عن عمرو بن العاص– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : لا تفسدوا علينا سنّة نبيّنا محمّد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –. عدّة أمّ الولد أربعة أشهر وعشرًا .

4– عَنْ أَبِى نَوْفَلٍ رَأَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ عَلَى عَقَبَةِ الْمَدِينَةِ – قَالَ – فَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ تَمُرُّ عَلَيْهِ وَالنَّاسُ حَتَّى مَرَّ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذَا أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذَا أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنْ كُنْتَ مَا عَلِمْتُ صَوَّامًا قَوَّامًا وَصُولاً لِلرَّحِمِ أَمَا وَاللَّهِ لأُمَّةٌ أَنْتَ أَشَرُّهَا لأُمَّةٌ خَيْرٌ. ثُمَّ نَفَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فَبَلَغَ الْحَجَّاجَ مَوْقِفُ عَبْدِ اللَّهِ وَقَوْلُهُ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأُنْزِلَ عَنْ جِذْعِهِ فَأُلْقِىَ فِى قُبُورِ الْيَهُودِ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُمِّهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِى بَكْرٍ فَأَبَتْ أَنْ تَأْتِيَهُ فَأَعَادَ عَلَيْهَا الرَّسُولَ لَتَأْتِيَنِّى أَوْ لأَبْعَثَنَّ إِلَيْكِ مِنْ يَسْحَبُكِ بِقُرُونِكِ – قَالَ – فَأَبَتْ وَقَالَتْ وَاللَّهِ لاَ آتِيكَ حَتَّى تَبْعَثَ إِلَىَّ مَنْ يَسْحَبُنِى بِقُرُونِى – قَالَ – فَقَالَ أَرُونِى سِبْتَىَّ. فَأَخَذَ نَعْلَيْهِ ثُمَّ انْطَلَقَ يَتَوَذَّفُ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهَا فَقَالَ كَيْفَ رَأَيْتِنِى صَنَعْتُ بِعَدُوِّ اللَّهِ قَالَتْ رَأَيْتُكَ أَفْسَدْتَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ بَلَغَنِى أَنَّكَ تَقُولُ لَهُ يَا ابْنَ ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ أَنَا وَاللَّهِ ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكُنْتُ أَرْفَعُ بِهِ طَعَامَ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– وَطَعَامَ أَبِى بَكْرٍ مِنَ الدَّوَابِّ وَأَمَّا الآخَرُ فَنِطَاقُ الْمَرْأَةِ الَّتِى لاَ تَسْتَغْنِى عَنْهُ أَمَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– حَدَّثَنَا « أَنَّ فِى ثَقِيفٍ كَذَّابًا وَمُبِيرًا ». فَأَمَّا الْكَذَّابُ فَرَأَيْنَاهُ وَأَمَّا الْمُبِيرُ فَلاَ إِخَالُكَ إِلاَّ إِيَّاهُ – قَالَ – فَقَامَ عَنْهَا وَلَمْ يُرَاجِعْهَا " (م / 6660) .

5– عن أبي المنهال قال : " لمّا كان ابن زياد ومروان بالشّام وثب ابن الزّبير بمكّة ، ووثب القرّاء بالبصرة ، فانطلقت مع أبي إلى أبي برزة الأسلميّ حتّى دخلنا عليه في داره وهو جالس في ظلّ علّيّة له من قصب فجلسنا إليه ، فأنشأ أبي يستطعمه الحديث فقال : يا أبا برزة ألا ترى ما وقع فيه النّاس ؟ فأوّل شيء سمعته تكلّم به : إنّي احتسبت عند اللّه أنّي أصبحت ساخطًا على أحياء قريش ، إنّكم يا معشر العرب ، كنتم على الحال الّذي علمتم من الذّلّة والقلّة والضّلالة ، وإنّ اللّه أنقذكم بالإسلام وبمحمّد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حتّى بلغ بكم ما ترون ، وهذه الدّنيا الّتي أفسدت بينكم . إنّ ذاك الّذي بالشّام واللّه إن يقاتل إلّا على دنيا ، وإنّ هؤلاء الّذين بين أظهركم واللّه إن يقاتلون إلّا على دنيا ، وإنّ ذاك الّذي بمكّة واللّه إن يقاتل إلّا على الدّنيا " .

6– عن أمّ سلمة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْها – قالت : خرج أبو بكر في تجارة إلى بصرى . قبل موت النّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بعام . ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة – وكانا شهدا بدرًا – وكان نعيمان على الزّاد . وكان سويبط رجلا مزّاحًا . فقال لنعيمان : أطعمني . قال : حتّى يجيء أبو بكر . قال : فلأغيظنّك . قال ، فمرّوا

بقوم . فقال لهم سويبط : تشترون منّي عبدًا لي ؟ قالوا : نعم . قال : إنّه عبد له كلام . وهو قائل لكم : إنّي حرّ . فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه فلا تفسدوا عليّ عبدي . قالوا : لا . بل نشتريه منك . فاشتروه منه بعشر قلائص . ثمّ أتوه فوضعوا في عنقه عمامة أو حبلا . فقال نعيمان : إنّ هذا يستهزىء بكم . وإنّي حرّ ، لست بعبد . فقالوا : قد أخبرنا خبرك . فانطلقوا به . فجاء أبو بكر . فأخبروه بذلك . قال : فاتّبع القوم . وردّ عليهم القلائص . وأخذ نعيمان . قال ، فلمّا قدموا على النّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وأخبروه . قال : فضحك النّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وأصحابه منه حولا .

7– عن سعيد بن المسيّب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : قطع الذّهب والورق من الفساد في الأرض .

من مضار (الفساد) :

(1) أعظم درجات الفساد الشّرك باللّه تعالى .

(2) المنافقون واليهود والنّصارى والمجوس والمشركون ومن شايعهم وماثلهم من ملل الكفر كلّهم فاسدون في معتقداتهم ، ومفسدون في مجتمعاتهم .

(3) الفساد في الأرض كقتل النّفس ، أو أشدّ ولذا جعل اللّه جزاء الّذين يحاربون اللّه ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا ، أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض . وقد يجمع الحاكم بينها إذا عظم الفساد . وإنّ عظم الجزاء مع عظم الذّنب .

(4) إذا كثرت مظاهر الفساد في مجتمع من المجتمعات فقد دنا ما ينتظرهم من سخط اللّه وأليم عقابه .

(5) المفسد معول هدم في المجتمع .

(6) تطبيق القوانين الوضعيّة من أعظم الفساد في الأرض .

9 – المسرفون

قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (الأعراف / 31)

الإسراف لغة :

الإسراف مصدر أسرف يسرف وهو مأخوذ من مادّة (س ر ف) الّتي تدلّ على تعدّي الحدّ والإغفال للشّيء ، تقول : في الأمر سرف ، أي مجاوزة القدر ، وأمّا الإغفال فقول القائل : مررت بكم فسرفتكم : أي أغفلتكم ، أو جهلتكم .

وقال الرّاغب : السّرف تجاوز الحدّ في كلّ فعل يفعله الإنسان ، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر ، ويقال تارة اعتبارا بالقدر (الكمّيّة) وتارة اعتبارًا بالكيفيّة ، ولهذا قال سفيان بن عيينة : ما أنفقت في غير طاعة اللّه سرف ، وإن كان قليلا ، وقول اللّه تعالى : (قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ) (الزمر / 53) الإسراف هنا يتناول المال وغيره ، وسمّي قوم لوط مسرفين من حيث إنّهم تعدّوا في وضع البذر في غير المحرث المخصوص له ، والإسراف في القتل : أن يقتل وليّ الدّم غير القاتل أو يتعدّاه إلى من هو أشرف منه حسبما كانت الجاهليّة تفعله ، وقيل : السّرف ضدّ القصد، والسّرف الإغفال والخطأ ، يقال : سرفت الشّيء إذا أغفلته وجهلته ، ورجل سرف الفؤاد أي مخطيء الفؤاد غافله ، وسرف العقل : غافله ، وقيل : فاسده ، والإسراف في النّفقة : التّبذير ، وقيل أراد بالسّرف : الغفلة ، وقيل هو من الإسراف والتّبذير في النّفقة لغير حاجة ، أو في غير طاعة اللّه . شبّهت ما يخرج في الإكثار من اللّحم بما يخرج في الخمر .

قال ابن الأثير : وقد تكرّر ذكر الإسراف في الحديث ، والغالب على ذكره : الإكثار من الذّنوب والخطايا ، واحتقاب الأوزار والآثام . وفي التّنزيل العزيز : (وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ) (غافر / 43) أي المتجاوزين في أمورهم الحدّ ، وقيل : أراد المشركين ، وقيل : السّفهاء والسّفّاكون للدّماء بغير حقّها ، وقيل : الجبّارون والمتكبّرون ، وقيل : هم الّذين تعدّوا حدود اللّه ، وهذا جامع لما ذكر ، لأنّ السّرف والإسراف مجاوزة القصد ، يقال : أسرف في ماله : عجل من غير قصد (أي اعتدال) .

قال ابن منظور : وأمّا السّرف الّذي نهى اللّه عنه فهو ما أنفق في غير طاعة اللّه ، قليلا كان أو كثيرا ، ويقال : أسرف في الكلام وفي القتل : أفرط ، وسرف الماء ما ذهب منه في غير سقي ولا نفع .

الإسراف اصطلاحًا :

قال الجرجانيّ : الإسراف : هو إنفاق المال الكثير في العرض الخسيس ، وقيل : هو تجاوز الحدّ في النّفقة ، وقيل : هو أن يأكل الرّجل ما لا يحلّ له أو يأكل ممّا يحلّ له فوق الاعتدال ومقدار الحاجة . وقيل : هو تجاوز في الكمّيّة فهو جهل بمقادير الحقوق . وقال المناويّ : الإسراف : هو الإبعاد في مجاوزة الحدّ .

مظاهر الإسراف وأنواعه :

قال الرّاغب : الإنفاق ضربان : ممدوح ومذموم .

فالممدوح منه ما يكسب صاحبه العدالة ، وهو بذل ما أوجبت الشّريعة بذله ، كالصّدقة المفروضة والإنفاق على العيال ... الخ .

والمذموم ضربان : إفراط وهو التّبذير والإسراف ، وتفريط وهو التّقتير والإمساك ، وكلاهما يراعى فيه الكمّيّة والكيفيّة ، فالأوّل من جهة الكمّيّة أن يعطي أكثر ممّا يحتمله حاله .

ومن جهة الكيفيّة بأن يضعه في غير موضعه ، والاعتبار هنا بالكيفيّة أكثر منه بالكمّيّة ، فربّ منفق درهمًا من ألوف وهو في إنفاقه مسرف ، وببذله مفسد ظالم ، كمن أعطى فاجرة درهمًا ، أو اشترى خمرًا . وربّ منفق ألوفًا لا يملك غيرها هو فيها مقتصد ، وببذلها مجتهد ، كما روي في شأن الصّدّيق أبي بكر – رضي اللّه عنه – وقد قيل لبعضهم : متى يكون بذل القليل إسرافًا والكثير اقتصادًا ؟ قال : إذا كان بذل القليل في باطل والكثير في حقّ .

أمّا الثّاني : وهو التّقتير فهو من جهة الكمّيّة أن ينفق دون ما يحتمله حاله ، ومن حيث الكيفيّة ، أن يمنع من حيث يجب ، ويضع حيث لا يجب . وليس الإسراف متعلّقًا بالمال وحده ، بل في كلّ شيء وضع في غير موضعه اللّائق به ، ألا ترى أنّ اللّه تعالى وصف قوم لوط بالإسراف لوضعهم البذر في غير المحرث فقال : (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) (الأعراف / 81) ووصف فرعون بقوله : (إِنَّهُ كانَ عالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ) (الدخان / 31) .

الآيات الواردة في الإسراف :

(يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (الأعراف /31).

(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) (غافر / 28) .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى) (طه /124) .

(قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا) (طه / 125) .

(قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى) (طه / 126) .

(وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى) (طه / 127) .

(وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ) (غافر / 43) .

الأحاديث الواردة في ذمّ (الإسراف) :

1 – عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – أنّه قال : قال رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " كُلُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ " . (صحيح النسائي / 2559) .

من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في ذمّ (الاسراف) :

1– قال عمر بن الخطّاب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – لجابر بن عبد اللّه – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – لمّا مرّ عليه ومعه حامل لحم : أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه لجاره وابن عمّه ؟ فأين تذهب عنكم هذه الآية (أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها) .

2– قال ابن عبّاس– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – في تفسير قوله تعالى : (وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) (سبأ / 39) : يعني في غير إسراف ولا تقتير .

3– قال عطاء بن أبي رباح – يرحمه اللّه تعالى– في معنى قوله تعالى : (وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ نهوا عن الإسراف في كلّ شيء) (الأنعام / 141) .

4– وقال السّدّيّ – يرحمه اللّه تعالى – فيها : لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء .

5– وقال ابن كثير – يرحمه اللّه تعالى – : لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرّة العقل والبدن .

6– قال إياس بن معاوية – يرحمه اللّه تعالى – ما جاوزت به أمر اللّه فهو سرف .

7– قال سفيان – يرحمه اللّه تعالى – ما أنفقت في غير طاعة اللّه فهو سرف وإن كان قليلا .

8– قال ابن القيّم – يرحمه اللّه تعالى – : إنّ مجاوزة الحدّ في كلّ أمر يضرّ بمصالح الدّنيا والآخرة ، بل يفسد البدن أيضًا ، إذ إنّه متى زادت أخلاطه عن حدّ العدل والوسط ذهب من صحّته وقوّته بحسب ذلك ، وهذا مطّرد أيضًا في الأفعال الطّبيعيّة كالنّوم والسّهر والأكل والشّرب والجماع والحركة والرّياضة والخلوة والمخالطة وغير ذلك .

9– وقال أيضًا – يرحمه اللّه تعالى – في قوله تعالى : (وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا) (الفرقان / 67) : أي ليسوا بمبذّرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم فيقصّرون في حقّهم ، فلا يكفونهم ، بل عدلا خيارًا ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا .

10– قال الفيروز اباديّ – يرحمه اللّه تعالى – في قوله تعالى : (وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ) (غافر / 43) :

هم المتجاوزون في أمورهم الحدّ .

11– كما سمّى اللّه قوم لوط مسرفين لأنّهم تعدّوا في وضع البذر المحرث المخصوص (أي قبل المرأة) .

12– قال الشّنقيطيّ – يرحمه اللّه تعالى – : نهى اللّه عن الإسراف في القتل وهو يشمل ثلاث صور :

(1) أن يقتل اثنين أو أكثر بواحد ، كما كانت العرب تفعله .

(2) أن يقتل بالقتيل واحدًا فقط ولكنّه غير قاتله ، لأنّ قتل البريء بذنب غيره إسراف في القتل منهيّ عنه .

(3) أن يقتل نفس القاتل لكن يمثّل به لأنّ زيادة التّمثيل إسراف في القتل .

13– قال بعض السّلف : جمع اللّه الطّبّ كلّه في نصف آية (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا) (الأعراف / 31) .

من مضار (الإسراف) :

(1) يجلب غضب الرّبّ لأنّه ينافي كمال الإيمان .

(2) التّشبّه بالشّيطان في الإفساد .

(3) إضاعة المال والفقر في المال .

(4) النّدم والحسرة على ما ضاع من غير فائدة .

(5) يطبع المجتمع بطابع الانحلال والبعد عن الجدّ والإجتهاد .

(6) يدع المجتمع عالة على غيره عاجزًا عن القيام بمهامّه .

10 – المستكبرون

قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) (النحل /23) .

الكبر لغة :

اسم كالكبرياء بمعنى العظمة ، وهو مأخوذ من مادّة (ك ب ر) الّتي تدلّ على خلاف الصّغر . قال ابن فارس : ومن الباب الكبر وهو الهرم ، والكبر :

العظمة ، وكذلك الكبرياء ، يقال : ورثوا المجد كابرًا عن كابر . أي كبيرًا عن كبير فى الشّرف والعزّ ، وأكبرت الشّيء استعظمته ، والتّكبّر والاستكبار : التّعظّم ، وكبر الشّيء معظمه ، قال تعالى : (وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ) (النور / 11) أي معظم أمره .

وقال ابن منظور : الكبر بالكسر : الكبرياء ، والكبر العظمة والتّجبّر ، وقيل : الرّفعة في الشّرف ، وقيل : هي عبارة عن كمال الذّات ولا يوصف بها إلّا اللّه تعالى .

يقال : تكبّر ، واستكبر ، وتكابر . وقيل : تكبّر : من الكبر وتكابر من السّنّ . والتكبّر والاستكبار : التّعظّم ، وقوله تعالى : (سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) (الأعراف / 46) .

قال الزّجّاج : أي أجعل جزاءهم الإضلال عن هداية آياتي . قال : ومعنى يتكبّرون : أي أنّهم يرون أنّهم أفضل الخلق ، وأنّ لهم من الحقّ ما ليس لغيرهم . وهذه الصّفة لا تكون إلّا للّه خاصّة ، لأنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الّذي له القدرة والفضل الّذي ليس لأحد مثله .

المتكبر من أسماء اللّه تعالى :

قال ابن الأثير : في أسماء اللّه تعالى المتكبّر والكبير ، أي العظيم ذو الكبرياء ، وقيل : المتعالى عن صفات الخلق ، وقيل : المتكبّر على عتاة خلقه .

وقال الغزاليّ : المتكبّر : هو الّذى يرى الكلّ حقيرًا بالإضافة إلى ذاته ، ولا يرى العظمة والكبرياء إلّا لنفسه ، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد ، فإن كانت هذه الرّؤية صادقة كان التّكبّر حقًّا ، وكان صاحبها متكبّرًا حقًّا ، ولا يتصوّر ذلك على الإطلاق إلّا للّه تعالى .

وإن كان ذلك التّكبّر والاستعظام باطلا ، ولم يكن ما يراه من التّفرّد بالعظمة كما يراه ، كان التّكبّر باطلا ومذمومًا ، وكلّ من رأى العظمة والكبرياء لنفسه على الخصوص ، دون غيره ، كانت رؤيته كاذبة ، ونظره باطلا .

واصطلاحًا :

هو بطر الحقّ وغمط النّاس .

وقال الغزاليّ : – يرحمه اللّه – هو استعظام النّفس ، ورؤية قدرها فوق قدر الغير .

وقال أيضًا – يرحمه اللّه – : الكبر حالة يتخصّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وأن يرى نفسه أكبر من غيره .

وقال التّهانويّ : جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها . أمّا المكابرة ، فهي المنازعة لا لإظهار الصّواب ولا لإلزام الخصم .

وقال الجاحظ : الكبر هو استعظام الإنسان نفسه ، واستحسان ما فيه من الفضائل ، والاستهانة بالنّاس واستصغارهم والتّرفّع على من يجب التّواضع له .

وقال الكفويّ : التّكبّر : هو أن يرى المرء نفسه أكبر من غيره ، والاستكبار طلب ذلك التّشبّع وهو التّزيّن بأكثر ممّا عنده .

الكبر مفتاح الشقاء :

قال الغزاليّ – يرحمه اللّه – مفتاح السّعادة التّيقّظ والفطنة ، ومنبع الشّقاوة الكبر والغفلة ، فلا نعمة للّه على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصّدر بنور البصيرة ، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة ، فالأكياس هم الّذين أراد اللّه أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى ، والمتكبّرون هم الّذين أراد اللّه أن يضلّهم فجعل صدرهم ضيّقًا حرجًا كأنّما يصّعّد في السّماء . فالمتكبّر هو الّذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا ، وبقي في العمى فاتّخذ الهوى قائدًا والشّيطان دليلا .

فالكبر آفة عظيمة هائلة ، وفيه يهلك الخواصّ من الخلق ، وقلّما ينفكّ عنه العبّاد والزّهّاد والعلماء فضلا عن عوامّ الخلق ، وكيف لا تعظم آفته وقد قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ " (م / 275) وإنّما صار حجابًا دون الجنّة لأنّه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلّها ، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنّة ، والكبر يغلق تلك الأبواب كلّها ، لأنّه لا يقدر على أن يحبّ للمؤمنين ما يحبّ لنفسه وفيه شيء من الكبر . فما من خلق ذميم إلّا وصاحب الكبر مضطرّ إليه ليحفظ كبره ، وما من خلق محمود إلّا وهو عاجز عنه خوفًا من أن يفوته عزّه . فمن هذا لم يدخل الجنّة من في قلبه مثقال حبّة منه .

والأخلاق الذّميمة متلازمة ، والبعض منها داع إلى البعض لا محالة . وشرّ أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحقّ والانقياد له .

أسباب الكبر :

أسباب الكبر ثلاثة : سبب فى المتكبّر ، وسبب في المتكبّر عليه ، وسبب فيما يتعلّق بغيرهما أمّا السّبب الّذي فى المتكبّر : فهو العجب ، والّذي يتعلّق بالمتكبّر عليه هو الحقد ، والحسد ، والّذي يتعلّق بغيرهما هو الرّياء ، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة .

العجب ، والحقد ، والحسد ، والرّياء :

أمّا العجب : فإنّه يورث الكبر الباطن ، والكبر يثمر التّكبّر الظّاهر في الأعمال والأقوال والأحوال .

وأمّا الحقد : فإنّه يحمل على التّكبّر من غير عجب ، كالّذي يتكبّر على من يرى أنّه مثله أو فوقه ، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقدًا ورسخ في قلبه بغضه ، فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقًّا للتّواضع .

وأمّا الحسد : فإنّه أيضًا يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضي الغضب والحقد ، ويدعو الحسد أيضًا إلى جحد الحقّ حتّى يمنع من قبول النّصيحة وتعلّم العلم ، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدًا وبغيًا عليه . فهو يعرض عنه ويتكبّر عليه مع معرفته بأنّه يستحقّ التّواضع بفضل علمه ، ولكنّ الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبّرين ، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه .

وأمّا الرّياء : فهو أيضًا يدعو إلى أخلاق المتكبّرين ، حتّى إنّ الرّجل ليناظر من يعلم أنّه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد ، ولكن يمتنع من قبول الحقّ منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول النّاس إنّه أفضل منه فيكون باعثه على التّكبّر عليه الرّياء المجرّد ، ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبّر عليه.

درجات الكبر :

قال ابن قدامة – يرحمه اللّه – : اعلم : أنّ العلماء والعبّاد في آفة الكبر على ثلاث درجات :

الأولى : أن يكون الكبر مستقرًّا في قلب الإنسان منهم ، فهو يرى نفسه خيرًا من غيره ، إلّا أنّه يجتهد ويتواضع ، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة ، إلّا أنّه قد قطع أغصانها .

الثّانية : أن يظهر لك بأفعاله من التّرفّع في المجالس ، والتّقدّم على الأقران ، والإنكار على من يقصّر في حقّه ، فترى العالم يصعّر خدّه للنّاس كأنّه معرض عنهم ، والعابد يعيش ووجهه كأنّه مستقذر لهم ، وهذان قد جهلا ما أدّب اللّه به نبيّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – . حين قال : (وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الشعراء / 215) .

الدّرجة الثّالثة : أن يظهر الكبر بلسانه كالدّعاوى والمفاخرة ، وتزكية النّفس ، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره ، وكذلك التّكبّر بالنّسب ، فالّذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النّسب وإن كان أرفع منه عملا .

قال ابن عبّاس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما –: يقول الرّجل للرّجل : أنا أكرم منك ، وليس أحد أكرم من أحد إلّا بالتّقوى . قال اللّه تعالى :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ) (الحجرات :13) . وكذلك التّكبّر بالمال ، والجمال ، والقوّة ، وكثرة الأتباع ، ونحو ذلك ، فالكبر بالمال أكثر ما يجري بين الملوك والتّجّار ونحوهم . والتّكبّر بالجمال أكثر ما يجري بين النّساء ، ويدعوهنّ إلى التّنقّص والغيبة وذكر العيوب . وأمّا التّكبّر بالأتباع والأنصار ، فيجري بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود ، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين .

وفي الجملة فكلّ ما يمكن أن يعتقد كمالا ، فإن لم يكن في نفسه كمالا ، أمكن أن يتكبّر به . حتّى إنّ الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور لظنّه أنّ ذلك كمالا .

أنواع الكبر :

للكبر أنواع ثلاثة :

الأوّل : الكبر على اللّه تعالى وهو أفحش أنواع الكبر ، وذلك مثل تكبّر فرعون ونمرود حيث استنكفا أن يكونا عبدين له .

الثّاني : الكبر على رسول اللّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بأن يمتنع المتكبّر من الانقياد له تكبّرًا وجهلا وعنادًا كما فعل كفّار مكّة .

الثّالث : الكبر على العباد بأن يستعظم نفسه ويحتقر غيره ويزدريه فيتأبّى عن الانقياد له ويترفّع عليه .. وهذا وإن كان دون الأوّلين إلّا أنّه عظيم إثمه أيضًا ؛ لأنّ الكبرياء والعظمة إنّما يليقان باللّه تعالى وحده .

حكم الكبر :

ذكر الذّهبيّ أنّ الكبر من الكبائر واستدلّ بآيات وأحاديث عديدة ، ثمّ قال : وأشرّ الكبر من يتكبّر على العباد بعلمه فإنّ هذا لم ينفعه علمه .. ومن طلب العلم للفخر والرّياسة ، وبطر على المسلمين ، وتحامق عليهم وازدراهم ، فهذا من أكبر الكبر ، ولا يدخل الجنّة من كان فى قلبه مثقال ذرّة من كبر ، وقد عدّه الإمام ابن حجر أيضًا من الكبائر وجعل معه العجب والخيلاء .

الآيات الواردة في الكبر :

(وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ) (البقرة /34) .

(سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) (الأعراف / 146) .

(وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ) (لقمان / 7) .

(كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) (غافر / 35) .

(وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا) (النساء / 173) .

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) (الأعراف / 36) .

(إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ) (غافر / 60) .

(الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)(الأنعام / 93) .

(فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) (النحل / 29) .

الأحاديث الواردة في ذمّ (الكبر والعجب) :

1– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " احْتَجَّتِ النَّارُ وَالْجَنَّةُ فَقَالَتْ هَذِهِ يَدْخُلُنِي الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ . وَقَالَتْ هَذِهِ يَدْخُلُنِي الضُّعَفَاءُ وَالْمَسَاكِينُ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِهَذِهِ : أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ – وَرُبَّمَا قَالَ أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ – وَقَالَ لِهَذِهِ : أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا " . (م / 7351) .

2– عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، قَالَ : الْتَقَى عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، وعَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَلَى الْمَرْوَةِ ، فَتَحَدَّثَا ثُمَّ مَضَى عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو ، وَبَقِيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ يَبْكِي ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا

عَبْدِ الرَّحْمَنِ ؟ قَالَ : هَذَا يَعْنِي عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو ، إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : " مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ كَبَّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ " . (صحيح الترغيب / 2909) .

3– عن حَارِثَةَ بْن وَهْبٍ الْخُزَاعِيَّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : " أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ " . (خ / 4918) .

4– عن عَبْد اللَّهِ بن حَنْظَلَةَ بن الرَّاهِبِ ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بن سَلامٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – مَرَّ فِي السُّوقِ وَعَلَيْهِ حِزْمَةُ حَطَبٍ ، فَقِيلَ لَهُ : مَا يَحْمِلُكَ عَلَى هَذَا ، وَقَدْ أَغْنَاكَ اللَّهُ عَنْ هَذَا ؟ قَالَ : أَرَدْتُ أَنْ أَدْمَغَ الْكِبْرَ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : " لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ مِنْ كِبْرٍ " . (صحيح الترغيب / 2910) .

5– عَنْ جَابِرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ " ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ ؟ قَالَ : " الْمُتَكَبِّرُونَ " (صحيح الترمذي / 2018) .

6 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ – قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ – وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ شَيْخٌ زَانٍ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، عَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ " (م / 309) .

7– عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) قَالَ : " الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ " وَقَرَأَ : (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) ، إِلَى قَوْلِهِ : (دَاخِرِينَ) (غافر / 60) . (صحيح الترمذي / 2969) .

8 – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :
" لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ " . (م / 131) .

9 – عَنْ سُرَاقَةَ بن جُعْشُمٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :" يَا سُرَاقَةُ ، أَلا أُخْبِرُكَ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَأَهْلِ النَّارِ ؟ " فَقَالَ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : " أَمَّا أَهْلُ النَّارِ ، فَكُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْجَنَّةِ فَالضُّعَفَاءُ الْمَغْلُوبُونَ " . (صحيح الترغيب / 2910) .

10– عَنْ ثَوْبَانَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ مَاتَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلاَثٍ : الكِبْرِ ، وَالغُلُولِ ، وَالدَّيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ " . (صحيح الترمذي / 1572) .

11– عن عبد اللّه بن عمرو – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الخَبَالِ " . (صحيح الترمذي / 2492) .

11 – الفرحون

قَالَ الله تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) (القصص / 76)

الفرح لغة :

مصدر قولهم : فرح يفرح ، وهو مأخوذ من مادّة (ف ر ح) الّتي تدلّ على خلاف الحزن يقال : فرح بكذا فهو فرح ، قال تعالى : (ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) والمفراح : الّذي يفرح كلّما سرّه الدّهر ، ويقال : فرح به : سرّ ، والفرح أيضًا : البطر ، ومنه قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) (القصص / 76) معناه – واللّه أعلم – : لا تفرح بكثرة المال في الدّنيا ، لأنّ الّذي يفرح بالمال يصرفه في غير أمر الآخرة وقيل : لا تفرح لا تأشر ولا تبطر ، والمعنيان متقاربان ؛ لأنّه إذا سرّ ربّما أشر وبطر وتكبّر . وأفرحه : سرّه ، يقال : ما يسرّني بهذا الأمر مفرح ومفروح به ، ولا تقل مفروح ، والتّفريح مثل الإفراح ، ويقال : رجل فرح وفرحان وامرأة فرحة وفرحى .

وقال ابن منظور : الفرح : نقيض الحزن ، وقال ثعلب : هو أن يجد في قلبه خفّة . ورجل فرح وفرح ومفروح ، عن ابن جنّي . وفرحان من قوم فراحى وفرحى ، وامرأة فرحة وفرحى وفرحانة .

والمفراح : الّذي يفرح كلّما سرّه الدّهر . وهو الكثير الفرح ، وقد أفرحه وفرّحه .

والفرحة والفرحة : المسرّة ، والفرحة أيضًا : ما تعطيه المفرّح لك أو تثيبه به مكافأة له . وفي حديث التّوبة : " للّه أشدّ فرحًا بتوبة عبده ... " ، وصفة الفرح ثابتة عن اللّه – عزّ وجلّ – على ما يليق بجلاله وكماله .

والتّفريح : مثل الإفراح ، وتقول : لك عندي فرحة إن بشّرتني .

قال الأزهريّ : فالمفروح هو الشّيء الّذى أنا أفرح به ، والمفرح هو الشّيء الّذي يفرحني .

واصطلاحا :

قال الرّاغب : الفرح : انشراح الصّدر بلذّة عاجلة ، وأكثر ما يكون في اللّذّات البدنيّة .

وقال المناويّ : الفرح : انفتاح القلب بما يلتذّ به .

وقال الكفويّ : الفرح ما يورث أشرًا أو بطرًا ، ولذلك كثيرًا ما يذمّ كقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) ويتولّد هذا عن القوّة الشّهويّة . وقيل : شرح الصّدر بلذّة عاجلة ، وقيل : لذّة القلب لنيل المشتهى .

من معاني كلمة (الفرح) في القرآن الكريم :

جاء (الفرح) في القرآن الكريم على نوعين :

مطلق ومقيّد .

فالمطلق : جاء في الذّمّ . كقوله تعالى : (إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) (القصص / 76) ، وقوله إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (هود / 10) .

والمقيّد : نوعان أيضًا : مقيّد للدّنيا . ينسي صاحبه فضل اللّه ومنّته ، فهو مذموم ، كقوله تعالى : (حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ) (الأنعام / 44) .

والثّاني : مقيّد بفضل اللّه ورحمته . وهو نوعان أيضًا :
فضل ورحمة بالسّبب ، وفضل بالمسبّب . فالأوّل : كقوله تعالى : (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (يونس / 58) والثّاني : كقوله تعالى : (فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) (آل عمران / 170) .

الفرح نعيم القلب :

فالفرح باللّه ، وبرسوله ، وبالإيمان ، وبالسّنّة ، وبالعلم ، وبالقرآن : من أعلى مقامات الدّي. قال اللّه تعالى : (وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (التوبة : 124) . وقال : (وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ) (الرعد : 36) . فالفرح بالعلم والإيمان والسّنّة : دليل على تعظيمه عند صاحبه ومحبّته له ، وإيثاره له على غيره . فإنّ فرح العبد بالشّيء عند حصوله له : على قدر محبّته له ، ورغبته فيه . فمن ليس له رغبة في الشّيء لا يفرحه حصوله له ، ولا يحزنه فواته . فالفرح تابع للمحبّة والرّغبة . والفرق بينه وبين الاستبشار : أنّ الفرح بالمحبوب بعد حصوله ، والاستبشار : يكون به قبل حصوله . إذا كان على ثقة من حصوله ، ولهذا قال تعالى : (فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ) (آل عمران / 170) . والفرح : صفة كمال . ولهذا يوصف الرّبّ تعالى بأعلى أنواعه وأكملها ، كفرحه بتوبة التّائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته الّتي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها ، واليأس من حصولها . والمقصود : أنّ (الفرح) أعلى نعيم القلب ، ولذّته وبهجته . والفرح والسّرور نعيمه . والهمّ والحزن عذابه . والفرح بالشّيء فوق الرّضا به . فإنّ الرّضا طمأنينة وسكون وانشراح .

والفرح لذّة وبهجة وسرور .

أنواع الفرح :

من الفرح ما هو مذموم ، ومنه ما هو محمود ، فالمذموم ما كان مطلقًا غير مقيّد ، وهو الّذي يورث الأشر والبطر ، والممدوح ما كان مقيّدًا بفضل اللّه ورحمته ، ومن ذلك الفرح بالعلم والإيمان والسّنّة .

قال الطبري في تفسيره :

وَقَوْلُهُ : (إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) يَقُولُ : إِذْ قَالَ قَوْمُهُ : (لاَ تَبْغِ وَلاَ تَبْطَرْ فَرِحًا ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مِنْ خَلْقِهِ الأَشِرِينَ الْبَطِرِينَ) .

وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ .

ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قَوْلَهُ : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) يَقُولُ : الْمَرِحِينَ .

عَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِهِ : (لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) قَالَ : الْمُتَبَذِّخِينَ الأَشِرِينَ الْبَطِرِينَ ، الَّذِينَ لاَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى مَا أَعْطَاهُمْ .

عَنْ جَابِرٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ مُجَاهِدًا يَقُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) قَالَ : الأَشِرِينَ الْبَطِرِينَ الْبَذِخِينَ .

عَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِهِ : (لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) قَالَ : يَعْنِي بِهِ الْبَغْيَ .

عَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِ اللَّهِ : (لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) قَالَ : الْمُتَبَذِّخِينَ الأَشِرِينَ ، الَّذِينَ لاَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا أَعْطَاهُمْ .

عَنْ مُجَاهِدٍ ، (لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) قَالَ : الأَشِرِينَ الْبَطِرِينَ .

عَنْ قَتَادَةَ ، (إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ) : أَيْ لاَ تَمْرَحْ (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) : أَيْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمَرِحِينَ .

عَنْ مُجَاهِدٍ (لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) قَالَ : الأَشِرِينَ الْبَطِرِينَ ، الَّذِينَ لاَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا أَعْطَاهُمْ.

عَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِهِ : (إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) قَالَ : هُوَ فَرَحُ الْبَغْيِ .

الكره

(وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ) (التوبة / 46)

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) .

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَلَوْ أَرَادَ هَؤُلاَءِ الْمُسْتَأْذِنُوكَ يَا مُحَمَّدُ فِي تَرْكِ الْخُرُوجِ مَعَكَ لِجِهَادِ عَدُوِّكَ الْخُرُوجَ مَعَكَ . (لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً) يَقُولُ : لأَعَدُّوا لِلْخُرُوجِ عُدَّةً ، وَلَتَأَهَّبُوا لِلسَّفَرِ وَالْعَدُوِّ أُهْبَتَهُمَا . (وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ) يَعْنِي : خُرُوجَهُمْ لِذَلِكَ . (فَثَبَّطَهُمْ) يَقُولُ : فَثَقُلَ عَلَيْهِمُ الْخُرُوجُ حَتَّى اسْتَخَفُّوا الْقُعُودَ فِي مَنَازِلِهِمْ خِلاَفَكَ ، وَاسْتَثْقَلُوا السَّفَرَ وَالْخُرُوجَ مَعَكَ ، فَتَرَكُوا لِذَلِكَ الْخُرُوجَ . (وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) يَعْنِي : اقْعُدُوا مَعَ الْمَرْضَى وَالضُّعَفَاءِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ وَمَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ، وَاتْرُكُوا الْخُرُوجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَكَانَ تَثْبِيطُ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ رَسُولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، لِعِلْمِهِ بِنِفَاقِهِمْ ، وَغِشِّهِمْ لِلإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ ، وَأَنَّهُمْ لَوْ خَرَجُوا مَعَهُمْ ضَرُّوهُمْ وَلَمْ يَنْفَعُوا . وَذُكِرَ أَنَّ الَّذِينَ اسْتَأْذَنُوا رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْقُعُودِ كَانُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ ، وَالْجَدَّ بْنَ قَيْسٍ ، وَمَنْ كَانَا عَلَى مِثْلِ الَّذِي كَانَا عَلَيْهِ .

وقال جل وعلا : (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) (الإسراء / 38) .

قال الطبري في تفسيره :

وَقَوْلُهُ : (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) فَإِنَّ الْقُرَّاءَ اخْتَلَفَتْ فِيهِ ، فَقَرَأَهُ بَعْضُ قُرَّاءِ الْمَدِينَةِ وَعَامَّةُ قُرَّاءِ الْكُوفَةِ (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) عَلَى الإِضَافَةِ بِمَعْنَى : كُلُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ الَّتِي عَدَدْنَا مِنْ مُبْتَدَإِ قَوْلِنَا : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ) . . إِلَى قَوْلِنَا (وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا) (كَانَ سَيِّئُهُ) يَقُولُ : سَيِّئُ مَا عَدَدْنَا عَلَيْكَ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا .

فَتَأْوِيلُ الْكَلاَمِ إِذَنْ : كُلُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا لَكَ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي عَدَدْنَاهَا عَلَيْكَ كَانَ سَيِّئُهُ مَكْرُوهًا عِنْدَ رَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ ، يَكْرَهُهُ وَيَنْهَى عَنْهُ وَلاَ يَرْضَاهُ ، فَاتَّقِ مُوَاقِعَتَهُ وَالْعَمَلَ بِهِ .

الذين لا يحبهم الله أو يبغضهم الله أو يكرههم الله

ثانيًا : الذين لا يحبهم الله من السنة

الْبَيَّاعُ الْحَلاَّفُ ، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ ، وَالشَّيْخُ الزَّانِي ، وَالإِمَامُ الْجَائِرُ

1 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" أَرْبَعَةٌ يُبْغِضُهُمُ اللَّهُ : الْبَيَّاعُ الْحَلاَّفُ (1) ، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ (2) ، وَالشَّيْخُ الزَّانِي (3) ، وَالإِمَامُ الْجَائِرُ (4) (*) " .

رواه النسائي وابن حبان في صحيحه .

(صحيح النسائي /2576) تحقيق الألباني : الصحيحة (363) ، التعليق الرغيب (3 / 30) ، // صحيح الجامع (880)

---

(1) البياع الحلَّاف : بالتشديد أي الذي يكثر الحلف على سلعته لقد أعطى فيها أكثر من كذا وهو كاذب .

(2) الفقير المختال : أي المتكبر المعجب بنفسه .

(3) الشيخ الزاني : أي الرجل الذي قد أمسى وهو مُصرّ على الوطء بغير عقد شرعي ، ومثله الشيخة الزانية .

(4) الإمام الجائر : أي الحاكم الظالم المائل عن الحق إلى الباطل ، يقال جار في حكمه يجور جورًا وظلم عن الطريق مال .

(*) وإنما أبغضهم لأن الحلاف الكثير الحلف انتهك ما عظم الله من أسمائه وجعله سببًا وحيلة لدرك ما حقره من الدنيا لعظمها في قلبه .

فبغضه ومقته ، هذا في الحلف الصادق فما بالك بالكاذب ؟ والفقير المختال : أي المتكبر قد زوى الله عنه أسباب الكبر بحمايته له عن الدنيا فأبى لؤم طبعه إلا التكبر ولم يشكر نعمة الفقر ، فإن المصطفى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يقول : الفقر على المؤمن أزين من العذار الجيد على خد الفرس .

والشيخ الزاني : عَمَّر عمرًا يحصل به الإنزجار واستولت أسباب الضعف وكلها حاجزة عن الزنا فأبى سوء طبعه إلا التهافت في معصية ربه .

والإمام الجائر : أنعم الله عليه بالسيادة والقدرة فأبى شؤم شح طبعه إلا الجور وكفر النعمة .

الْغَيْرَةُ الَّتِي يُبْغِضُهَا اللَّهُ

2 – عَنْ جَابِرِ بْنِ عَتِيكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ يَقُولُ :
" مِنْ الْغَيْرَةِ [1] مَا يُحِبُّ اللَّهُ وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُ اللَّهُ فَأَمَّا الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ [2] وَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُبْغِضُهَا اللَّهُ فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ [3] وَإِنَّ مِنْ الْخُيَلَاءِ مَا يُبْغِضُ اللَّهُ وَمِنْهَا مَا يُحِبُّ اللَّهُ فَأَمَّا الْخُيَلَاءُ [4] الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ فَاخْتِيَالُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ عِنْدَ الْقِتَالِ [5] وَاخْتِيَالُهُ عِنْدَ الصَّدَقَةِ [6]
وَأَمَّا الَّتِي يُبْغِضُ اللَّهُ فَاخْتِيَالُهُ فِي الْبَغْيِ [7] " . قَالَ مُوسَى : " وَالْفَخْرِ " .
تحقيق الألباني : قال في الإرواء (1099) حسن . أخرجه أحمد (5 / 445 و 446) وأبو داود (2659) والنسائي (1 / 356) .

---

(1) الْغَيْرَة : بفتح الغين مشتقة من تغير القلب وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص ، وأشد ذلك ما يكون بين الزوجين . وأصلها المنع وغيرة الرجل على أهله منعه لهن عن التعلق بأجنبي بنظر أو حديث أو غيره والغيرة صفة كمال . وقيل : الغيرة في الأصل الحمية والأنفة قال النحاس : هو أن يحمي الرجل زوجته وغيرها من قرابته ويمنع أن يدخل عليهن أو يراهن غير ذي محرم والغيور ضد الديوث .

(2) فَالْغَيْرَة فِي الرِّيبَة : بِكَسْرِ الرَّاء أَيْ مَوَاضِع التُّهْمَة وَالتَّرَدُّد فَتَظْهَر فَائِدَتهَا وَهِيَ الرَّهْبَة وَالِانْزِجَار وَإِنْ لَمْ تَكُنْ رِيبَةٌ ثُورِث الْبُغْض وَالْفِتَن أَيْ فِي مَظِنَّة الْفَسَاد أَيْ إِذَا ظَهَرَتْ أَمَارَات الْفَسَاد فِي مَحَلّ فَالْقِيَام بِمُقْتَضَى الْغَيْرَة مَحْمُود وَأَمَّا إِذَا قَامَ بِدُونِ ظُهُور شَيْءٍ فَالْقِيَام بِهِ مَذْمُوم لِمَا فِيهِ مِنْ اِتِّهَام الْمُسْلِمِينَ بِالسُّوءِ مِنْ غَيْر وَجْهٍ نحو أن يغتار الرجل على أمه أن ينكحها زوجها وكذلك سائر محارمه فإن هذا مما يبغضه الله تعالى لأن ما أحله الله تعالى فالواجب علينا الرضى به فإن لم نرض به كان ذلك من إيثار حمية الجاهلية على ما شرعه الله لنا .

(3) الْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ : بمجرد سوء الظن وهذه الغيرة تفسد المحبة وتوقع العداوة بين المحب ومحبوبه .

(4) الْخُيَلَاءُ : بالضم والكسر : الكِبْرُ والعُجْبُ . يقال : اخْتال فهو مُخْتال . وفيه خُيَلاء ومَخِيلة : أي كِبْر .

(5) فَاخْتِيَالُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ عِنْدَ الْقِتَالِ : أن يَتَقَدّم فيها بنشاط نفس ، وقُوّة نَخْوَةٍ وجَنَان . قال أبو عبيد : الاختيال أصله التجبر والكبر والاحتقار للناس ، والاختيال في الحرب أن تكون هذه الخلال من التجبر على العدو ، فيستهين بقتالهم ، وتقل هيبته لهم ، فيكون أجرأ عليهم لما في ذلك من الترهيب لأعداء الله والتنشيط لأوليائه فاختيال الرجل عند القتال هو الدخول في المعركة بنشاط وقوة وإظهار الجلادة والتبختر فيه والاستهانة والاستخفاف بالعدو لإدخال الروع في قلبه و اظهاره الاختيال والتكبر في نفسه بأن يمشي مشي المتكبرين .

(6) وَاخْتِيَالُهُ عِنْدَ الصَّدَقَةِ : فأن تَهُزّه أرْيَحِيَّةُ السَّخاءِ فيُعْطِيها طَيِّبةً بها نفْسُه مِنْ غَيْر مَنٍّ وَلَا اِسْتِكْثَارٍ وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا بَلْ كُلَّمَا يُعْطِي فَلَا يُعْطِيه إِلَّا وَهُوَ مُسْتَقِلٌّ لَهُ فلا يَسْتكثِرُ كثيرًا ولا يُعْطِي منها شيئاً إلاَّ وهو له مُسْتَقِلٌّ و أن تعلو نفسه وتشرف .

(7) اخْتِيَالُهُ فِي الْبَغْيِ : نحو أن يذكر الرجل أنه قتل فلانًا وأخذ ماله ظلمًا أو يصدر منه الاختيال حال البغي على مال الرجل أو نفسه واختيال الرجل في الفخر نحو أن يذكر ما له من الحسب والنسب وكثرة المال والجاه والشجاعة والكرم لمجرد الافتخار ثم يحصل منه الاختيال عند ذلك فإن هذا الاختيال مما يبغضه الله تعالى .

الْبَلِيغَ مِنْ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ

3 – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" إِنَّ اللَّهَ يَبْغَضُ الْبَلِيغَ مِنْ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ [1] " .

(سنن الترمذي/2853) .

تحقيق الألباني : صحيح ، الصحيحة (878) .

---

(1) يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ : أي الذي يتشدق في الكلام بلسانه كما تتشدق البقرة ووجه الشبه إدارة لسانه حول أسنانه حال كلامه مبالغة في إظهار بلاغته وبيانه كفعل البقرة حال الأكل ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفًا ، وخص البقرة لأنّ جميع البهائم تأخذ النبات بأسنانها وهي لا تحش إلا بلسانها ، فالمرضي من الكلام ما يكون قدر الحاجة يوافق ظاهره باطنه على منوال الشريعة .

الفاحش المتفحش البذيّ

4 – عن أبي الدرداء – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال قال رَسُول اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

"

أَثْقَلُ شَيْءٍ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ خُلُقٌ حَسَنٌ إِنَّ اللَّهَ يَبْغَضُ الفاحِشَ [1] المُتَفَحِّش [1] البَذِيّ[2] " .

تخريج السيوطي(هق) .

تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم : 135 في صحيح الجامع .

---

(1) الفاحِشَ المُتَفَحِّش : الفاحِش : ذُو الفُحْش في كلامه وفِعَاله و الفحش زيادة الشيء على مقداره . والمتَفَحِّش : الذي يَتكلَّف ذلك ويَتعمدَّه .

قال القرطبي : الفاحش المجبول على الفحش الذي يتكلم بما يكره سماعه مما يتعلق بالدين أو الذي يرسل لسانه بما لا ينبغي وهو الجفاء في الأقوال والأفعال والمفتحش المتعاطي لذلك المستعمل له وقيل : الفاحش المتبلس بالفحش والمتفحش المتظاهر به لأن الله تعالى طيب جميل فيبغض من لم يكن كذلك .

(2) البَذِيّ : قال القاري : بفتح موحدة وكسر ذال معجمة وتشديد تحتية وفي نسخة يعني من المشكاة بسكونها وهمزة بعدها وهو الذي لا حياء له كما قاله بعض الشراح ، قال في القاموس : البذي : الرجل الفاحش ، وهي بالباء وقد بذو بذاء وبذاءة وبذوت عليهم وأبذيتهم من البذاء ، وهو الكلام القبيح ا . هـ .

وفي النهاية البذاء بالمد الفحش في القول وهو بذي اللسان وقد يقال بالهمز وليس بكثير ا . هـ .قال القاري : فعلى هذا يخص الفاحش بالفعل لئلا يلزم التكرار أو يحمل على العموم ، والثاني يكون تخصيصًا بعد تعميم لزيادة الاهتمام به لأنه متعد وقد يقال عطف تفسير ولا زائدة ا . هـ .

وقال العاقولي : البذي هو السيء الخلق ، وهو ملازم لما قبله لأن الفحش إنما يصدر عنه .

العالم بالدنيا الجاهل بالآخرة

5 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْغَضُ كُلَّ عَالِمٌ بِالدُّنْيَا جَاهِلٌ بِالآخِرَةِ " .

تخريج السيوطي(ك في تاريخه).

تحقيق الألباني(صحيح) انظر حديث رقم : 1879 في صحيح الجامع .

الجعظري الجواظ السخاب في الأسواق

6 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" إِنَّ اللَّهَ يَبْغَضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ (1) جَوَّاظٍ (2) سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ (3) جِيفَةٌ بِاللَّيْلِ حِمَارٌ بِالنَّهَارِ عَالِمٌ بِالدُّنْيَا جَاهِلٌ بِالآخِرَةِ " .

تخريج السيوطي (هق) .

تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم : 1878 في صحيح الجامع .

---

(1) الجَعْظَرِيّ : بفتح جيم وسكون عين مهملة وفتح ظاء معجمة فراء فتحتية مشددة الفَظُّ الغلِيظ المُتَكَبّر . وقيل هو الذي يَنْتَفِخ بما لَيْس عنده وفيه قِصَر والجعظري الفظ الغليظ المتكبر وقيل هو الذي لا يصدع رأسه وقيل هو الذي يتمدح وينتفخ بما ليس عنده وفيه قصر أي فظ غليظ متكبر أو جسيم غليظ أكول شروب .

(2) جَوَّاظ : بفتح الجيم وتَشْدِيدِ الْوَاو وآخره ظاء معجمة : وَهُوَ الجموع الْمنوع وَقِيلَ : الْكَثِير اللَّحْم الْمُخْتَال فِي مِشْيَته وَقِيلَ الْقَصِير الْبَطِين وقيل الغليظ الرقبة والجسم وقيل الفاجر وقيل الذي لا يستقيم على أمر واحد يصانع هنا وهنا الجافي القلب .

اللائق أن يفسر الجعظري بغليظ القلب وكأن غلظ القلب إيماء إلى سوء باطنه من الأحوال والفظ إشارة إلى قبح ظاهره من الأفعال قال الطيبي : قوله : الجواظ : الغليظ الفظ ، وفي النهاية ، وشرح التوربشتي ، وكلام القاضي : الجواظ المختال وقيل الجموع المنوع وقيل هو السمين وقيل الصياح المهذار والجعظري الفظ الغليظ وقيل القصير المنتفخ بما ليس عنده وقيل العظيم الجسم الأكول والمانع لمن شأنه هذا أن يدخل الجنة حيث يدخلها الآخرون عجبهم وسوء خلفهم وشرههم على الطعام وإفراطهم في الكلام اه والأظهر ما قدمناه من أن المراد غليظ القلب سيىء الخلق .

(3) سخاب في الأسواق : يقال بالصاد والسين ، والصاد أشهر ، والسخب : الصياح واختلاط الأصوات ، ولغة ربيعة فيه السين ، وجاء هنا بالسين وفي مواضع في بعضها بالصاد ، الصخَّب والسَّخَب : الضَّجَّة واضطرابُ الأصواتِ للخِصَام .

السائل الملحف

7 – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :
" إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْغَضُ السَّائِلَ الْمُلْحِفَ [1] " .

تخريج السيوطي(حل) .

تحقيق الألباني(صحيح) انظر حديث رقم : 1876 في صحيح الجامع .

(1) السائل الملحف : يُقَالُ : أَلْحَفَ فِي الْمَسْأَلَةِ أَيْ أَلَحَّ فِيهَا و هو المُلِحّ الملازم ، وقيل : هو من عنده غداء ويسأل عشاء .

العقوق

8 – عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن العقيقة [1] فقال :

" لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْعُقُوقَ [2] و كَأَنَّهُ كَرِهَ الاِسْمَ [3] قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ : إِنَّمَا نَسْأَلُكَ عَنْ أَحَدِنَا يُولَدُ لَهُ قَالَ : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْسُكَ [4] عَنْ وَلَدِهِ فَلْيَنْسُكْ [5] عَنْهُ ، عَنِ الْغُلاَمِ شَاتَانِ مُكَافِأَتَانِ ، وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ " .

قَالَ دَاوُدُ : سَأَلْتُ زَيْدَ بْنَ أَسْلَمَ عَنِ الْمُكَافِأَتَانِ قَالَ : الشَّاتَانِ الْمُشْتَبِهَتَانِ تُذْبَحَانِ جَمِيعًا .

(صحيح النسائي /4212) .

تحقيق الألباني : حسن صحيح ، المشكاة (4156) ، الصحيحة (1655) ، الإرواء (4 / 362) .

---

(1) العقيقة : اسم للشاة التي تذبح على ولادة الولد ، واختلفوا في اشتقاقها ، فقال بعضهم : هي اسم للشَّعر الذي يحلق من رأس الصبي عند ولادته ، فسميت الشاة عقيقة على المجاز ، إذ كانت إنما تذبح عند حلاق الشعر ، وقيل : هي اسم للشاة حقيقة ، سميت بها ، لأنه تعق مذابحها ، أي : تشق وتقطع ، والعق : الشق ، ومنه عقوق الولد أباه ، وهو جفوته وقطيعته ، وأراد بإماطة الأذى عنه : حلق رأسه .

(2) العقوق : أصلُه من العَقِّ : الشق والقَطْعِ ، عَقَّ وَالِدَه يَعُقُّه عُقوقا فهو عاقٌّ إذا آذاه وعَصَاه وخرج عليه . وهو ضِدُّ البِرِّ بِه . و العقوق : القطيعة المشاقة بين ذوي الأرحام وغيرهم وهي في ذوي الأرحام أشد وأقبح . والعاق : هو الذي شق عصا الطاعة لوالديه .

(3) وكأنه كره الاسم ظَاهِرُهُ كَرَاهِيَةُ الِاسْمِ لِمَا فِيهِ مِنْ مُشَابَهَةِ لَفْظِ الْعُقُوقِ وَآثَرَ أَنْ يُسَمَّى نُسُكًا .

(4) ينسك : بضم السين : أي يذبح عنه أي عن المولود أو عن الولد وهو يطلق على الذكر والأنثى فلينسك عن الغلام شاتين وعن الجارية شاة .

(4) فلينسك : هذا إرشاد منه إلى مشروعية تحويل العقيقة إلى النسيكة .

المخيلة

9 – عَنْ جَابِرِ بْنِ سُلَيْمٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" لاَ تَسُبَّنَّ أَحَدًا وَلاَ تَحْقِرَنَّ (1) مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا (2) و لو أَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ (3) إِلَيْهِ وَجْهُكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَارْفَعْ إِزَارَكَ (4) إِلَى نِصْفِ السَّاقِ فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ (5) الإِزَارِ فَإِنَّهُ مِنَ الْمَخِيلَةِ (6) وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ وَعَيَّرَكَ (7) بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ فَلاَ تُعَيِّرْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ فَإِنَّمَا وَبَالُ (8) ذَلِكَ عَلَيْهِ " .

(صحيح أبي داود / 4084)

تحقيق الألباني : صحيح الترمذي (2877) .

---

(1) لا تحقرن : بفتح المشاة فوق وحاء مهملة ساكنة وكسر القاف وفتح الراء و بتشديد النون أي : لا تستقل أو لا تستصغرنّ أو لا تترك يقال حقره واحتقره واستصغره قال الزمخشري : تقول أي العرب هو حقير فقير هو حاقر ناقر وفي المثل من حقر حرم وفلان خطير غير حقير .

(2) من المعروف شيئًا : احتقارًا له واستهانة لقدره فكل معروف وإن قلّ نفعه فهو صدقة ينمو أجره إلى يوم القيامة ، والتنوين في شيء للتحقير والتقليل كما يدل عليه المقدم .أي لاتتركه لقلته فقد يكون سبب الوصول إلى مرضاة الله تعالى .

(3) مُنْبَسط : أي منطلق بالبشر والسرور والانشراح بشاش إليه وجهك .

(4) إزارك : الإزار : فَسَّره بعضُ أهلِ الغَرِيب بما يسْتُرُ أسفلَ البَدنِ وقيل : الإزار : ما تحتَ العاتِقِ في وَسَطِه الأسفل وقيل الإزار ما يستر أَسفلَ البدنِ ولا يكونُ مَخِيطًا أو الساتر للسرة وما تحتها الى انصاف الساقين .

(5) إسبال : أَسْبَلَ الإِزَارَ : أَرْخاهُ و الْمُسْبِلُ : الذي يُطَوِّلُ ثَوْبَهُ ويُرْسِلُهُ إلى الأَرْضِ إذا مَشى وإِنَّما يَفْعَلُ ذلكَ كِبْرًا واخْتِيالاً .

(6) المخيلة : بفتح الميم وكسر الخاء المعجمة وسكون الياء من الاختيال والكبر واحتقار الناس والعجب عليهم .

(7) عيَّرك : التعيير هو التوبيخ والتعييب ، وقال الجوهري : يقال عيره كذا والعامة تقول عيره بكذا . (8)

(8) وبال : بفتح الواو وتخفيف الموحدة : أي ثقل والوَبالُ : الشدة والثِّقَل الوَبالُ في الأَصل الثِّقَل والمكروه .

اللَّهُ كَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَال

10 – عَنْ الشَّعْبِيِّ حَدَّثَنِي كَاتِبُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ كَتَبَ مُعَاوِيَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – إِلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنْ اكْتُبْ إِلَيَّ بِشَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَمِعْتُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ :

" إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا قِيلَ وَقَالَ ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَال " . (خ/ 1383) ، (م /3238) .

الخاتمة (نسأل الله حسنها)

الحمد لله فاتحة كل خير وخاتمة كلّ نعمة ، أحمده عز وجل وأشكره على توفيقه وعونه ، وعلى جميع نعمه الظاهرة و الباطنة وبعد . فيقول العبد الضعيف أدام الله عليه عافيته ، وختم بالخير عاقبته ، هذا آخر ما يسر الله لي من توضيح من هم الذين يحبهم الله – جعلنا الله منهم – و الذين لا يحبهم الله – أعاذنا الله منهم – ومن نعم الله – سبحانه وتعالى– على عبده أن يبدأ عملًا ما ، ثم تحوطه رعاية الله وعنايته حتى يفرغ منه ، وأهم الأعمال في هذه الحياة ما كان خالصًا لله تعالى ، يبتغي به رضى ربه ، وشكر نعمته عليه ، وأن يكون لمعة مضيئة على طريق الهداية لهؤلاء الذين تفرقت بهم السبل ، وانبهمت أمامهم المسالك ، فأهملوا شرع ربهم ، وكانوا للشيطان أولياء .

ولقد كان من توفيق الله لي أن هداني للكتابة عن (الذين يحبهم الله و الذين لا يحبهم فأين أنت منهم) .

وَهَذَا آخِرُ مَا يَسَّرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَهُوَ شَيْءٌ يَسِيرٌ ، وَلَمْ يَعْرَ بِحَمْدِ اللهِ مِنْ أَثْوَابِ الْفَائِدَةِ بِتَعْرِيَتِهِ عَنِ الإِطَالَةِ وَالإِعَادَةِ ، وَمَعَ اعْتَرَافِي بِالْعَجْزِ ، جَعَلَنِي وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ التَّغَاضِي . إِذْ مَا مِنْ أَحَدٍ غَيْرِ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ يَسْلَمُ . مِنْ صَالِحِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمَسْؤُولُ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِكُلِّ عَمَلٍ جَمِيلٍ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

قال أبو تمام : (فإن يكُ ذنبٌ عَنَّ أو تَكُ هفوة ... على خطأ مني فعُذْري على عَمْدِ)

ولوْ غشِيَني نورُ التّوفيقِ . ونظرْتُ لنفْسي نظرَ الشّفيقِ . لسَترْتُ عَواري الذي لمْ يزَلْ مسْتورًا . ولكِنْ كانَ ذلِكَ في الكِتابِ مسْطورًا . وأنا أسَتغْفِرُ اللهَ تعالَى ممّا أودَعْتُه منْ أباطيلِ اللّغْوِ . وأضاليلِ اللّهْوِ . وأسترْشِدُهُ الى ما يعْصِمُ منَ السّهْوِ . ويحْظي بالعَفْوِ . إنهُ هوَ أهلُ التّقْوى وأهلُ المَغفِرَةِ . ووليُّ الخيْراتِ في الدُنْيا والآخِرَةِ هذا ولا أدعي أني أتيت بما لم تستطعه الأوائل ، كما أنني لا أدعي لعملي هذا العصمة أو الكمال ، فهذا شأن الرسل والأنبياء ، ومن ظن أنه قد أحاط بالعلم فقد جهل نفسه ، قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥ ﴾ (الإسراء) .

فالعلم بحر لا شاطيء له وما أصدق الشاعر إذ يقول :

وقل لمن يدّعي في العلم فلسفة ... حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء

يقول الثعالبي : لا يكتب أحد كتابًا فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غيرها أن يزيد فيه أو ينقص منه ، هذا في ليلة ، فكيف في سنين معدودة ؟

قال معمر : (لو عرض الكتاب مائة مرة ما كاد يسلم من أن يكون فيه سقط . أو قال : خطأ) . وعن المزني تلميذ الشافعي : (لو عرض كتاب سبعين مرة ، لوجد فيه خطأ ، أبى الله أن يكون كتاب صحيحًا غير كتابه)

ويقول المزني : (قرأت كتاب (الرسالة) على الإمام الشافعي ثمانين مرة ، فما من مرة إلا كان يقف على خطأ ، فقال الشافعي : هيه – أي حسبك واكْفُفْ – أبى الله أن يكون كتاب صحيحًا غير كتابه) .

ورحم الله ابن العماد الأصبهاني إذ يقول – والصواب أن هذا الكلام للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الملقب بأستاذ البلغاء من رسالة له بعث بها إلى العماد الأصفهاني يعتذر إليه من كلام استدركه عليه – :

" إني رأيت أنه لا يكتب إنسانٌ كتابًا في يومه ، إلا قال في غده لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن ، ولو زِيدَ كذا لكان يستحسن ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر" .

فأرجو مسامحة ناظريه فهم أهلوها ، وأؤمل جميلهم فهم أحسن الناس وجوها .

قال الشاعر:

أسير خلف ركاب القوم ذا عـرج ... مؤملًا جبر ما لاقيت من عـــــوج
فإن لحقت بهم من بعد ما سبقوا ... فكم لرب السماء في الناس من فرج
وإن ظللت بقفر الأرض منقطعـًا ... فما على أعرج في ذاك من حـــرج

قال أبو نواس :

منَحْتُكُمْ يا أهل مصـــر نَصيحَتي ... ألا فخُذُوا من ناصحٍ بنصيـــــبِ
ولا تثبوا وثب السّفاه فتركَبـــوا ... على ظهر عاري الظهر غير ركوبي
فإن يكُ باقي إفك فرعون فيكم ... فإنَّ عصا موسى بكفِّ خصيـــبِ

اللهم إنا نشهد أنك واحد فرد صمد ، وأن محمدًا عبدك ورسولك – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وأنه بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وأن الرسل حق ، وأنهم بلغوا الرسالة ، وأن الموت حق ، والقبر حق ، والميزان حق ، والصراط حق ، والجنة حق والنار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور .

اللهم توفنا مسلمين تائبين ، لا مغيرين ولا مبدلين آمين يا رب العالمين ،

ولقد ختمت بذا الختام بحثي ..... وعلى الإله توكلي وثنـــــائي
إن كان توفيق فمن رب الورى ..... والعجز للشيطان والأهـــــواء
في حينها أدعو الذي بدعائه ..... يمحو الخطا ويزيد في النعماء
سبحانك اللهم ثم بحمدكا ..... أستغفرك وأتوب مـــن أخطائي

هذا وأسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع بهذا الجهد ، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم ، وأستغفر الله العظيم من كل ذنب وخطيئة ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وقد فرغت من تأليف هذا الكتاب في يوم الثلاثاء الموافق للعشرين من شهر الله المحرم لعام أربعة وثلاثين وأربعمائة وألف لهجرة الخليل المصطفى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

الموافق للرابع من شهر ديسمبر للعام الثاني عشر بعد الألفين للميلاد .

كتبه خَجِلًا وجِلًا / أبو حمزة عماد الدين بن أبو النجا
بورسعيد - جمهورية مصر العربية .
1434/1/20هـ 2012/12/4م

صحيفة المصادر

1- القرآن الكريم
2- صحيح البخاري
3- صحيح مسلم
4- صحيح أبي داود للشيخ الألباني
5- صحيح الترمذي للشيخ الألباني
6- صحيح النسائي للشيخ الألباني
7- صحيح ابن ماجه للشيخ الألباني
8- صحيح الترغيب والترهيب للشيخ الألباني
9- صحيح الجامع الصغير وزيادته للشيخ الألباني
10- السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني
11- أحكام الجنائز للشيخ الألباني
12- صحيح الأدب المفرد للشيخ الألباني

استنصاح

قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : " **حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ** " . **وذكر منها**

" **وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ** " .

فأهيب بإخواني أن يبادروا بالاستجابة لأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم **– وأن يقدموا لي النصيحة ،**

وكذلك استرشادًا بقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (الدين النصيحة) فأنا أطلب من إخواني النصيحة بما يرونه أنفع وأفضل لإخراج هذا العمل في أفضل صورة و هو كتاب (الذين يحبهم الله و الذين لا يحبهم فأين أنت منهم) فهل أكتفي بذكر الأحاديث فقط كما هو الآن أم أضيف إليه شرح العلماء لهذه الأحاديث ؟

وأخيرًا : أسألكم بالله ألا تبخلوا علي بأي نقد بناء أو اقتراح أو توجيه أو نصيحة فالمؤمن مرآة أخيه والمؤمنون نصحة والمنافقون غششة .

وجزاكم الله خيرًا .

للتواصل : موقع التواصل الاجتماعي
صفحة /عماد أبو النجا
محمول : 01111643666
01116781666

صحيفة الكتاب

شكر...3

المقدمة...4
تمهيد 5
أولًا : الذين يحبهم الله من القرآن.....................29
المحسنون...30
التوابون...40
المتطهرون...48
المتقون...52
الصابرون...58
المتوكلون...69
المقسطون...77
الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص...79
الأذلة على المؤمنين الأعزة على الكافرين الذين لا يخافون لومة لائم المجاهدون
في سبيل الله...89
المتبعون للنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –...**96**
الذين يحبهم الله من السنة.....................99
الذي يتقرب إلى الله بالنوافل...100
إن الله يحب الرفق في الأمر كله...103
إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي...104
إن الله يحب الذي يحب لقاء الله...105
إن الله يحب الوتر...109
إن الله يحب سمح البيع سمح الشراء سمح القضاء...110
الذي يؤدي الأمانة ويصدق الحديث ويحسن الجوار...111
إن الله يحب الجمال...112
إن الله يحب أن يرى أثرنعمته على عبده...113
إن الله يحب معالي الأخلاق...114
إن الله يحب الذي يتقن عمله...115
إن الله يحب أن يحلف به...116
إن الله يحب أن تؤتى رخصه...117
إن الله يحب رجل غزا في سبيل الله صابرًا محتسبًا فقاتل حتى قتل ورجل كان له
جارسوء يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يكفيه الله إياه...118
الذي يحب أخاه المسلم في الله عز وجل...119
إن الله يحب الغني الحليم المتعفف...120
إن الله يحب العطاس...121

الذي يحب الحسن رضي الله عنه.....122
الله يحب الحلم والأناة 123
الله عز وجل يحب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْه 124
الله يحب المتاحبين فيه والمتواصلين فيه والمتزاورين فيه والمتباذلين فيه والمتجالسين فيه والذين يتصادقون من أجله.....126
الذين لا يحبهم الله أو يبغضهم الله أو يكرههم الله في القرآن والسنة.....126
أولًا : الذين لا يحبهم الله من القرآن.....127
المعتدون.....128
الكافرون.....130
الكَفَّار الأثيم.....137
الظالمون.....138
المختال الفخور.....143
الخوان الأثيم (الخيانة).....145
الذي يجهر بالسوء.....148
المفسدون.....149
المسرفون.....154
المستكبرون.....158
الفرحون.....164
الكره : (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها).....167
ثانيًا : الذين لا يحبهم الله من السنة.....168
البياع الحلاف والفقير المختال والشيخ الزاني والإمام الجائر.....168
الغيرة التي يبغضها الله.....169
البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة.....170
الفاحش المتفحش البذيّ.....171
العالم بالدنيا الجاهل بالآخرة.....172
الجعظري الجواظ السخاب في الأسواق.....173

السائل الملحف.....174
العقوق.....175
المخيلة.....176
الله كره لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال.....177
الخاتمة.....178
صحيفة المصادر.....180
استنصاح.....181
صحيفة الكتاب.....182